

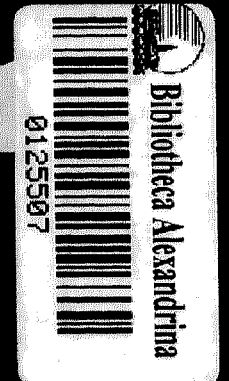
فضل عفاش

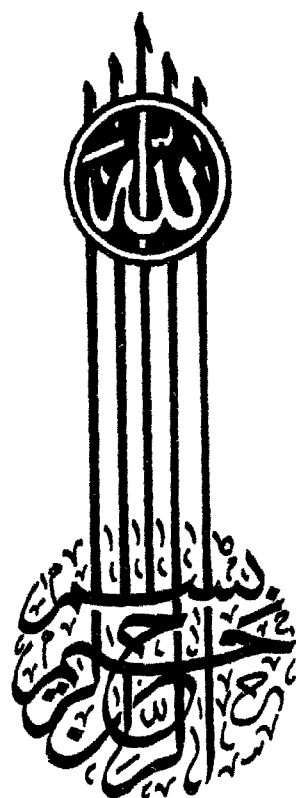


ماضي يبدأ غداً

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحدي

الجزء الأول





فضل عفّاش

الماضي يبدأ غداً

تاريخ في رواية

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحروي

الجزء الأول

(أ)

الجزء الأول

سنوات ما قبل الولادة

« 1941 م - 1966 م »

(ب)

الجزء الثاني

الولادة

« 1966 م - 1977 م »

(ج)

الجزء الثالث

سنوات ما بعد الولادة

« 1977 م - 1991 م »

ما أفتى البشر عند ما يطغون جماعياً .. !!
يا له من سيل عزم لا يرحم من أمامه !!
فلا يسمع صراخه .. ولا يمدُّ له يده
عند ما يستجديه وهو يستغيث .. بكل
يدفعه أمامه في غير إكتراث ! إن طغيان
الفرد أهون أنواع الطغيان ، فهو فرد في
كل حال .. تزيُّله الجماعة ، ويُزيِّله
حتى فرد تافه بوسيلة ما .. أمّا طغيان
الجموع فهو أشدُّ صنوف الطغيان ،
فمن يقف أمام التيار الجارف ؟
.. والقوة الشاملة العمياء ؟

محمد بن عبد الله بن مسعود

الإهداء

إلى .. ما بعد رحيل الروح

حيث تحيا الفاضلة عائشة بن نيران ومحيا
المجاهد أبو منيار ..
في ذلك العالم الأنقى .. أهدي الماضي يبدأ غداً

المؤلف
فضل

بطاقة حُرَج

أقدمها عبر هذه الصفحة إلى العظيمة

مصر
أرضاً وشعباً فني أمة

المؤلف

شكر وتقدير

أسطرشكري وتقديري إلى كل هؤلاء من شعبنا
العبري في ليبيا الثورة .. ليبييا الإنسان .. وهنا أجزم
القول .. فأقول هنيئاً لمعلم القذا في هؤلاء .

الأستاذ الفاضل / المبروك الفار
الدكتور / المدني الصديق
الأستاذ / محمد أكليلى
الأستاذ / على الطيبى
الأستاذ / مسعود الرفتي
السيدة / عتيقة القذاقي

مع خالص التحية

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل عفاش

الماضي يبدأ غدا .. !!

تاريخ في رواية

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحدوي

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٩٩١

حقوق الطبع محفوظة
لدار أفريقيا للطباعة والنشر والانتاج الفنى
فيينا — النمسا

تصميم الملاف وإخراج الكتاب
جمال حسنى

الماضي يبدأ غدا

(أ)
الجزء الأول

سنوات ما قبل الولادة
« 1941 م – 1966 م »

(ب)
الجزء الثاني

الولادة
« 1966 م – 1977 م »

(ج)
الجزء الثالث

سنوات ما بعد الولادة
« 1977 م – 1991 م »

الماضي يبدأ غداً ..

الجزء الأول

سنوات ما قبل الولادة

« 1941م - 1966م »

الماضي يبدأ غداً ..
ثمة قواعد قد تخالف هذا المنطق .. لكنها لا تتعارض عن قرب ومن حيث المبدأ والبنية
بعيداً عن أرض الواقع ..
لأن المأساة أولاً من صنع البشر وما كانت ومنذ ولادتها الأولى وظهورها على مسرح
الحياة والتاريخ من صنعة ذاتها ..
والسؤال المطروح .. أين يبدأ ذلك الماضي ولماذا يبدأ غداً ؟

فمادامت أمي قد ولدتني ذات يوم وفي ساعة محددة لم يؤرخها الزمان ولا المكان
ساعة لها طقوسها وملاحها في ولادتي أنا .. أنا فقط في هذا العالم ولن تعود أبداً هذه
الساعة ولا ذاتها تلك المرة .
ومادامت الحضارات بذاتها وليدة أزمان مختلفة وعهوداً صارت في عمر الزمان منسية ..
أين يبدأ الماضي ؟
هل من حيث أطراف الشمس تغادر .. والعبادات تصير في زمنها الغابر .. أم .. من
مواطن الحريق التي تشتعل في الصدور في هذا الزمان الأكثر عهراً ورذيلة ووحشية .. هل
هنا يبدأ الماضي ؟

فضل

دمشق أواخر شتاء 1989 م

الفصل الأول

لم تكن المدينة نائمة أو هائلة حالمة ، لكنها كانت زاهية تحيا حياتها وتنفس بالرغم من أنها تخبىء في حضانها مواطن مختلفة لا تعرف للرجاء سبيلاً ولا للعفة مكانة .

كان الوقت بعد المغيب .. عندما بدأت آخر خيوط الضوء تتسلل حزينة كثيبة وببطء شديد في يوم خريفي غريب . لتخرج من عمق ذلك الكوخ الصغير الواقف بتمرد ومنذ سنين على مقربة من شجرة التين العجوز بين جموع البيوت المتكسرة المتعثرة ، تلك التي انتصبت أعمدتها وجدرانها غصبا من بقايا نفايات أشياء الخرائب ليسكنها المساكين وتزاحمهم في ذلك الفصول قهراً .. وقذارات يرميها عليهم الزمان ويقسو ..

والخريف واقف في كل مكان .. وكل شيء في الكون لا يضحك والضوء وحده اختفى وصباحات « دنيا » الجميلة قاطنة الكوخ لا تختفي .. ما زالت تبعث من أعماقها صراخاً حاداً موجعاً .. وكأن في جسمها احتراقاً رهيباً .

ها هي ذي تستعد لاستقبال مولودها الأبكم .. وساعة الولادة أليمة .. حزينة فزوجها ما عاد بعد منذ ليلة أمس وما من مسعف لها أو مغيث ووحده الليل غداً طويلاً موحشاً وغريباً .. لم تكن ظلمته قادرة على أن تخفف من بعض آلام دنيا وأوجاعها تلك المرمية وحيدة .. ممتدة على البساط الصوفي العتيق جاهدة في ساعة الولادة على أن تضع وليدها الأبكم .. ها هي تلف في قبضة يدها ظفيريته المجدولة .. وتشد أعصابها ويزداد الألم ويقسو .. فتصرخ صرخات طويلة ولا تقسو الولادة .. فتتحرك حركة لا تعرفها إلا الأمهات في مثل هذه الساعة وحدث أن تمت الولادة .. وجاء صراخ المولود يتحدى ظلمة الليل ووحشته جاء ممزوجاً بأنفاس دافئة .. معذبة ، كان في صراخه لحن غريب .. ونشوة لم تدركها إلا دنيا ، تلك المقهورة المعذبة التي ظلت تجاهد .. وبقوة الجبابة لأن تفصل ما ارتبط بين جسمها وجسم وليدها .

ونجحت ..

ونجحت في ذلك . وكان ثمن هذا النجاح باهظاً .. فتوقف آخر نبض في قلبها .. ولم تلبث أن ارتخت يدها ، وسقط رأسها إلى الورا فلفظت أنفاسها ورحلت بهدوء شديد ، كما رحلت آخر خيوط الضوء بعد المغيب .

ليظل المولود وحيداً سجين العتمة ويبدأ مشوار الصراخ .. فيصرخ ، ويصرخ وتبدأ ساعاته الأولى .

في تلك الأثناء لم يدر كل العالم أن دنيا الجميلة قد ماتت وأن نزيفاً حاداً قد أصابها ليزحف دمها ويتدفق لا يعلن موتها في قلب الظلمة .. بل ليخرج إلى خارج حدود جدران الكوخ وكان في ذلك عذاباً ومرارة .

والمولود تائه في العتمة داخل الكوخ ، ذلك الواقف بتمرد بين جموع البيوت المتكسرة على مقربة من شجرة التين ..

والخريف نائم لا الإعصار موجود ولا الزمان في رحلة مفقودة .

وزحفت الساعات حائرة لترتمي بأثقالتها على أكتاف الفجر .. وما أن بدا الشفق وكأنه في رحلة جنون الكون زاهياً حتى حطت النسمة الباردة أوصالها في الرحاب جاءت ممزوجة برائحة الدم .. ورائحة عيدان التين ومثلها حبال الضوء العريضة قادمة عنيدة تناطح كل شيء وتنتشر انتشاراً عمّ المكان لتكشف عن كل شيء كان غريقاً في وحشة الليل .

وزحفت الكلاب جائرة جائعة قاصدة ذلك الكوخ الحافل بصراخ المولود وبرائحة الدم المتبخر عبر أشعة نسيمات هذا الفجر .

ها هي ذي قد اقتربت ومثلها حبال الضوء لتمتد الألسنة وتتذوق طعم ذلك الدم الآتي من جثة دنيا الهامدة في العمق البارد الملتهب .

ومثلما تكالبت الكلاب الجائرة لتذوق طعم الدم ، تكالبت في الكون عاصفة خريفية هوجاء فهبت الريح لتحطم أحلام الفجر وأحلام المساكين في بيوتهم المتعثرة .. فتقذف بكل شيء .. هنا وهناك بأسقف المنازل وبقاياها وتعاند جذوع الأشجار فتكسرها ويتطاير حتى سقف ذلك الكوخ .. وينهار .. فتكشف الريح للكون عن تلك الجثة الهامدة فيه .

والمولود ما زال غائباً في ضمير ذاكرة الزمن .. ومنذ البدء ما زال يصرخ وعذرية الأشياء تصرخ وتظل الصرخة ، رغم أن العاصفة قد ولت وويلاتها ظلت ، وتلك جذوع أشجار الصنوبر تتدحرج بعد العاصفة على المنحدر ، والحفر الأرضية صارت مليئة بأوراق التين المتساقطة ..

وهذا الكون .. وما هدأت ضجة الناس الذين راوحوا يللمون بفزع شديد الأشياء المبعثرة من بيوتهم ليعيدوا إليها سقفوها ونوافذها تلك التي اقتلعتها رياح العاصفة ورمتها .. قبل قليل .

وبينما كان أحدهم يبحث عن لوح من التوتياء كان قد اعتمده لغطاء أطراف سقف بيته ذلك اللوح الذي كان يخفي تحت ظله كل أوجاع السنين في حياة بيت بائس . وما أن شاهد مرمياً على مقربة من انقاض كوخ تحطم رأساً على عقب حتى مد يديه لينتشله فلفت نظره منظر دنيا تلك المتمددة المرمية في الأنقاض ، فذعر من منظرها وأصابه الدهش الشديد الذي استحال إلى مرارة .

كان الفجر كأنه واقف بلا حراك في حالة احتراق واكتئاب عندما خلع الرجل معطفه من على جسده وهو يرتعش بشدة ليرميهِ على ذلك الجسد المكشوف الملطخة أطرافه بالدم .. الغائص في ركام أنقاض الكوخ .

وما أن تحرك ، حركة المفجوع ليتعد قليلاً بعد ما أدرك وللوهلة الأولى أن المرأة صريعة متوفاة ، حتى سمع صراخ مولود صغير لم يكن يشبه صراخ الزمن . كان نقياً مقهوراً .
فهرع إلى حيث الصوت وانحنى جاثياً على ركبتيه ليفتش بين الركام والصفائح المبعثرة .. إلى أن اهتدى لصاحب الصوت ، وجده مازال عارياً قد لفه صدفة طرف بساط صوفي عتيق .
مد يديه المرتجفتين وانتشله من بين الركام فرفعه ثم أعاده إلى فوق البساط لحظات ليخلع قميصه من على جسمه ويلف به المولود .

كان المولود مغمض العينين ولكنه ما زال يجھش بالبكاء وشيء من لون وردة بنفسجية قد لون جسمه الصغير الرقيق .. ويتنفس بالرغم من أن ساعاته الأولى ما تنفست بعد .
ومشى الرجل عاري الصدر مثاقلاً حزيناً يحمل بين يديه المولود قاصداً بيته كان كالمصروع الذي ضاقت الدنيا فجأة في عينيه وبدت عليه علامات دهش غريب ويأس فظيع .. رهيب .
وما أن مرت عدة دقائق من عمر الزمان خاليات حتى حاذى بيته ثم دلف لاهثاً إلى داخله ، فهبت زوجته أم زهرة واقفة مذعورة وفتحت فاهاً مشدودة لتتطرق قائلة :

- ماذا أصابك !!؟ ومن خلع من على كتفك ثيابك ؟ ومن ذا الذي بين يديك ؟
- اطمئني وهدئي من روعك قليلاً ، وخذي مني هذا الوليد .. هيا .. هيا .. اسرعي واهتمي به لينقذه الله على يديك .. هيا هيا أطعميه من لبنك فقد أم علينا ضعيفاً .. عزيزاً .
وبرفق لا حد له تناولت أم زهرة من زوجها « المولود » وأسرعت لتهم به .. والحيرة ملكت الرجل ، فماذا يفعل بخصوص دفن تلك المرمية بين الأنقاض على مقربة من شجرة التين .. تتم مع نفسه قليلاً ثم تحرك حركة سريعة باتجاه خزانة عتيقة كانت تساند احد جدران البيت واستل منها قميصاً وبينما كان يرتديه لفت نظره ابنته زهرة تلك التي رزقه إياها الله قبل أيام معدودة .. وهي تبسم ابتسامة نقية لا يستحقها سواه في العالم .. فانحنى جاثياً على ركبتيه بخشوع واقترب منها وقبلها بحماسة ثم خرج من البيت قاصداً بعض أهل الخير .. لتقام بمساعدتهم ومع الصبح مراسم الدفن .

وتعاقبت الساعات لاهثة ، وما أن فرش الصبح أشلاءه في الكون حتى لاذت دنيا إلى حضن أمها الأرض وللأبد .

ولما اشتدت حرارة النهار عاد الرجل إلى بيته حزيناً كئيباً وعندما دلف إلى داخله ورأى المولود بين يدي زوجته أمناً تفرقت من مقلتيه دمة حرى ، مسحها بطرف كفه ثم قال بصوت خافت فيه من الرجاء ما فيه .

- كيف حال ضيفنا يا أم زهرة .

أجابته قائلة :

- الحمد لله حالته في تحسن اطمئن فلا خطر عليه فالله كبير الرحمة .

أردف قوله :

- سأسميه صعب .

وبدهش شديد قالت أم زهرة :

- لماذا صعب !! .. ولماذا أنت الذي يسميه ؟ أليس له أهل يسمونه ؟ أين أمه ؟ .. وأين أبوه ؟ .. ما لقصته ما قصة هذا الفجر ؟

قال الرجل بعد أن تنهد تنهيدة طويلة حزينة .. متعبة :

كان فجرأ غريباً .. كان فجرأ غريباً ، سأخبرك فيما بعد فأنا الآن متعب جداً وأود النوم .
وأخلد إلى النوم فنام ، ولم تلبث أم زهرة أن وضعت صعباً بجانب زهرة على الفراش
وهزت رأسها مبشرة زهرة بأخيها صعب فافتقر ثغرها عن بسملة الأمل والألم وجعلت تضحك
ثم أوت لفراشها ونامت .

وما نامت قصة الفجر .. ومرت ساعات النهار ، ومثلها ألف ليلة أرخى سدوله لتغصن
الطفولة .. ووحدته الزمن سيد الحصار .. وما غصت .

الفصل الثاني

ومرت .. بضع سنين أشبه بعاصفة طويلة الأمد كانت في أوج شدتها تزأر وتزمرجر ، ووالد زهرة كان خلالها لاهئاً مزمرجاً متمرداً في حلبة الصراع المجنونة مع الحياة للحصول على لقمة العيش ، واللقمة كانت مرة صعبة المنال ، وما من مهرب فالأفواه الطفلة مفتوحة وهي دائمة الانتظار .

فمرة كان يهتدي لللقمة بعد أن تكون أضلاعه قد تكسرت وتهالكت وانكتمت أنفاسه من عتالة أكياس الطحين الثقيلة وحملها من مخازنها إلى عربات المخازن .

وأخرى لأجلها يقطع المسافات الطويلة المجهددة الممتدة في أزقة بيروت وحاراتها ، مشياً على قدميه حيناً .. متثاقلاً .. وحيناً آخر متثاقباً .. يبيع أصنافاً مختلفة من الكعك فيتعب ولا يبالي أبداً من أن يصيبه ويدهامهم الهلاك .. وما كان يعلن ذلك قط . فتارة يطوف للرزق جاهداً .. معانداً كمن يبحث عن قطرة الماء في غابة العطش .. ويفر من شبح الجوع ووهمه ، فتجده بين لحظة وأخرى .. يتهاذى ويتراكم كهارب من قبضة الموت الحديدية ، يحمل بين ذراعيه ما رمته المطابع من جرائد ومجلات إلى الناس والشوارع .

ومن رصيف إلى رصيف وفي الزحام .. يكابر ويصبر لأجل زهرة وصعب وينتصر في آخر النهار . ويكسب اللقمة بعد الألم والعقم .

ومنذ أن طل هذا الصيف على الوجود كنت تجده وقبيل المغيب جاراً أمامه عربة بعجلتين لملم فيها ما لملمه من نفايات وقذارات رماها الناس وراءهم في الطرقات قاصداً محفلاً كبيراً أقيم بطرف المدينة لتخزين القمامة وإتلافها .

وبعد المغيب يفر فرحاً هارباً من الحلبة المجنونة إلى أهل بيته حيث هناك تبتسم الطفولة لما يحمله بين يديه ، فتفرح وتكاد ترقص كالمساء وفي فرحتها تمسح من ذاكرته ومن كل أشيائه آلام النهار وأتاعبه ، فتبديل الغصة لتصير متعة لا يدركها إلا الذين هم في حلبة الصراع

يتناطحون .. ويتراكمون لاهئين كالكلاب للحصول على رغيف الخبز ليسدوا به رمق أطفالهم .

وانصرمت أيام الصيف بعذاباتها ، والعربة ذات العجلتين ما فتئت تواكب مسيرتها وتبحر في الشوارع وعلى أكتاف الأرصفة ، جارة وراءها أبا زهرة بكل آلامه وآماله .
ها هي تتقدم قبل مجيء الغروب لتقترب من كورنيش البحر كما يقترب قرص الشمس ليغوص فيه ويغيب والنسمة مسكنة في فاه الكون خائفة مكتومة ، مثلها هؤلاء الرجال الذين جلسوا يتكلمون كثيراً ويتنهدون .. تنهيدات طويلة في مقهى « البحر » المتواضعة الفقيرة .. يرتشفون الشاي ..

ها هم يتحدثون أحاديث لا تخلو من الألم والمتعة معاً وعلى مقربة منهم اصطفت متتالية العربات ذات العجلتين الواحدة تلو الأخرى مملوءة بقذارات الأحياء والشوارع متوسمة بالمكانس الكبيرة .. وما هي إلا لحظات معدودة مرت حتى حاذت العربة زميلاتها وأخذ أبو زهرة مكانه بين الرجال في المقهى ليرتشف الشاي ويبادلهم أطراف الحديث .

ووحدها تلك الكلمات التي كانوا ينطقونها تنسج ذاتها بذاتها وتحيك قصصاً أشبه بقصص العصيان والتمرد إلا أن عصيانها كان لرغيف الخبز فقط . قصصاً قد غابت هي أصلاً في كهوف الذكريات لكنها كانت تبعث على المتعة والشجون برغم مرارتها .. فيحققه البعض لها والبعض الآخر يخطفه الدهول فيصمت صمت اليأس والقنوط .. ثم يصحو من هذا بعد أن يكون قد لفظ من أعماقه آها حزينة وأي آه تلك وأبو زهرة شارد يفكر بشقائه لقد استولى عليه شرود هو أشبه بشرود المفكر المستغرق في خواطره وحاله .. يائسة بائسة . والكل لاحظ عليه ذلك ودهش من نظره .. فخاطبه أحدهم قائلاً :

- ما بالك يا أبا زهرة .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

- لا .. لا شيء يا صاحبي .

استطرد الرجل : « انني أراك شاحب الوجه مصفراً .. شارد الذهن ، فهل أنت مريض ؟ »
قل .. قل مم تشكو .

هز أبو زهرة برأسه وكأنه يؤكد على الشكوى ولا يستغيث ثم قال :

- أشعر بالتعب يلف جسدي .. وقد أخور صريعاً كالثور بعد التعب .

- ماذا .. ماذا تقول .. سلامتك يا رجل عليك اذن بالطبيب .

- وماذا يفعل الطبيب .. فلو خلصني من الآلام التي حطت بأطرافي وكتفي وأحشائي ،

لن يكون قادراً على أن يخلصني من آلام ذاكرتي وفكري وحياتي ، ووحده الله ولي التدبير .

ثم انتفض رجل كان يجلس في الزاوية الركنية في المقهى قائلاً مخاطباً أبا زهرة :

- كلنا في خدمتك يا أبا زهرة . فما كان منه إلا أن مد يده إلى جيبه واستل منها بعض النقود ليعطيها إلى أبي زهرة .. واستطرد : (خذها يا صاحبي ليدبر الله أمرك فالبارئ رزاق كريم » .

- شكراً لكرمك وشهامتك يا صاحبي .. أرجع نقودك إلى جيبك فوالله .. والله ما أجد فيها نفعا ..

.. وبعد . استأذن من صاحبه للانصراف .. وانصرف تبعاً تجره العربة ذات العجلتين .
وحديث الرجال في المقهى توقف برهة من الوقت عن الهذيان والجريان وكأنهم ذعروا
من شحوبة حال صاحبهم المسكين وأخذ كل منهم على حده يقول في سريره متسائلاً :
- لو داهمني المرض فجأة فكيف سيكون المصير ؟؟ .. كيف .. كيف ..
وكانهم جميعاً بدأوا الغوص في لجة النهاية المؤلمة تلك المخفية في ظلال المجهول ، ليحيء
قدوم الليل موقظاً منقذاً .. فيفترق شملهم ويذهبوا ..

وقبل أن يسدل الليل سجونته الثقيلة ويحطّ جرائنه على المسكونة وصل المتعثر إلى بيته
حاملاً بين يديه قوتاً لزوجه وطفليه ..
ولما دلف داخلًا إليه ، أسرع زوجه لتناول منه ما حملت يدها وطلت كبد الدجى مشرقة
ابتسامة زهرة رقيقة شافية شفافة لتبعث في نفسه الارتياح والطمأنينة ، فابتسم لها ابتسامة ظلت
تعبه رغماً من أنفه ، وما لبث أن اقترب منها لينحني إليها ويقبلها وأي قبله !! .. حتى نظر بعينين
مسكيتين متعبتين تجاه صعب النائم على الفراش قرير العين .. فتقدم منه رويداً .. رويداً ولما
اقترب جثا على ركبتيه .. وامتدت يده لتلمس برقة متناهية خصلات من طيات شعره لتمر لحظة
فيقبله فيها مراراً وما كاد ينبس بنبت شفة بعد حتى شعر بغيبوبة ثقيلة تحط على جسمه فأخذ
يستلقي على ظهره مسرعاً .. مستسلماً .. لدوار في رأسه .. دفعه لأن يجمد في مكانه لعدة
دقائق ..

ومرت الدقائق ..

ولما التفتت إليه زوجه لم تفجع من منظره أبداً .. لكنها أوشكت وللوهلة الأولى . وقالت في
سريرتها : إلى متى تملكك هذه الغيبوبة .. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً يخلصك من هذا الألم ..
ثم أسرع تجلب بعض الماء وتسقيه فشرب وبعدها جاءته رجفة شديدة فشعر ببرودة غريبة تلامس
مسامات جلده .. فاصطكت أسنانه وتأتأت فطلب وبعضية الغطاء الصوفي .. ولما جلبته ولحفته به
هرعت بعد أن ملكها احساس مشوش لتعد وجبة الطعام .

أما الرائعة زهرة فكانت فضولية جداً تتبع أمها كظللها وتراقبها بشدة وتود أن تقلدها في
إعداد وجبة العشاء وحتى في تهيدة طويلة تخرج من أعماقها ولكنها لم تكن قادرة على أن تدرك
جيداً ما وراء تلك التهيدة .

ولما جلبت أم زهرة الطعام ايقظت زوجها من غفوته المتعبة فاستيقظ متكاسلاً وأيقظ صعباً من
رقاده .. ليجلسوا جميعاً على مائدة العشاء .

قالت الزوجة لزوجها بعد أن أدركت أن شروداً ما قد ملكه :

- لماذا لا تأكل .. وما الذي يشغل بالك ويتعبك يا عزيزي ؟


أجابها قائلاً :

- تقررصني عقارب الجوع فأشد بيدي على بطني .. ونفسي كارهة ترفض القوت ..
ولا أخفي عليك فأنتي أشعر بيركان قد ينفجر في رأسي .. ولا أدري ما سبب ذلك أهو الخوف
من الغد أم من تعب النهار وقسوته .
وسكت ثم استطرد « ما دمتم أنتم بخير .. فأنا بخير .. ويا خوفي لو داهمني الموت ماذا سيحل
بكم » .

انتفضت الزوجة من مكانها وبعصية قالت :
- اسكت .. اسكت لا تقل هذا ففي هذا كفر عظيم . وما أن سكتت حتى انتفضت
الرائعة زهرة من مكانها مقلدة أمها لتقول مخاطبة أباهما ما قالته أمها :
- اسكت .. اسكت لا تقل هذا ففي هذا كفر عظيم .
وعلى الفور ابتسم الزوج وزوجه واستطاعت زهرة وبراعتها أن تبدل الألم بالإبتسام .
وسارعت أم زهرة تطعم زوجها كما تطعم الأمهات أطفالهن ، وكذلك زهرة ما زالت تهوى
التقليد فتبدعه .. وما أحلى من طفولة تقلد ..
ها هي ذي تنال .. لترتمي في حضن والدها وتطعمه كما تفعل أمها .. ووحده صعب
كان يراقب بعينه ما يجري .. على مائدة العشاء ويتسم ويتسم .
ومرت ساعات ما قبل منتصف الليل .. فنام صعب وكذلك زهرة واستسلم الزوج أيضاً للنوم
فنام نوماً عميقاً .

والزوجة ظلت وحيدة تساهر الليل وكأنها الضوء المشرق والرقعة الناضجة عن الطيبة ..
ها هي تستسلم .. لشجونه كأننى مطيعة لهيجته فتأججت عواطفها .. بعد ذهول طويل .. طويل
في حالة زوجها وبلا شعور انهار شعرها على كتفيه مستسلماً براقاً والليل باقي مضيء براق ووحده
الليل كان قادراً على أن يوقظ الرجل من نومه ، لترتفع يده اليمنى وتغوص ملازمة أمواج شعرها
والأخرى راحت تلف خصرها . فلفهم الليل في عظيم نشوته وأزاح في بالهما : ما عاداهم به النهار .
ومرت ساعات من الليل خائفة مطمئنة ، لاهثة دافئة، مرتجفة ساكنة ، ساخنة باردة ،
ليستسلم كل شيء ويجيء الفجر بعد السحر مسرعاً قبل الشروق .

وبعد أن بدأت الشمس تسترجع مسئلة بهدوء كساهمة شاردة أولى خيوطها المذهبة من كل
سفع وقاع في عصر اليوم التالي .. مرت بمقهى « البحر » مطلة إلى عمقه الدافئ عبر نافذته الصغيرة
المطللة على وجه البحر .. وجدته حافلاً يجمع شمل المعذبين .
ولما أدركت أن حرارة أحاديثهم أكثر حرارة ودفعاً من خيوطها .. انسحبت دون استئذان مسرعة
لتختفي وراء غيمة خريفية مسافرة .. فابتعدت وتابعت سيرها متجهة إلى أسفل عرض البحر لتنتحر
فيه ولا تموت .

والحديث في عمق المقهى حار .. وما أدراك .. فحديث الفاقة والجوع .. المزوج مزجاً غريباً
بالرأفة والخشوع يظل ملتبهاً .. رغم برودته ووحده كوب الشاي الذي يقدمه حكيم لربائنه كان
يستنزف الكلمات بقوة .. والعربات مصطفة على مشارف المقهى واقفة ساكنة مردانة ومملوءة
بالفضلات وبقايا الأشياء ومن  ري ما أعنيه ببقايا الأشياء!!؟

وفي زحمة الحديث التائه المشتت بين الفقر والفضيلة ، وبين الشكوى والأمانى النجوى ، دلف داخلاً أبو زهرة مشرق الوجه مبتسماً بعد أن غادره الشحوب ، فحياً الرجال وحيوه ثم جلس بينهم يشاركهم الحديث ويرتشف معهم الشاي .

قال أحدهم يطمئن على حاله :

- عساك اليوم بخير يا شيخ « الزبالين » ..

أجابه أبو زهرة قائلاً مستبشراً بالله عز وجل :

- بخير والحمد لله على كل شيء .. فوحده الله ولّني التدبير .

استطرد الرجل : « ونعم بالله .. ونعم بالله » ثم أردف : « لقد مررت مع هذا الصباح بساحة الزعيم رياض⁽¹⁾ الصلح لأطمئن عليك فلم أجذك هناك ، عندها انتابني الظن بأنك قد منحت لنفسك أجازة من العمل لتستريح .. وبالتالي لم أتوقع مجيئك إلى هنا » .

رد عليه بعد أن تنهد تنهيدة قصيرة : « لقد صدق ظنك والله فأنا فعلاً قد منحت نفسي إجازة ليوم واحد فقط ومع ذلك أفلحت برؤيتكم فيه وبذلك أكون قد أفلتت توقعك يا أخ رأفت وأتيت » .

فابتسم .. وابتسم .. فابتسموا .

وفجأة قال أبو مسعود وبصوت ثخين غليظ خرج من حنجرة خشنة دوى في آذان الجميع :

- كل شيء يتدحرج في هذا الخريف .. إلا جدي البخيلة ، لا تتدحرج إلى القبر .

فضحك الجميع « ها .. ها .. ها .. » ثم استطرد وقال : « وهل يود صاحبنا أبو زهرة أن يتدحرج كورقة خريفية صفراء ويترك هذا « الكار » القدر .

التفت إليه أبو زهرة وحده بنظرة لم تكن ساحقة ، ثم نطق وقال يخاطبه :

- أدري .. ويدري الكل أنك فوضوي مشاغب وتميل للمزاح كثيراً ولكنهم لا يعلمون بأن صوتك الرقيق الشفاف هو الذي يقف بعناد في وجه عواصف الخريف ويمنعها من أن تدحرج أمامها جدتك » .

وعلى الفور عمت ضجة في المقهى ، كانت عبارة عن ضحك طويل طويل وصده وكالعادة صاحب الصوت الثخين الذي أصابه بعض الغيظ فهب يقول :

- اضحكوا .. اضحكوا على أبي مسعود ليسعد الله الفقراء .. ليسعد الله الفقراء . ثم سكت وعاد واستطرد بعد أن ابتسم ابتسامة خشنة :

« تضحكون وتشربون الشاي .. وأنا مضحكتكم ومع ذلك فأنا لا أشرب الشاي مثلكم فأين الشاي يا حكيمة .. أين الشاي يا حكيمة » .

قال حكيمة صاحب المقهى .. حالاً .. حالاً سأتيك به يا ثرثار ..

أجابه باستهزاء غير معهود :

(1) رياض الصلح ١٨٩٤ - ١٩٥١ م : سياسي لبناني ولد ببعبدا ، عمل على توطيد استقلال لبنان وولى رئاسة الوزراء عدة مرات ، اغتيل في عمان .

- إذا كنت أنا الثرثار .. فأنت الحكيم قليل الكلام .. وهاك مختصر الكلام .
وقال بعد أن مد يده إلى جيبه وتناول منها بعض النقود مبتسماً مرفوع الرأس والجبين :
- خذ هذه النقود يا قليل الكلام ولتكن المشاريب هذا اليوم على حساب أخيك الثرثار .
وما كان من حكيم إلا أن جفل دهشاً وانشدها وقال :
- غريب .. شيء غريب .
قال الرجال وبصوت واحد متكاتف .. وما الغريب في ذلك يا حكيم .
حكيم : « من جيب أبو مسعود تخرج النقود » ثم سكت وأردف مخاطباً أبا مسعود :
- وهل عثرت يا صاحبي على الكنز المفقود .
أجابه أبو مسعود : لا .. لم أعر بعد على الكنز المفقود ولكني عثرت على محفظة عامرة
بالدراهم وجدتها مرمية منقوخة البطن والكتفين على حافة الطريق ..
« .. أليس من الواجب أن تبحث عن صاحبها وتعيدها إليه » هكذا قال حكيم لأبي مسعود .
فرد الأخير قائلاً :
- نويت ذلك والله ولكني عندما فتحتها وتفحصتها جيداً لم أجد فيها غير النقود
وأنا أولى بها من غيري وأنت حكيم تفهم قصدي !!
ثم التفت إلى أبي زهرة مبتسماً وقال :
- أليس كذلك يا صاحبي .
أجابه بسرور : « مبروكة عليك النقود » .. ثم شكره على دعوته وأردف قائلاً :
- سنشرب الشاي على حسابك فخذ النقود يا حكيم ولا فرق بيننا فكلنا إخوة والحال
واحدة .

وفرحة عظيمة غمرت صاحب الصوت الثخين ورفاقه في الشقاء ، إلا أن شروداً ما قد داهمهم
جميعاً وبدأ يشدهم الواحد تلو الآخر ، كان هذا الشرود قد ملكه كحلم قصير من أحلام اليقظة ،
والكل وبدون استثناء تخيل في تلك اللحظات وتمنى بحبكة مقصودة رسمها خياله من صور هي
دفينة مكبوتة .. وتقول الحبكة وكذلك يقول الخيال .. أنه وبينما كان يللم الفضلات تلك المتروكة
على رصيف ما .. عثر على محفظة مملوءة بالدراهم ، فارتفعت درجة حرارته ، وتسارعت دقات
قلبه فقفز في الهواء ثلاث قفزات ثم فرح فرحاً عظيماً لا حدود له .. لم تعرفه العصور ولا حتى
الأساطير ثم هرع راكضاً ليدعو صاحبه وأولاد « كاره » رفاقه في العمل ليشرّبوا ، على حسابه الخاص
الشاي في مقهى حكيم .. ثم يفر قبل المساء ليشتري كل شيء .. كل شيء في هذا العالم ، سيشتري
الخبز واللحم والفاكهة . ولن ينسى أبداً أن يشتري غطاءً صوفياً ليلتحف فيه هو وأطفاله من برد
الشتاء القادم على الأبواب .

ها هو ذا .. يتذكر ويقول في سريره : قبل كل شيء يجب أن أشتري لوحين اثنين لا ثالث
لهما من صفائح التوتياء لأسد به سقف البيت المكشوف . نعم .. لن يزاغني مطر الشتاء في هذا
انعام .

ومرت لحظات معدودة كان خلالها الكل غواصاً ماهراً في حلم اليقظة الذي ما زال . وما أن قهقهه صاحب الحنجرة الثخينة ، حتى ايقظهم من شرودهم الجميل .. فاستفاقوا ليقبى الواقع المر كالشبح الخفيف المتمرد .
وكرة أخرى عاودت أحاديثهم جريانها وحرارتها فتعالت حبال الصوت الدافعة المرة من حناجرهم لترمي ومن جديد الضجة في عمق « المقهى » منتصرة على الواقع وأي انتصار !! بعد أن خضعت وضربت ذاتها بسياط الزمن .

— — —

« ما بالي .. ما بالي أرى الشوارع هذه الأيام عامرة مطفوحة بقصاصات الورق الصغيرة والكبيرة المتناثرة بآلاف الأشكال في كل مكان كأوراق الشجر التي هزتها رياح الخريف أفي هذا لغزاً صعب الحل ؟ » كذلك قال أبو حازم « الزبال » مستفسراً عن هذا الأمر الذي غدا له وكأنه لغز يحتاج إلى حل .

أجابه فرج مبتسماً .. وهذا بدوره أصغرهم سناً في مجلسهم وفي العمل أيضاً وهو ابن القيروان⁽¹⁾ جاء لبيروت منذ أعوام قليلة ليتابع فيها دراسته في كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية .. واتخذ من عمله كموظف لأحد شوارع بيروت سبيلاً ليقنات منه فيدرس أولاً ثم يعيش .
نطق قائلاً : لا أرى في قصاصات الورق المبعثرة في الشوارع أي لغز .. يا أبا حازم فكل الأوراق تلك المتناثرة في الشوارع وعلى الأرصفة وحتى في الأطراف هي عبارة عن نداءات ، وبيانات مختلفة لأحزاب كثيرة .. كثيرة موجودة في هذه الديار العامرة بالاتجاهات المختلفة المتخلفة المساعي والأهداف الخائرة مستجدية لأن تجد لها طريقاً إلى ساحة النضال .

وهنا ضحك أبو مسعود بضحك هادر .. هادر إلى درجة جعلت أبا حازم يسترخي وجعلت فرج نفسه يبتسم .. ثم وبغباء قال :

ماذا ؟ بيانات ، أحزاب ، واتجاهات .. وأنا الذي بأم عيني رأيت الصبيان في الطرقات يللمون من هذه القصاصات ويصنعون منها الطائرات الورقية .. نعم نعم .. لقد رأيته يصنعون منها سفناً صغيرة وصواريخاً أيضاً .. وما أبدعهم وهم يتسابقون إلى قذفها هنا وهناك .. في الهواء وإلى الماء .

وباحترام بالغ القدر أجاب ابن القيروان قائلاً :

بيانات ، أحزاب ، اتجاهات ، وغيرها جميعها مصطلحات سياسية ومن يقذف بالقصاصات الورقية إلى الطرقات يقذفها لتقرأ الناس ما كتب فيها .. لا ليصنع منها الصغار سفناً وطائرات .. أفهمت يا صاحبي .. أفهمت ..

(1) القيروان مدينة بقرطاج بناها القائد عقبة بن نافع سنة 670 هـ ، أقامت بها عاصمة الفاطميين الأولى 909 هـ ، وبها جامع القيروان الشهير والذي يرجع إلى القرن التاسع تشتهر القيروان بصناعة السجاد ويبلغ عدد سكانها 33968 نسمة .

« لا .. لا لم أفهم » كذلك قال صاحب الصوت الثخين ساخراً ، فانتفض فرج من قعدته مكتظاً وهرع مسرعاً باتجاه العربات المزدانة المطفوحة بالفضلات وقصاصات الورق المختلفة .. فمصر على الأولى لا ليتفقددها .. بل يمد يده ويستل من حضنها بعض القصاصات ثم .. آل إلى أخرى .. وأخرى .. وأخرى .

وعاد يحمل بين يديه قسطاً لا بأس به من الأوراق المختلفة الأحجام والألوان وما أن مكث على الكرسي الخشبي الصغير بين الرجال .. حتى تناول ورقة من القصاصات التي وضعها أمامه على الأرض قبل قليل كما يستل أحدنا ورقة الحظ من بائع أوراق اليانصيب .
- ولما عزم على قراءة ما كتب على ظهر الورقة قال :

- .. اسمعوا يا رجال .. إن لكل قصاصة من هذا الورق حكاية .. وهأنذا سأعرفكم بهوية هذه الورقة لكنني سأعجز بكل تأكيد على أن أسرد لكم حكايتها وما أن بدأ ليقرأ ويقول .. في أعلى .. حتى قاطعه صوت غليظ يقول الصوت بلهجة الساخر : « وهل للأوراق هوية يا فرج » .

« اسكت ، اصمت قليلاً يا رجل .. دعنا نسمع ما يقول » هكذا قال الجميع وبصوت واحد .
وأردف فرج :

« في أعلى الورقة كتب وبخط عريض .. عريض » مجموعة الانتقام « وفي منتصفها كتب وبخط بارز .. أقصد بحرف نافر » سنتقم .. سنتقم لأن شعارنا وهدفنا هو الإنسان » .
ثم سكت فرج وأردف يقول بعد أن تناول ورقة أخرى :
- انظروا إلى هذه الورقة .. تبدو جميلة اللون زاهية أليس كذلك !! وهذه الباهية كتب في وسطها وبخط غليظ « مجموعة الثأر » وأهدافنا أخونا الإنسان « سنثأر .. سنثأر » ..
ثم رماها من يده وتناول ثالثة وقال :

هذه الورقة تبدو مستطيلة الشكل لكنها تعود للحزب التقدمي الاشتراكي وما أدراك ما الحزب التقدمي الاشتراكي .. ثم رماها أيضاً وتناول رابعة تعود لحزب الكتائب .
ثم ارتفع صوته بعد أن بدأت عليه ملاح المتحمس لشيء ما .. وقال :
- انظروا .. انظروا إلى هذه الورقة البراقة ذات اللون البرتقالي فهذه الورقة التحفة تعود لحراس الأرز ..
ومد يده لواحدة أخرى وقال :

- أما هذه القصاصة الصفراء فتعود للتجمع البطريكي ..
ثم هز رأسه إلى أعلى وأسفل .. وبعد أن تتم كالحائف وكأنه يطالب حبال صوته بأن لا تعلق حيث قال :

- وهذه التي تناولتها يدي مؤخراً تابعة لقوات الصاعقة ، وأختها القادمة من تكون ؟
هات وناولني ورقة يا أبا حازم .. فناوله ثم ضحك ضحكة خوف وقال :
- ألم أقل لكم ستكون أخت التي قبلها فهذه المخطوطة تابعة ومباشرة للجهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .

وكرة أخرى قاطعه صاحب الصوت الثخين بعد أن مد يده إلى القصاصات واستل واحدة منها قائلاً : بحق الرب عرفني بهوية هذه الورقة .. فتناولها فرج .. ولما قرأ ما كتب فيها قال ضاحكاً ساخراً : « أنها تابعة لمجموعة أيلول الأسود » بيض الله بختك وأزاح السواد من أيامك . ثم كانت المفاجأة حيث قال أبو زهرة بعد أن استل من جيبه ورقة أنظف الأوراق على الإطلاق وأبهاها منظرًا ولونًا مخاطبًا فرج بعد أن أعطاه الورقة : وماذا عن هوية هذه الورقة التي زينت بصورة أبي خالد .. ووالله لولا صورته ما وضعتها منذ أيام في جيبى .

قال فرج وبدون أن يقرأ ما كتب عليها : إنها تابعة « للمرابطين » ما دامت قد زينت بصورة الخالد .. ثم شده شرود أدهش الجميع .. وأدهش أبا زهرة ذاته . ليقول أحدهم : المرابطون .. ما يعني هذا يا فرج .

أجابه فرج .. جماعة تتزاحم على فضال الخالد فتحاول الانتاء إلى اسمه .. ولا أكثر ولا أكثر .. وتطلق على نفسها « حركة الناصريين الاشتراكيين » وسكت سكوتاً طويلاً . ثم قال صاحب الصوت الثخين وبعبصية المتمرد الرافض . وماذا يعني من كل هذا .. فكل هذا هراء .. ما دامت الأوراق كلها قد غاصت آمنة حاملة في حضن العربات .

وبهذه الكلمات ختم أبو مسعود حديث الرجال .. وما أن انتحرت الشمس غريقة في عرض البحر حتى تفرق شملهم من جديد .. ليفروا إلى منازلهم فيضحك عليهم ولا يضحك لهم ذلك القدر .

وظلّ .. وظلّ البحر وحيداً عملاقاً يتحدى المساء بعدما ابتلع قرص الشمس ليحيى الليل محطماً غروره ساكباً عليه وشاح الظلام . ومضت مطوة من الليل .. فلاذ أبو زهرة لبيتته ، وكذلك مكث رفاهه في بيوتهم مغموسين غمساً فيها .. خائعين طائعين لأسارير الليل وبهائه وسرعان ما استسلمت أجسادهم المنهكة التعب لسينة النوم .

وتجدد صراع !! فانتصر الحلم واحتل كل نفوذ ضارباً في عرض الحائط سكون البحر وغروره محطماً عرش الليل الذي لا يقهر ، فتارة يفرح الحلم ذاته فيفرحهم في رقاهم ، وتارة يبيء منسوجاً بالخوف والقهر مذعوراً فيخيفهم ، وتارة ثالثة يخلق طائراً في سماء السعادة فيخلصهم من عذابات ومرارة الواقع فيسعدهم ليعود في آخر المطاف ويصبح مكللاً .. مجللاً .. في كيانهم كابوساً ذا وشاح رهيب رهيب فيرهبهم . وقبل أن يزدادوا لهائاً .. ويصرخوا .. يرتفع الضحى . فيعيدهم كرة أخرى إلى الواقع .. فيستفيقوا من رقاهم فيهب في وجههم النهار هباً ويسبحون إليه نشوراً .

ولما اشتدت حرارة النهار ، تجمعوا في ميقات واحد أمام بوابة مقر بلدية « منطقة الدورة » الواقعة على الشط في العاصمة .

ها هم اولاء يشكلون حلقة دائرية ليست كمثل الحلقات في المحافل الدولية ، كانت هذه الحلقة بريئة المرام .. وسامية الأهداف والمثال ، أهدافها النظافة نظافة بيروت الحاملة المطمئنة بشوارعها وأحيائها وناسها الطيبين . أما مرامها في البدء والنهاية لقمة العيش الهاربة الغائبة المثال !!

« لقد جاء مسرعاً بعد تأخير ناظر البلدية صاحب الأمر الذي ليس له مثيل .. ها هو قادم إلينا بقائمة شوارع المساكين » ..

عندئذ قال فرج مجيلاً الطرف في حوله :

- أظن يا رجال أن الحظ هذه المرة أيضاً سيحالف صاحب الصوت الثخين ويبقى المسؤول عن تنظيف شوارع جل الديب .. فيبدو أن هناك علاقة وطيدة وخفية بينه وبين جل الديب .

فابتسم الجميع ابتسامات عريضة ثم حضر صاحب الأمر الذي ليس له مثيل ويده ورقة مستطيلة كتب على ظهرها أسماء رجال وحاترات وشوارع .. ثم قال في لهجة أمرة بعد أن ابتسم نصف ابتسامة مجاملاً الرجال :

- مرحباً بكم يا رجال ، لتلتزموا الصمت قليلاً .. فالتزم الرجال .

ثم أردف ، سأتلو عليكم الآن أسماءكم وأسماء المناطق التي تم اختياركم للعمل فيها ضمن الدورة الجديدة بعد التبديل الأخير وهذا عرف مقصود تثار في تدبيره إدارة البلدية كلما اقتضت ذلك الضرورة .. فهل اسمعوا ..

السيد أبو مسعود « شرق العاصمة » منطقة « جل الديب »
وهنا قاطعه الرجال بالضحك والثرثرة فيما بينهم على أبي مسعود .
وقال فرج مبتسماً : ألم أقل لكم يا رجال إن هناك علاقة وطيدة بين أبي مسعود وبين جل الديب .

« اسكت يا سيد .. اسكت والتزموا الصمت جميعكم حتى يمكنني أن أتابع قراءة القائمة »
كذلك قال الناظر بعصبية ثم أردف وبصوت عالٍ :

أبو حازم	« شرق العاصمة »	- « منطقة انطلياس »
أبو محمود	« شرق العاصمة »	- « منطقة نهر الكلب »
أبو ريمون	« غرب العاصمة »	- « منطقة المتحف »
أبو سيمون	« غرب العاصمة »	- « منطقة البربر »
أبو جريس	« غرب العاصمة »	- « منطقة دويرة المطار »
أبو وليم	« غرب العاصمة »	- « منطقة رأس بيروت »
فرج القبرواني	« غرب العاصمة »	- « شارع جمال عهد الناصر »
أبو حسين	« شرق العاصمة »	- « منطقة الرلقا »

أبو زهرة « شرق العاصمة » - « مشفى دير الصليب »
 وكرة أخرى قاطعه الرجال بالضحك الطويل والمشغبة المقصودة فقال الناظر في إيماءة ضارية -
 وما الذي يضحككم .. ولم هذا الشغب المقصود ؟
 قال أبو مسعود مقاطعاً إياه : العصفورية يا سيدي الناظر .. إنها العصفورية .
 الناظر : وما بال العصفورية يا ثخين الصوت .
 ثم أردف أبو مسعود : لا .. لا شيء تفضل وتابع قراءة القائمة .. وتابع الناظر فقال :
 فلان شرق المدينة .. منطقة ؟ .. وفلان غرب - ولما انتهى من قراءة جدول الأسماء أضاف يقول :
 ها أنا قد تلوت على مسامعكم الأسماء والأماكن ويبقى أن أقول للبقية الباقية منكم
 أقصد الذين لم يسمعوأ أسمائهم فعليهم جميعاً أن يختاروا بحرية مطلقة من يرتاحون للعمل معهم
 من رؤساء الورديات الصباحية فقط ولا أقول المسائية .. انتبهوا .. ثم فر مسرعاً ليدخل إلى مبنى
 البلدية وهو يتمتم ويقول : « هراء .. هراء .. إلخ .. » .
 وما هي إلا لحظات مرث حتى علا صوت الرجال وهم يثرثرون ضاحكين على أبي زهرة .
 ووحده أبو مسعود من كان يشعل فتيل الضحك .
 عندئذ قال أبو زهرة رافعاً عينيه في ضراعة .. مخاطباً الجميع :
 - ما بالها العصفورية أليست بدورها أرحم من زحمة الشوارع وأتعابها وعلى الأقل فهي بيت
 كبير عامر بالرحمة والحنان .. لخدمة الإنسانية ، وأنا سأكون سعيداً جداً عندما أبأشر عملي
 في هذا البيت العظيم .. الذي تسمونه أنعم العصفورية .
 وانصرم ذلك اليوم من عمر الزمن .. وكذلك توارت الأيام ساخرة مستهزئة وغير
 مبالية بالذين ما زالت أفواههم عطشى في غابة اسمها الحياة .
 وأبو زهرة المسكين ، جاهداً .. يثابر في عمله ، ينظف ويكنس في ذلك البيت العامر . ومن يدري
 بما عَمَّر .

الفصل الثالث

كان الصبح طفلاً ما يزال ، عندما فتح صعب عينيه ، ونهض من فراشه كما نهضت منذ لحظات خيوط الضياء الأولى من حضن الكون براقة غير قلقة لتشق طريقها إلى الوجود .
لقد استشعر الطفل أنه بهيج سعيد لأنه سيرافق والده إلى بيروت العظيمة ، لم يكن وقتذاك يدري عنها أي شيء .. وما كان باله مشوشاً بقطرات الزمن ، ووحدها ذاكرته العذراء الصافية النقية كانت في أوج ولادتها نشطة نظيفة ما مستها شائبة بعد كبرعم زهرة ربيعية ما قبلته الشمس وما صادقه الندى بعد ..

في هذه الأثناء جالت في خواطره أفكار هي بعفتها أظهر بكثير مما يدبره الزمن للفقير ، كان يبحث في خيال خصب ومجتهد عن صورة تمثل أمامه لبيروت ، فصار خياله ينسج خيوطاً غير حائرة لما تدبر وذاتها بذاتها تحيك الخيوط لتبعث في صور متعددة الجمال والروعة لكنها في حقيقتها تشبه بيروت إلى حد ما .
في الوهلة الأولى تخيل بيروت على أنها حديقة من ورد رائعة الجمال عامرة بالفرح ويلعب في حضنها الأطفال لعبة « الطمامة » كما كان يلعب هو وأخته زهرة على مقربة من بيتهم الواقع بين البيوت المتكسرة .. المتعثرة .

ثم تراءت له بصورة أخرى على أنها كقطعة من الحلوى سيتذوقها اليوم لا محالة وينعم بطعمها اللذيذ وتخيّلها أيضاً على أنها أرجوحة وادعة سيرتمي في حضنها ويفرح كتلك الأرجوحة التي نصبتها له أمه بين الصنوبرات على مقربة من البيت الذي يأويهم . ولم يستبعد في إحدى الصور أن تكون دمية صغيرة تشبه عذراء طاهرة اسمها زهرة الدلوعة .. وعلى كل حال كان مسروراً جداً لكل ما صنعه الخيال ذلك البرعم النظيف .. وأي سرور ذلك !!

ومرت اللحظات غير خائفة فتتنفس الصباح .. جاء مشرقاً خلاها فبزغت الشمس واستيقظ أبو زهرة وكذلك زهرة الدلوعة وأمها. وبعد أن جلسوا جميعاً لتناول ما احتفت به « مائدة الإفطار » الفقيرة .. انطلق صعب فرحاً برفقة والده إلى الشارع قاصدين بيروت الحلوى والأرجوحة !!

وفي الطريق ..

وبعد ما أن قطعاً شيئاً على الأقدام مسافة كانت تقع بين البيوت المتعثرة .. ومنطقة القصور .. وعندما دخلنا منطقة القصور العملاقة بدت على وجه الطفل أمارات دهش أبكم .. كان بصره يجوس متعطشاً لرؤية كل ما حوله في رحاب هذا الكون العظيم الكبير فأخذ بشكل أو بآخر يلتفت يمنة ويسرة ويتتبع بعينه الواهنتين ما يجري هنا وما يقع هناك .

على يمين الطريق كان يرى أشجار الورد والياسمين البري قد وقفت تتسلق جدران القصور الكبيرة وحيث اللباب يتعرش حول جذوع الأشجار .. والرياحين قادمة من تلك الحدائق الواقعة على أكتاف القصور .. جاءت معطرة بالهواء بضروب من الشذى الأرج .

وعلى مقربة دانية من زريبة صغيرة تشبه بشكلها بيته الصغير خرجت أحصنة حمراء عدة وحولها ينبح كلب صغير .. لم يدهشه ذلك أبداً ولكن أمتعته هذا التشابه الكبير .. ؟

ومن جديد أمعن النظر في كل ما كان يحتفي به الكون ، وعندما مدّ نظره إلى مسافات بعيدة .. وقرية رأى الأرض قد اكتست بوشاحها الأخضر الأشد اشراقاً وسفحت فيه الأرجاء عطورها الأشد ذكاء .. ذلك كان الربيع حوله في أوج قوته وكل شيء بهيج ولكن ليس بمستوى بهجة صعب الذي ما زال يفكر بالحلوى والأرجوحة .

والطفل يده مشبوكة بيد والده كما اشتبكت خيوط الشمس التي أخذت تتسرب من بين عيدان البلوط الواقفة على مقربة من مشارف المدينة ..

ها هم قد سارا فترة من الزمن خلال الجزء الفاصل بين بيتهما في الأطراف والعذراء بيروت . ولما دخلا في جزء من المدينة وكان من أشد أجزائها ازدحاماً وأكثرها اكتظاظاً بالسكان .. وأصاب ما أصاب صعب من دهش وغرابة عندما رأى بأمر عينيه السيارات في الطرقات والأبنية الشاهقة .. وضجة وشغب لم يألّفها من قبل . وعندما هبطا شارعاً مؤدياً إلى كورنيش البحر توقف صعب عن المسير وفاجأ والده بقوله :

— أين بيروت يا أبتى ؟

فأجابه أبو زهرة بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة .. عريضة ..

« عند بائع الحلوى يا ولدي .. هناك قرب الكورنيش ، لا تهتم ستلتهمها بعد قليل هيا .. هيا نتابع المسير » .

فابتسم الصغير .. وتابع مسيره برفقة والده .. وبدأ عليه أنه كان مسرعاً يود أن يسبق كل شيء ليصل إلى الكورنيش والحلوى .

ومرة أخرى وقف .. ليقول :

— ألم نصل بعد يا والدي .

أجابه أبو زهرة قائلاً : « ما بالك يا صغيري .. ستأكل الحلوى .. ستأكل الحلوى » ..

وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى مقهى « البحر » فدخلا ، وعلى الفور تم الترحيب بهما بحرارة ، وجلس أبو زهرة بعد غياب على كرسي صغير بين الرجال مبتسماً مشرق الوجه ليسامرهم ..

ويجادثهم .. ويشرب معهم الشاي .
وظل صعب واقفاً جامداً كالمهزوم من حرب ضارية .. يائساً حزيناً ينتظر الحلوى ولا
جدوى فلقد مر من الوقت أكثر من نصف ساعة وهو لم يتذوق الحلوى بعد .. فقال حكيم يخاطب
أبا زهرة « من هذا الصغير الأمير يا أبا زهرة » .
أجابه : إنه ولدي صعب .
أردف حكيم « وما باله يبدو حزيناً » .
أجابه قائلاً وهو يبتسم ويضحك : « يود أن يتعرف على بيروت وينتظر أن يأكل الحلوى » .
« ولم لا .. فالحلوى كثيرة ومتنوعة وبيروت اليوم تبدو رائعة وسيمة » كذلك قال حكيم ثم
استطرد بعد أن توقف عن الكلام برهة من الوقت :
« سأتيك بالحلوى يا وسيم .. يا أمير .. تعال يا صغيري واجلس بجانب والدك » ثم قدم
لصعب كرسيًا صغيرًا فجلس عليه ، وهرع حكيم ليخرج من المقهى قاصداً بائع الحلوى الواقف
على بعد أمتار من المقهى .
وحديث الرجال متصل تارة يقسو وتارة أخرى يلين .
ووحده صعب لا يبالي بالقسوة واللين كل هم أنه أن يعود حكيم حاملاً بيديه قطعة فآخرة من
الحلوى .
ولما اشترى حكيم بعض الحلوى من عند بائعها عاد مسرعاً إلى المقهى ولما دلفه قدمها لصعب
فابتسم الصغير وأي ابتسامة .. وتلذذ بطعمها الطيب اللذيذ .
فابتسم الجميع لمنظره وهو يلتهم الحلوى بشراهة غير معهودة وهذه بدورها لا يعرفها إلا من
هم في سن البراءة والعفة الخالصة الحدود .
ومضت برهة من الوقت وقهقه أبو مسعود صاحب الصوت الثخين ثم قال يخاطب
أبو زهرة على سبيل المزاح والنكتة .
« ما بال ولدك الجميل يأكل الحلوى كالمفجوع .. ألم تطعمه الحلوى من قبل » .
أجابه أبو زهرة :
وكيف تود أن يأكل أطفالنا الحلوى ونحن فعلاً لم نقدمها لهم طوال هذه السنين ..
ملعون أبو الفقر .. ملعون أبو الفقر » . ثم تهد تنهيدة طويلة وسكت
وفي هذه الأثناء كان صعب قد التهم الحلوى ولم يبق منها شيء .. ففتح فاهها صغيراً ليخرج
منه لسان صغير .. وبدأ يلحس ما حوله كما يفعل قط صغير .. فالتفت إليه أبو مسعود ضاحكاً .
وكذلك الجميع .
وصعب ما كان يدري علام يضحك الرجال . ثم وبلا شعور وبينما كان الكل في فورة أحد
احاديثهم تسلسل صعب من عمق المقهى .. فخرج .. وهو ما زال يحدق بعينيه الواهنتين ويتبع كل
ما وقع حوله في الكون ..
لفت نظره هنا على مقربة من المقهى زورق صغير يرقد ساكناً على الرمال .. فأسرع نحوه وما أن

حاذاه حتى جلس بحضنه .. وبدأ يتأمل ما احتواه ثم فجأة لفت نظره سمكة صغيرة ميتة فمد يده وتناولها وبدأ يتفحصها ويتمحصها .. ويتلمسها .. ثم قذفها إلى بعيد .. وعاد يتأمل بشدة هذا البحر العملاق ويتبع هناك حركة الموج وهي تتسارع إلى الأمام لتناطح الصخور ثم تعود مهزومة .. وكم أدهشه هذا المنظر العجيب .. ثم نهض من مكانه وغادر الزورق ليتقدم باتجاه الموج .. وتقدم .. وتقدم حتى توقف عندما تسرب الماء إلى قدميه وابتل جذاؤه .. فرجع كما رجعت الأمواج إلى الوراء .. ثم جلس على رمال رطبة وشيئاً .. فشيئاً بدأ يللم الحصى .. ويدفع يديه ليحرف من الرمال ما استطاع وكأنه يود أن يحفر حفرة صغيرة .. ولما حفر الحفرة نهض ليللم الحصى .. ويللم .. وبينما كان يفعل هذا عثر على السمكة مرة أخرى فحملها وجاء بالحصى ليرميها جميعها في قلب الحفرة .. ثم ردها .. ومن جديد عاد يتأمل كل شيء .. التفت إلى يمينه .. ثم إلى شماله كان كل شيء جميلاً والنسمة رقيقة منعشة وهناك على مد النظر كان يبحر ذلك السفين في عرض البحر .. فكم تمنى صعب وتذاك أن يركب البحر .. والبحر عملاق أخرس ..

وفجأة ناداه صوت .. انه صوت والده الذي خرج من المقهى يتفقده ..

صعب ... صعب هيا يا ولدي سنذهب .

فابتسم صعب ونهض من جلسته وفر راكضاً باتجاه والده . وما أن حاذاه حتى شبك يده .. بيده ليقول له والده :

أعجبك البحر ..؟

صعب : انه كبير يا ولدي ..

أبو زهرة : أسعد أنت يا ولدي ..

فابتسم الصغير ثم قال : نعم .. نعم .

وما هي إلا لحظات مرت .. حتى استأذن أبو زهرة بالانصراف وانصرف جاراً وراءه صعباً قاصداً « دير الصليب » مقر عمله .

ها هما يسيران ببطء كعقارب الساعة بخطوات هادئة ومطمئنة ، ليعبرا أرصفة وشوارع اكتظت بمظاهر الفرحة متظاهرة وكأنها في يوم لم تعرفه من قبل والمسافة .. تطول ولا تطول ، وتكبر في بيروت الفرحة ثم تكبر الصرخة .

صعب ما زال يلتفت يمنة ويسرة ، وبين الفينة والفينة تراه وكأنه يبحث في الأشياء التي يراها للوهلة الأولى ، وبهرته عن شيء في معناها ومدلولها لكنه لم يكن بمقدوره أن يدرك لمعانها أي تفاصيل !!

من الغرب إلى الشرق سيارات صغيرة وكبيرة تجيء وتمضي مسرعة مزدانة بالأعلام الملونة والصور المختلفة لأشخاص كثيرين .. والناس قد برزوا من نوافذها بروز المبتهجين المسرورين . البعض منهم يصفق يديه والبعض الآخر يهتف ويغني ، وتلك فتاة جميلة تمد يدها عبر إحدى نوافذ السيارة ملوحة بمنديل أبيض وإلى جانبها وقفت أخرى تبعث من يديها قصاصات من الورق ..

وراحت تتطاير القصاصات لترتمي هنا ... وهناك على الأرصفة وفي الطرقات .
ومن أمام صعب مرت سيارة مجنونة عبرت مثل زموها كلمح البصر أو الطيف كانت تقل
في حضنها رجالاً مسلحين يرتدون لباساً مموهاً فيه ما فيه من لون الخضرة ورمال الصحراء وأحدهم
يرفع يده اليمنى مشيراً بعلامة النصر .. وأي نصر هذا !!
وآخرون يوجهون فوهات بنادقهم إلى السماء ليضربوها بالرصاص ضرباً .. وصوت الرصاص
أخذ يدوي وكأنه يود أن يملأ الكون صدى .. وصدى الفرحة عمّ المكان وما عمّ الزمان .
ومن هنا ..

من زاوية ركنية على رصيف وقفت النسوة تطلعن من أفواههن الزغاريد .. وعلام تزغرد النساء ..
علام تزغرد النساء وتفرح !؟

وصعب يتتبع بعينيه ويسمع بأذنيه .. وما زالت قدماء تضربان الأرض ضرباً ما زال يسير
وراء والده القاصد دير الصليب .

فجأة وقع بصره على لوحة كبيرة من قماش سدت واجهة بناء شاهق وكبير رسم عليها قيود
مكسرة وشعلة في يد ملتبية ، ووردة حمراء قانية وشيء من حريق ولهب .
توقف صعب عن المسير ، ثم قال مندهشاً يخاطب أباه :
- ما الذي يجري هنا يا أبتى .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

- بيروت في عرسها اليوم يا ولدي .

صعب .. وبغرابة قال :

- وأين هي العروس بيروت يا أبتى .

أبو زهرة .. ومن حنجرة دافئة نطق ليقول :

- هي كل ما حولك من طفولة ، أرض وناس أبرياء طيبون .

هي أمنا قلب هذا الوطن المسكين ألم ترها بعد .. ألم ترها بعد .

ولم يرها صعب وقتذاك . لكن ذاكرته العذراء كانت تستقبل بمهارة كل هذه الصور الرائعة
تلك التي التقطتها من هنا ومن هناك واختزنتها بنشاط واهن لا مثيل له .

فجأة اتفق الواقع مع الحقيقة ليمحاً صعباً صورة هي بمجد ذاتها مزيج من أحقاد وأطماع سياسية
لتبقى هذه الصورة محفورة في ذاكرته على مر السنين كانت أولى السموم التي تجرعتها ذاكرة نظيفة
صافية هي أصلى بكثير من سياسات قدرة لا ترحم .. أبداً .. بل أول غيث الحقد الذي انتزع
عذرية الطفولة وعذرية الأشياء التي فجعت واندثرت شيئاً فشيئاً .

وبينما كانت الشمس ما زالت واقفة كان أبو زهرة يحجر وراءه صعباً قاصداً دير الصليب حتى
إذا عبرا شارعا ثم دلفا إلى عمق شارع من شوارع منطقة عين الرمانة توقف صعب عن المسير
بعد أن أصابه التعب ثم نطق قائلاً :

- لقد تعبت قدمي من المسير يا أبتى .. لنجلس هنا على حافة سور الحديقة .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

مثلما تريد يا ولدي .. هيا إلى حافة سور الحديقة .

.. وجلسا على مقربة من سور الحديقة تلك التي ازدانت بشجيرات الرمان ..

ومرت لحظات ..

وها هي ذي قادمة تسبقها الزمامير .. ورشقات الرصاص .. وفرحة من هم في الطرقات . ها هي تتقدم .. وتتقدم قوافل المتظاهرين المحتفلين من مختلف المناطق اللبنانية بأول مناسبة يوم الأرض⁽¹⁾ بعد فرحة كبيرة لم تدم احتفت بها بيروت قلب الوطن منذ مطلع هذا النهار تضامناً مع شعب فلسطين .

ها هي قد عبرت وما زالت قوافل الفرحة .. وفرحة قال صعب يسأل أباه :

- وإلى أين تذهب كل هذه السيارات والجموع الغفيرة .

أجابه : إلى نخيم تل الزعتر يا ولدي .

فجأة توقفت في الطريق عدة سيارات صغيرة .. لينتفض من داخلها رجال مسلحون يحملون بأيديهم رشاشات لقيمة .. كانوا في حالة ارتباك شديد وبدأ أحدهم غاضباً .. ناقماً يصرخ ويقول :

توزعوا .. توزعوا ..

وتوزعوا في عرض الطريق هنا وهناك .. ليصنعوا كميناً .

وصعب يتتبع حركاتهم بشدة ..

فجأة قال أحدهم : يخاطب أبا زهرة وولده :

هيا .. انهضنا من هنا .. هيا ولي يا رجل أنت وولدك .

وولى هارباً أبو زهرة وولده .. فقفزا من على سور الحديقة ليدخلا إليها ويجلسان تحت ظلال شجيرات الرمان .

ومرت لحظة خاطفة .. وصعب ما زال ينظر .. إلى عرض الطريق ويراقب بشدة ما يجري هناك وأبوه يزداد خوفاً وخاصة عندما لم يعد يرى حركة السير عبر الطريق حتى بدا الطريق خالياً من حركة المارة والسيارات .. فابتلع ريقه .. مرة .. بعد مرة .. وكأن الريق صار مرأ .. فارتجف خائفاً وهو يقول في سريره :

ما هذا !! شيء غريب .. شيء غريب ..

ومرت لحظة أخرى .. حتى حضر كالمارد إلى الطريق ماراً . قاصداً تل الزعتر باصاً كبير فاستوقفه هؤلاء الأوغاد بالقوة وهزلوا حوله لاهئين وكأنهم يودون أن يفترسوه كالذئب التي لا تجير تائها . وهاجموه بسرعة جنونية كسرعة الضوء الفاتقة الحدود .

(1) في الحادي والثلاثين من آذار عام 1977 م استولت القوات الإسرائيلية على آلاف من الدنومات من الأرض في الجليل الأعلى في فلسطين تحت قوة السلاح وهذه الأراضي تتبع للملكية العربية في البقعة المذكورة ولم يسكت أصحاب هذه الأراضي على ما حدث فقامت الاحتجاجات الظاهرية واشتبكت عناصر من الشباب العربي مع السلطات المحتلة مما أسفرت هذه الاشتباكات عن استشهاد سبعة مواطنين وجرح ثلاثين آخرين على أرضهم وفوق ترابها دفاعاً عنها .. وسمي ذلك اليوم بيوم الأرض « المؤلف » .

وصعب .. الطفولة .. ما زال يتتبع هذه الواقعة بشيء من الغرابة والتعجب وازداد تعجباً عندما رأى كل الذين احتفل بهم الباص في داخله يهرعون خائفين ليفروا من الباب الخلفي ومن النوافذ .. وما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .. جاءهم الرصاص يستوقفهم ثم جاء صوت الرصاص يدوي ويصرع فجاءت ساعة الموت والكارثة حزينة .. حزينة ..

« ما الذي يحدث داخل الباص ، ولماذا الرصاص والصراخ » كذلك قال صعب في سريره ويده اليمنى تقطف وبلا شعور زهرات الرمان .

عندها كانت اللحظات قد مرت مجنونة في ساعة من ساعات الموت الجماعي لم يعرفها غدر العصور .. فقتل المهاجمون كل من احتفل الباص بأنفاسهم الدافئة .

ومزقت رصاصات الغدر أجسادهم الطاهرة ، وكذلك مزقت أطراف ذلك الباص المارد . ثم فرت بعد ذلك وبسرعة الضوء السيارات الصغيرة وعلى ظهرها الشياطين المسلحون وظلّ الباص واقفاً بلا حراك .. وكل ما في داخله هامد لا يتنفس قد استسلم للموت وماتت الفرحة .. وما ماتت الصرخة .

في هذه الأثناء ودون أن يدري صعب ووالده كانا قد اقتربا رويداً .. رويداً على مقربة من سور الحديقة .. ثم على مقربة من الباص لينظرا عن كثب ما وقع للباص المفجوع قبل قليل .. وقع بصر الطفل على أسفل ركائز الباب الخلفي للباص .. كانت خيوط الدم الحمراء تتدفق .. جاءت زاحفة من عمق أجساد تمزقت لكنها ظلت دافئة .. وتخرج الخيوط متقطعة .. هاربة تنساب لتسقط على حافة الطريق بجانب بقايا الزجاج المكسر المحطم المتناثر هنا وهناك . وما أن اقترب صعب .. أكثر فأكثر حتى حاذى جانب بقع من الدم تلك التي شكلت لوحة رهيبة من لوحات الموت ..

ما كان منه إلا أن رمى ما بيديه من زهرات اقتطفها قبل قليل من على أغصان شجرة الرمان .. وتناثرت زهرات الرمان فوق بقعة من بقع الدم .

وبعد أن انغمست زهرات شجرة الرمان بالدم .. قرّ الوالد حزناً وولده المدهوش أيضاً بعد أن دبّ في قلبهما ذلك المشهد ما دبّه من الخوف والاشمئزاز والفرع الغريب .. قاصدين دير الصليب .. تاركين وراءهما « عين الرمانة » وهي تصرخ مفجوعة وتبكي بكاءً مرّاً محتفية بأولى المآسي الرهيبة تلك التي لم يصنعها القدر بل صنعها سياس الحمير الذين يحملون حقائب سياسية كانت قادرة على أن تمزق كل شيء وتلهيه لهباً .. ووحدها أشياء الموت الرهيبة تلك التي رآها ذلك الربيع في أول يوم للأرض ظلت محفورة في الذاكرة الطفلة .

وها هما يتابعان المسير بخطوات ذاهلة حيناً .. وحيناً آخر ثقيلة مبالية ومستهزئة في آن واحد لا تسرق الخطوة أختها كما يسرق ناظر الطفل صوراً براقة مبدعة تارة وأخرى مخيفة تفجع .. يقتطفها من هذا الوجود مع هذا النهار الذي غدا في نصفه الآخر . وعين الشمس ظلت دافئة مثل ذاكرة طفلة تحتزن ولا تحتزل ، تستلهم ولا تستسلم

والاستفهام في ذاته غير مطروح على الإطلاق ما زال الطفل يبدو منطلقاً بكل ما فيه .. ينظر ويتعجب ويستغرب من كل شيء أحيط به قصراً غير مستفسراً عن أصول الأشياء ومعانيها .
لكن البحر هذا الكيان العملاق ظلّ يشكل عنده أمنية لم تكن غريبة على البراءة بأسمى آياتها فالطفل يؤدّ أن يمتطيه كما يمتطى الرجل الحصان ، ولا يؤدّ أبداً أن يبحث فيه عن قصة المد والجزر أو الخوض في أغواره . وأبدعه الموج الذي سارع ليناطح الصخور .. وكما تمنى أن يركب في حضن زورق عثر في حضنه على سمكة ميتة .. مثل ذلك البحار الذي رآه يركب في حضن السفين هارباً إلى العمق البعيد وما أدرانا ما وراء ذلك العمق البعيد .. ربما هناك دمية صغيرة أو قطعة حلوى وربما أرجوحة وادعة .. طاف إليها خيال صعب .. وما أبدع ذلك الخيال .
ومثلما ظلّ النصف الآخر من النهار طلّت عليهما زاهرة بأحراشها المنعشة النشطة « منطقة الزلعا » الواقعة بين عملاق أخرس وجبل شاخ يمتطيه بناء ضخمة .

وفي طريق ملتوية جبلية عابقة برائحة الصنوبر والخرنوب كان يتدحرج منساباً ماء النبع الكامن على كتف الجبل .. جاء مسرعاً بعكس اللذين ما زالا وببطء شديد يصعدان إلى رأس الجبل .. وزفرات أنفاس شيخ الزبالين لاهثة هياجة من التعب والطفل بعمر البراعم يشدو لروعة المكان لا يهاب غور الأحراش ولا شموخ هذا الجبل .. ونفسه تواقطة مطمئنة .. تواقدة للصعود .. إلى الأعلى وكأنه مسافرٌ إلى تلك السماء الرحبة ربما سيصل إليها وما أدرانا !!
وظلّ على مقربة منهم المبنى شاغراً مبتسماً للبحر صباح مساء يفتersh حوله جناحيه حدائق الورد المزدانة بسور من شجيرات الصبار .

ويحمي في عمقه نساءً .. ما فرحت فرحة العقلاء .. نساءً تُذبح يذبحها فكر الشيطان فيسلبها كل شيء .. إسوة بما سلّبت منه من قبل .
وعبر أشرعة أكبر نافذة احتف بها مبنى « دير الصليب » وقف كارو يحدج بعينيه الثاقبتين إلى أطراف البحر والأحراش ، لم يكن يبحث في هذا عن أطلال ماضٍ ولّى بل كان دماغه منهمكاً يفرز للعقل وظيفة هي أقرب من الأبالسة للشيطان .

ها هي ذي يده اليمنى تمتد لا لتداعب . جورية بيضاء مبتهجة في مزهريّة صغيرة وضعت على كتفي النافذة بل امتدت إليها لتهرسها وتفتت أوراقها وتبعثرها ، واليد الأخرى ارتفعت لا لتحاذي الوجه بل لتلامس طرف شاربه الغليظ .. لا لتفتته إنما لتتلمسه برقة تشبه رقة من يفاخر بشاربيه ويتباهى بنفوذ كبير .

وكارو صاحب رأس كبير وقف على جسد رشيق لا يميل للبدانة ولا للنحوب ، ووجه لا يعرف الشحوب أبداً لكن فكره . ظلّ مسموماً شاحباً تكمن فيه غرائز لا تنتمي لبشر بل هي ذئبية وحشية لا ترحم .

وفي صوته بحة غريبة لا تجدها من فاه الزمن ولا حتى في موسيقى العصر ، بحة تشبه المعهر في أعلى مواقفه ، ووراء عينيه شيطان يدبر ، وتبقى النفس مريضة غير راضية تواقدة للرديلة في أبشع مستوياتها .

ها هو ذا يتراجع إلى الخلف خطوة ليمد يده ويتناول من علبة صغيرة مزخرفة بالياقوت والفضة وقعت على طرف مكتبه رائعة .. ليستل منها سيجاراً ، ومن جيب سترته الحريرية البيضاء استل ولاعة صفراء مذهبة وأشعل السيجار كمن ينفخ في بوق .. وما لبث حتى لفظ من صدره سحبات دخان التبناك ، وما زال يفكر ، ويبحث في عينين براقتين فيهما بريق كانون ويجمل البصر هنا .. وهناك في الأطراف الرائعة بعد أن كان قد تقدم كرة أخرى وحاذى وجه النافذة .. ثم تتم بكلمات غريبة وقال :

« علام تبقى عذرية الأشياء .. علام » ..

وانتفض غضباً ليقول كرة أخرى وبصوت شيطاني عنيد : « لا .. لا .. لا .. لن تبقى » . ثم انتابه حزن شديد وأعقبته رجفة فاهتز منها ولها وتنفس على أثرها الصعداء وتلهف .. ثم تلهف « وبدأ اللهاث ك .. » ..

وما أن هدأ قليلاً حتى عاد بصره يجوس غضباً في الأطراف ليقع وباتجاه الأسفل على مقربة من بوابة المبنى حيث ظل صعب يحمره شيخ الزبالين .

وبرهة من الوقت مرت ، دلف خلالها القادمان إلى مبنى « دير الصليب » وفي الشطر الأول من مدخله الفخم توقفاً ينتظران المصعد الكهربائي ، ولما حضر دخلاه وامتدت يد شيخ الزبالين لتضغط على « الزرار » رقم ثلاثة المحفور عليه سهم مقلوب باتجاه الأسفل .. وإلى أسفل المبنى هبط المصعد ثلاثة طوابق ، وصعب الوسيم مشدوهاً يتعجب .. لقد أسعده ذلك !!

وما هي إلا ثوانٍ من عمر الوقت فرث حتى خرجا من داخل كينة المصعد ليستقبلهما ممر ضيق وعبره مشياً بخطوات عجلة ليدخلا إلى البهو الكبير ذلك المزدحم بالرطوبة والسخونة معاً ، والصغير كالواهن يتتبع بعينه الطفلة ما يقع أمام ناظره ، فتارة تراه يلتفت بمنة وتارة يسرة .

وبدهش أبكم كان يتمن بشدة ما وقع حوله ولم يكن يدري لماذا وقفت تلك الخزانات الضخمة المصطفة الواحدة تلو الأخرى المملوءة بالماء الساخن والبارد والحروقات المختلفة ولا حتى أي شيء عن تلك المولدات الكهربائية الضخمة الواقعة منذ سنين تساند الجدار الأيسر ومنها وإليها تتشابك وتتسابق ولا تتنافر الأسلاك .

ها هو ذا .. يتقدم بخطوات بطيئة وكسولة ليدخل إلى غرفة التنظيفات القاعدة في منتصف البهو .. ولما دخلها لفت انتباهه تلك الأوعية المرمية على بلاطات الغرفة فانهمك لا ليللمها بل ليلعب فيها لأنها كانت بشكلها كروية أشبه بالكرات المدورة وشيخ الزبالين ينهمك أيضاً في غرفة المصعد المخصص للقمامة .. ها هو يستقبل حاوية ويبدل أخرى .. وهكذا .

وجاء فجأة ليدوى في مسامع صعب صوت نسائي يدعو السيد أبا زهرة قائلاً عبر « انترفون » وضع كوسام على صدر أحد جدران الغرفة :

-- الرجاء .. من السيد أبي زهرة عامل التنظيفات مراجعة رئيس القسم ..

-- الرجاء .

عندئذٍ التفت الصغير بمنة ويسرة .. ويسرة ومنة ثم ازدادت لفتاته وبدا عليه علامات

دهش أبكم .

فقال في سريره : « ما بالي لا أرى صاحبة الصوت » .. وبعد جاءت صبيحة والده مسعفه الموقف .. حيث ناداه بصوت خاطف قائلاً :

- « هيا يا صعب .. هيا يا بني لنسرع .. سنذهب » فهرول إليه وهرعاً معاً ليصعدا إلى الطابق الثاني في القسم العلوي من المبنى . ولما وصلا إلى غرفة رئيس قسم التنظيفات ، فامتثل السيد أبو زهرة أمام السيدة أوديت ووراءه وقف صعب مكتوف الأيدي هادئاً جميلاً . وعلى الفور رحبت به السيدة كثيراً لأنها كانت تكن له احتراماً خاصاً لوفائه وصدقه في العمل وعندما طل من خلفه وجه الطفل الوسيم في وجه السيدة أوديت كالشهاب على الأرض الظلماء انتفضت من قعدتها كفراشة هائمة استهدت لحد الورد بعد توهان .
وبلهفة ملؤها الحرارة نطقت قائلة تخاطب الصغير :

- « ما أبعدك .. ما أبعدك طفلاً » .

ثم اقتربت منه أكثر .. فأكثر وبدون استئذان قبلته قبلة غريبة فيها ما فيها من الحنان والعطش ، جعلت أبا زهرة يفاخر قائلاً بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة :

- أنه ولدي .. ولدي صعب .

« اسم غريب لوسيم رائع » كذلك قالت السيدة أوديت وبعد .. عزمت على أن يجلس الوسيم على مقربة منها بعد أن كرت إلى قعدتها ، فجلس ، ويداها امتدت لتلامس طيات شعره .
في تلك الأثناء ارتفع صوتها ينادي إحدى العاملات ، وشيخ الزبالين ما زال واقفاً على مقربة من باب الغرفة يمثل أمام السيدة رئيسة القسم .

ولما حضرت عاملة القسم أمرتها السيدة باحضار عصير الليمون للوسيم ووحده صعب تلهف وبشدة لتذوق عصير الليمون بعد تعب هذا النهار ..
ثم اردفت السيدة تخاطب أبا زهرة برقة متناهية الحدود ..
« .. اوه .. اوه .. لقد نسيت ، أن السيد المدير العام يستدعيك على الفور .. هيا .. هيا أسرع إليه » .

وبغربة تتم أبو زهرة قائلاً بصوت خافت وكأنه يهمس همساً :

- الدكتور كارو .. الدكتور كارو ولماذا يطلبيني ؟

السيدة أوديت : « هيا اذهب إليه يا أبا زهرة .. هيا » فذهب مسرعاً تاركاً صعباً في ضيافة السيدة رئيسة القسم تلك التي ما زالت تتلمس طيات شعر الطفل وتنظر إلى عينيه باحترق شديد ، وبرعم الورد مستسلماً لمداعبتها ما زال منتظراً عصير الليمون .
وها هو ذا يتسم للليمون القادم ذلك المملوء في الكأس .. انه يتراقص ويطفح .. وها هي عاملة القسم قد وضعت على المنضدة الكبيرة وأسرعت تغادر .. الغرفة بكل هدوء .

وعدة دقائق مرت حظي خلالها صعب بعصير الليمون ، وحظيت أوديت بمزيد من القبلات

الحارة .. الحارة ..

والسيدة أوديت بدورها امرأة طفلة لا تنجب الأطفال ، كالحورية حورائية العينين جيدها ،
ممشوقة القامة مكتنزة ، ضامرة شقراء بيضاء كيباض الثلج الذى لم تلذعه أشعة الشمس ، لكنها
مزاجية إلى أبعد الحدود تمتاز أحيانا بعصبية عالية مرامها حب النظام وخدمة أهل هذا المبنى .
وكانت قد ورثت عن زوجها الذي غادرها وللأبد منذ سنين أثر نوبة قلبية حادة أسمى آيات
الحنان والرفقة ، وبيتاً هادئاً صغيراً يقع في غرب المدينة يتوسط بناء ضخماً جميلاً يقف على أكتاف
منطقة « المنارة » المطلّة على وجه البحر .. وبعد عدة أيام ستحتفل أوديت وحدها كالعادة بعيد
ميلادها الثلاثين وقد تسعدها جداً المفاجأة لو وقعت وعادت أختها من بلاد المهجر بعد غياب
طويل .

وتعاقبت بضع دقائق .. وما رحلت بعد آخر ساعات النهار ، واليوم طال ويطول وبأل أبي زهرة
الواقف في غرفة السكرتارية يزداد تشوشاً وحيرة ..
ها هو ذي ينتظر أن يسمح له بالدخول إلى غرفة مكتب السيد كارو .
وعندما دخل وامثل صامتاً طائعاً بين يدي سعادة الدكتور كارو دون أن ينبس ببنت
شفة حتى طلت ابتسامة القاعد مرتجياً وراء المكتب الكبير على كرسي يكاد يتلعه .. لينطق كارو
قائلاً وبلطف شديد :

- تقدم .. تقدم .. يا أبا زهرة .

فتقدم أبو زهرة بعدة أشبار من ربع خطوة حائرة .

واستطرد كارو :

- ما بالك كالحائف .. تقدم .. هيا تقدم .. تعال واجلس .

ولما جلس نصف جلسة خجولة ومرتبكة .

أردف كارو يخاطبه بعد أن خطفه شروداً ما ..

« أدرك جيداً أنك من أشد العاملين إخلاصاً للعمل .. وتقديراً لهذا الاخلاص قررت
مكافأتك أولاً ، ونقلك إلى الطوابق العليا ثانياً ..

وقبل أن تشرق ابتسامة أبي زهرة .

استأنف كارو بعد شرود قصير داهمه كرة أخرى :

« .. ولكن .. ولكن قل لي .. من يكون ذلك الصبي الصغير القادم إلى الدير بصحبتك » .

أبو زهرة وبصوت مدعور أجابه قائلاً :

- أنه ولدي صعب يا سيدي، ولأول مرة أحضره للمبنى ..

كارو .. ومرة ثالثة داهمه الشرود .. ليقول بصوت رقيق خبيث بعدما استفاق من شروده :

- ولماذا لم تحضره إلّى لأتعرف عليه .

فصمت أبو زهرة وأصابه ما أصابه من الدهش والاستغراب . لينطق قائلاً وبحرارة :

يشرفني .. يشرفني ذلك يا سيدي ..

« إذن هيا اسرع وأحضره إليّ » كذلك قال كارو الحبيث .
فانتفض أبو زهرة من قعدته كما ينتفض هيجان النفس وهرع مسرعاً ليحضر الصبي وبعد ما أوصد
باب غرفة مكتب السيد كارو خلفه راح يخطو كالبرق إلى قسم التنظيفات تغمره سعادة فائقة لا
حدود لها .

في هذه الأثناء نهض كارو من قعدته على الكرسي الهزاز الكبير كالذئب من وكره
وخطا خطوات باتجاه النافذة وعبرها حدج الكون بنظرة ساحقة .. وأي نظرة تلك . وبعد تأمل
عميق بمنظر ذلك الغروب الراكن في وجه كل شيء .. همس الحبيث قائلاً :

- « أدري .. أدري أن لا شيء سيبقى .. لا شيء سيبقى وحتى عذرية هذا الغروب
البارع .. براعة فيها حمرة الورد واحتراق الزمن » .

.. ومن جديد تراجع عن وجه النافذة وجعل يذرع أرض الغرفة جيئة وذهوباً وبدأ
خياله المسموم القذر ينسج صوراً مختلفة شيطانية لا تعرف الرحمة .. فتخيل فيها الطفل ذلك الذي
ينتظر قدومه عارياً جميلاً يمثل بين يديه .. يتلمسه .. بيديه القذرة كما تلمس وريقات الجورية
فدهسها .. وبعثرها .. فلذذت نفسه لهذا وشعر بمتعة غريبة لا يدركها إلا اللوطيون من هم مثله
في هذا العالم .. ذلكم الذين يسعدهم جداً أن ينتهكوا عذرية الطفولة .. وابهة ودهس كل جوريات
الدنيا .

ووحدها عذرية الطفل تبقى .. وتبقى .. وتبقى ..
ولا تبقى بعد حين الطفولة العذراء عندما ستغوص الرؤوس وحدها في لجة النهاية المؤلمة وتختفي
في ظلال المجهول .

وقبيل رحيل المساء ببرهة قصيرة من الزمن غادر صعب مبنى « دير الصليب » برفقة
والده .. وبذاكرة نشطة .. طفلة أبهرت منذ مطلع هذا النهار في بحر مسموم قذر .. كالح الألوان
أغواره لا تعرف العفة .. شيطانية منحلة لا قصاص فيها بين بسمه وصرخة ، ولا حتى بين فرحة
وغصة . وفي الأعماق لا رحمة لا رحمة .. وزهرات الرمان انغمست ببقعة من الدم .. ستغدو
نهرأ .. فسيلاً .. فيحراً .. ويفرق الكل وينغمس في الدم غمساً ..

وقبيل أن ينغمس ظلام الليل في حضن الكون غمساً قفل شيخ الزبالين وولده عائدين
إلى البيت في أناة .

الفصل الرابع

في هدأة الليل من ذلك اليوم اختفى صوت الهدهد في الأحراش ليظل صوت أزيز يبعثه زيزٌ صغير ، وبدا « دير الصليب » ذلك الموطن الذي لا يسكنه العقلاء هادئاً ، ساكناً ، ساكناً يمتطي رأس الجبل ، وتسطع في داخله مصابيح خافتة حمراء ويبيضاء مبهرة المنظر لترسل إلى الأحراش المظلمة خيوطاً من الضوء كخيوط النجم في السماء لكنها ما كانت قادرة على أن تصل إلى عمق الأحراش الخاوية .

وقبيل أن يهجم مستسلماً منتصف الليل على صدر الكون وتحط النسمات الباردة أثقالها على أغصان البلوط والصنوبر .. دوى صوت عواء لذئب هرم وما كان للقاطنات في الدير مصدراً للإزعاج بل جاء محرضاً على إثارة ضجة لا يدركن معناها أبداً ، وكان للفريق المناوب من طاقم الممرضات شيئاً اعتيادياً كإعلان ساعة بكبن إشارة ما قبل منتصف الليل .

ومن غرفة ركنية في الطابق العلوي ها هي ذي إحدى القاطنات تمد برأسها عبر شبك حديدي وقف عنيداً قوياً بقضبانها الغليظة يسد نافذة الغرفة منذ سنين لتطبق القاطنة فرحة كفرحة النعجة بسكين ذابحها وتصدر عبر موجات حبالها الصوتية صوتاً تقلد فيه عواء الذئب .. ع ووو .. ع ووو لتشدّها فجأة ومن شعرها رفيقة لها في مسكنها .. ثم تدعها على الفور فتضحك لها ضحكاً طويلاً دفع بالباقيات على أن يضحكن .. ويضحكن ، وقبل أن تمر لحظات انقلب الضحك إلى بكاء .. فبكت تلك التي كانت تقلد عواء الذئب .. كثيراً وكذلك رفيقاتها الواحدة تلو الأخرى .. وما أدراك ما شدة تلك العلاقة بين الضحك والبكاء على أن لا تطول المسافة بينهما .. لحظة واحدة .

ثم انتفضت من على سرير توسط الغرفة فتاة أقرب أن تكون في جمالها بنتاً للشمس ، شقراء ذهبية لكنها مفرغة المنظر عندما تمتلكها عصبية حادة وبعض آلام الرأس .

ها هي ذي تهرع خائفة مرتجفة إلى زاوية الغرفة لتقول بصوت خافت خائف .. « لا تقترب مني فأنا ما زلت عذراء » .

« لا .. لا .. لا » . ثم تصرخ بحدة وتصمت صمت المدعورين ويتتابها حزن شديد تطرده ضحكة طويلة تجيء مخلصاً .. ومن حين إلى حين وعمر هذا الحين لا يتجاوز لحظة يجيء الضحك ثم البكاء ولا يلتقيان معاً .. وعواء الذئب يدوي ولا يصرع .
وما أن مرت برهة قصيرة من الوقت .. حتى خمدت الضجة وسكت البكاء والضحك معاً في الطابق العلوي وبدون سبب مؤثر ، سكت الأزيز أيضاً وطلّ ضوء مصباح مبهر لسيارة تشق طريقها إلى الدير في رأس الجبل ، وعندما حاذت السيارة على مقربة من مشارف بوابة المبنى توقفت فتوقف محركها عن الدوران وفتحت أبوابها ليهرول من داخلها إلى داخل المبنى الدكتور كارو وبصحبه ثلاثة رجال يحملون بأيديهم حقائب دبلوماسية ..
وما أدراك ما قصة تلك الحقائق !!

.. و

.. ها هم أولاء جميعاً اتباع الدكتور كارو قد دخلوا إلى غرفة مكتبه الفخم تبعاً كذيله لا كظله وجلسوا مباشرة على مائدة البحث وأي مائدة تلك !! يقابلهم تماماً الدكتور كارو الجالس في حضن كرسية الهزاز وراء مكتبه الضخم لكنه ما كان هادئاً أو صافي الذهن على الإطلاق ..
ها هي ذي يده اليسرى تلك التي احتفت من إحدى متاجر لندن بخاتم من « السولتير » الباهظ الثمن .. ها هي اليد تمتد إلى « انترفون » وضع كالحريص الطيع على زاوية المكتب فوق المنضدة ليضغط السيد بإبهامه على الزرار ويستدعي مريم إحدى العاملات المناوبات في الدير ، ثم يدفع بكتفيه إلى الخلف ويتنهد تنهيدة قصيرة جداً ليخاطب أحدهم قائلاً :
- دكتور مارون قبل كل شيء هيا خبرنا عن سلامة مقاعدنا في المجلس النيابي قبل أن تدهمنا موجة الانتخابات فالانتخابات على الأبواب .
وبعد أن ابتسم الثخين الذي يدعى الدكتور مارون ابتسامة الساخر من شيء ما قال كالوائق جداً من نفسه :

- اتشك يا دكتور أن أحداً يجرؤ على الاعتداء على مقاعدنا في المجلس ، لا .. لا .. اطمئن فوضعنا سيبقي جيداً وعلى الأقل ما دامت الأفواه مكتومة ، ولا تنسى أن الأخضر وتأشيرة الخروج سيلعبان دوراً مؤكداً في الوقت المناسب ولن نحتاج إلى هذا مؤقتاً لأن السنة هؤلاء المغفلين لا يمكنها أبداً التفكير في الاعتداء على المقاعد المارونية في المجلس وكذلك الدروز الذين لا يشكلون أي ثقل أبداً .. فاطمئن .. لا خوف أبداً .
« كل ما يهمني وزارة الصحة وبعض أجزاء من الداخلية » كذلك قال كارو برجاء رافقه لين شديد .

ثم أردف مارون قائلاً :

« لا تهتم يا عزيزي سينحالفنا الحظ بكل تأكيد ونحتفي بالصحة والداخلية كلها وقد نحتفي بالمالية أيضاً » .
« ولكن .. ولكن لماذا الصحة وأجزاء من الداخلية بالتحديد » كذلك قال جورج الجالس على يمين المائدة .

وقبل أن ينبس كارو ببنت شفة ويجيبه على استفساره قرع باب غرفة المكتب بعدة نقرات خفيفة .

قال كارو : « ادخل .. ادخل » ..

ولما فتح الباب طلّت مريم إحدى المناوبات وكأنها حورية من حوريات الجنة لتتطرق كالهامسة قائلة للدكتور كارو :

- أمرك سيدي .

- كارو : اقترني يا مريم .

فاقتربت عدة أشبار :

كارو مستفسراً : كيف حال الدير ؟

مريم : كل شيء على ما يرام يا سيدي .

- أود منك احضار ملف الطفلة التي دخلت الدير منذ أيام .

- أتقصد اللقيطة المتسولة يا سيدي .

- هل هي حقاً لقيطة ، ما كنت أعلم ذلك قط .. هيا من فضلك أسرع وأحضري لي ملفها .

ولما تراجعت مريم عدة أشبار لتخرج .

أردف كارو قائلاً :

- ولكن .. أين .. أين هي الآن ؟ .. وكيف حالتها .

مريم : انها راقدة في سريرها لكنها ما زالت تعاني بشدة من آلام في رأسها .

كارو : سأندبر أمرها فيما بعد .. هيا أسرع وأحضري لي ملفها .

وهرعت مريم توصلد باب غرفة المكتب خلفها لاحضار ملف الطفلة المتسولة . وعندما

أغلق الباب أخذ الثخين مارون يقهقه بطريقة غير عادية أثارت بعض اشمئزاز الجميع فما كان من

كارو إلا أن حدّجه بنظرة ساحقة أدرك معناها مارون وكف عن القهقهة ليقول مخاطباً كارو :

- عذراً .

- عذراً انها جميلة وهادئة وما أثار قهقهتي هو أنك تبدو حنوناً جداً وليناً في معاملتك

مع « ... » .

كارو : « كف عن المزاح فالوقت غير مناسب للقهقهة لدينا أعمال كثيرة تشغل بالي وتشوش

فكري » وسكت . فسكت مارون .

يردف كارو قائلاً :

وأما جوابي لك يا سيد جورج ، فهو أننا لو تمكّنا من وزارة الصحة وبعض أجزاء من الداخلية

سيوفر لنا ذلك جواً مريحاً في العمل الذي نقوم به وذلك الجو نحن بحاجة ماسة إليه .. فالصحة

وأجزاء من الداخلية مكسب بالغ الأهمية .. من خلال هذا المكسب سننقل ما نريد نقله إلى الخارج

بسهولة وبطرق أكثر شرعية وسلامة وعلى الأقل لن نحتاج عندها إلى من نتعاون معهم في الداخلية

وفي الهجرة والجوازات وغير ذلك وبالتالي سيكون السيد جوزيف ديلوماسيا محمياً من كل المتاعب

أفهمتي ..

« نعم .. نعم فهمتك يا معلم بكل تأكيد ستمكن من الصحة والداخلية معاً » كذلك أجابه مبتسماً ثم أردف قائلاً :

على أية حال المكسب معنا ولنا في كل الأحوال .

مارون : ما الذي تقصده بقولك هذا ؟..

جورج : الوضع العام في البلد يبدو لي غارقاً في لجة الحرب تلك التي بدأت نارها تلتهم كل شيء ، وهذا سيسهل علينا كثيراً القيام بما نريد أن نفعله .. والفوضى تبدو أنها عارمة في هذه الأيام وستأخذ مكانها المرموق في هذه الديار بعد حين .. فالمكاسب تبدو لي واضحة المعالم في كل الاحتمالات . ألا توافقتني بذلك يا دكتور .

كارو مبتسماً : « أنت رجل ذكي .. وهذه شهادة قديمة كنت قد أدليت لك فيها منذ سنين عندما كنا معاً في واشنطن » .. أتذكر ..

جورج : « وكيف أنسى واشنطن تلك الحبيبة العظيمة .. » ثم تنهد الأخير تنهيدة طويلة . ثم أردف كارو يقول :

يا سادة : الحرب ستساعدنا فعلاً وستدعم دخولنا بشكل لا يصدق أهدأ والبضاعة ستوفر بدون أية متاعب ، وكلّي أمل أن تكون لنا في النهاية زمام الأمور .

مارون مبتسماً وبعد أن أصابته نشوة عظيمة قال : « نعم .. نعم .. سيكون لنا كل ما نريد .. كل ما نريد .. » .

أثار ما قاله مارون الضحك لدى الجميع ، وبعد أن ضحك قال كارو يخاطبه بسخرية : « أؤكد لك أن لا شيء يكفيك يا عزيزي فبطنك كبيرة جداً ولا يملأ عينيك غير حفنة من تراب . مارون أجابه قائلاً :

« لو كان عليّ فسأبتلع كل شيء ، ولكنك لن تدعني أبتلع كل شيء لأن القسط الأكبر من كل شيء سيكون في حوزتك يا معلم .. »

فابتسم كارو ابتسامة رقيقة وكذلك جورج وجوزيف الذي ما تكلم أبداً . كارو يخاطب جوزيف قائلاً :

ما بالك يا سيد جوزيف لا تتكلم أبداً ألا تود مشاركتنا في الحديث . أجابه جوزيف قائلاً :

علمتني الحياة أن أكون كالماء الراكن في مستنقع عميق الغور ، فعندما سيأتي دوري في الكلام سأتكلم .

كارو : « يعجبني فيك أنك رجل هادئ ولكنك ذكي خبيث وماهر » .

أثار ما قاله كارو لجوزيف قهقهة مارون بشكل أوجد في غرفة المكتب ضجة لن تهدأ إلا عندما قرع باب المكتب ودخلت العاملة مريم تحمل بين يديها الملف ، وعلى الفور قدمته للسيد كارو وانصرفت بعد ما أمرها بالانصراف .

فأخذ كارو يتصفح ويفحص ويتمحص الملف بانتباه وتركيز شديدين وكذلك الرجال الثلاثة فقد بدا عليهم جميعاً أنهم ينتظرون شيئاً سحريراً سيعقب من ذلك الملف . وازداد شغفهم لسماع

آية كلمة سينطقها الدكتور كارو .

ومرت لحظات معدودة فنطق بعدها كارو قائلاً :

- كل شيء على ما يرام .. يمكننا يا سادة أن نبدأ بالعملية الجديدة في غضون أيام

قليلة .. أجاهز أنت يا جوزيف .

جوزيف وبعد أن هز رأسه قال مبتسماً « بكل تأكيد يا سيدى » . فسر الجميع سروراً بالغاً

وموجة من الفرح ظلت في خلدهم باقية ليعاود جوزيف ويردف قائلاً : إذا ..

إذاً يمكنني أن أحصل على صور فوتوغرافية للطفلة بالإضافة إلى بعض الأوراق والتقارير الطبية

اللازمة لنحصل لها على جواز سفر وتأشيرة لأمريكا .

كارو وبعد أن تناول من علبة السجائر سيجارة واشعلها وقذف من فمه سحابة من الدخان طويلة

قال :

لك ما تشاء غداً .. فافعل ما تريد المهم يمكنك أخذها إلى هوليوود في غضون أيام

قليلة .

جوزيف وبشغف قال :

- الا يمكنني رؤيتها الآن يا سيدى ..

كارو مبتسماً : « ولم لا .. سترها الآن .. » .

وعلى وجه السرعة وعبر « الانترفون » أمر كارو العاملة مريم بإحضار الطفلة فوراً .

ومن جديد تابعوا أحاديثهم المسمومة تلك الأحاديث القذرة التي استهدفت في طياتها

طفولة لبنان والطفولة فيه .

والطفلة كانت غارقة في بحر النوم الذي كان يخلصها من عذابات آلام تسكن في رأسها تلك

العذابات التي توارثتها رويداً .. رويداً من بيئة ظالمة ومجرمة في مجتمع لا يرحم أبداً .. منذ أن طلّت

على وجه هذا الوجود .. وحيدة غريبة لقيطة سلّبت معظم أيامها الأولى بما فيها تلك الطفولة الغضة

التي ما انتهى عهدها بعد ، تلك الطفولة المقهورة التي ذعرت وخضعت في ريعان تفتحتها وهي

ما زالت برعماً لتسلط امرأة خبيثة استغلتها مقابل تربيته ثمانية سنوات أبشع استغلال ، ثم قذفتها

إلى الشوارع ، لتتوه .. وتتوه فابتلعها الطريق وضاعت بها الدنيا فلا مطرحاً لماوى ولا سبيلاً للمأكل

أو مشرب ليكون بالتالي المصير مفرعاً ومخيفاً .. ففي ذات يوم وبينما كانت تتوه في أحد الشوارع

المتطرفة في المدينة شاردة ذاهلة جائعة .. كان الوقت قبل المساء عندما لجأت إلى رجل يجلس وحيداً

تحت اكتاف شجيرات صغيرة وقفت على حافة الطريق ، ولما اقتربت منه داهمتها رائحة غريبة لم

تكن على السكير بغريبة .. وأخذت تطلب راجية إياه أن يمدها ببعض الطعام والشراب .. فما كان

منه إلا أن عاملها بلطف ولين وأطعمها خبزاً ولبناً ولما شبعت وارتوت ابت الرحيل ، فمنعها ومنعها

وحاول هذا الذئب البشرى أن يتمكن منها ويشدها إلى خلف الشجيرات ويغتصبها بشكل قدر ..

لا أجرأ أبداً على وصفه ..

ولما فعل بالطفولة ما فعل وتمكن منها جيداً وهي ما زالت غضة غريبة رماها على حافة

رصيف .. ومضي تاركاً قعدته بين أشجار طفلة لا يتجاوز عمرها ثلاث سنوات وقفت على كتف

شارع متطرف صغير يحاذي وجه البحر ويجاور الرمال .
ومرّ ذلك المساء حزينا والطفلة باقية على حالها مفجوعة مسلوقة قد أصابتها حالة اغماء
شديدة وما زالت تنزف نزيفاً حاداً .

.. وقارورة الخمر تحت أكتاف الشجيرات باقية وكذلك بعض بقايا اللبن .. وعلى
مقربة منها وقعت قطرات من دم طاهر نظيف .. ووحده الحبيث قد ولّى .. وآلام طفلة غضة
ما ولت .. وما ولت .

وقبل أن تحطّ ظلمة الليل سوادها في حضن الكون .. وبقدرة قادر يمرّ في ذلك الوقت
بائع متجول يجرّ أمامه عربته ليرى الطفلة متمددة .. ممزقة الثياب ، فيسرع نحوها ويفجع لمنظرها
ثم يحملها بين يديه ويهرع مسرعاً باتجاه مشفى قريب تاركاً عربته على حافة الطريق ..
ويتم في ذلك الليل الذي طال وطال .. إسعاف الطفلة التي انقذها الله وحده من الموت ..
لتبقى في المشفى لعدة أسابيع ويتم نقلها فيما بعد لدير الصليب لأنها كانت قد فقدت عقلها أثر
ذلك الحادث الرهيب .

وها هي بعد كل العذابات تتمدد راقدة هائبة في بحر النوم .. ومن يدري بماذا تحلم
الآن .. فهل هي حقاً قادرة على أن ترى حلماً جميلاً بعد ما سلبها الواقع عذريتها وعقلها وذاكرتها
بل وسلبها كل شيء .

ها هي ذي تنقلب في نومها وتحرك شفيتها لتنطق هامسة راجية قائلة : دميتي .. أريد
دميتي ..

إذاً هي تحلم ما دامت تقول وتردد في نومها « دميتي .. دميتي » نعم هناك داخل كيان الإنسان
عالم آخر هو أصفى من عالمنا بكثير .. يدركه فاقد عقله ولا ندركه نحن العقلاء .. كل ما ندركه
هو القتل والغدر والتدمير وسحق الطفولة في فجر رونقها ويفاعتها ..

في هذه الاثناء وبينما كانت الطفلة ما زالت هائبة في نومها دخلت العاملة مريم للحجرة
التي تنام فيها هذه المعذبة .. وبكل رقة وحنان أيقظتها من نومها وهي تقول في سريرتها :

— لأنّي ادرك يا صغيرتي إنك تعب وما زلت بحاجة ماسة إلى النوم التمس منك العذر ..

وما كان بودي أن أوقظك من نومك ولكن كارو تعود على ازعاجنا دوماً !!

واستيقظت الطفولة من نومها كالخائفة المذعورة ثم قعدت على الفراش نصف قعدة وامتدت
يدها لتشدا شعرها بعصبية لا حدود لها من شدة ألم يسكن في رأسها .

وتحركات المسكينة حركة تعب ، وما كفت يدها عن شعرها إلا عندما قادتها مريم وأخذتها
جاهدة مسرعة لتمثل برفقتها أمام الدكتور كارو .. ولما وصلتا .. غرفة المكتب .. امتثلت مريم
وبجانها الطفلة التي ما زالت تشكو من آلام في رأسها ، وعلى الفور أمر كارو مريم بالانصراف
فانصرفت وسارع ليقف تاركاً كرسيه الهزاز ويخطو باتجاه الطفلة لا لأنها تشدّ شعرها وتتألم ، وليس
ليقدم لها أية مساعدة أو على الأقل لينحها مسكناً يخفف بعض آلامها .. بل لينظر نظرة طويلة ..
طويلة في لؤلؤ عينيها وكأنه ذلك المحار الذي يتأكد من صحة قطعة من الماس الثمين .

وتمتد يده إلى عينيها ويفتح جفنيها ثم .. يتركها ليعتد خطوات ويتناول من خزانة صغيرة عدسة

اسطوانية وكرة أخرى يعود إليها .. ويتفحص .. ويتفحص شيئاً ما .. في لؤلؤ عيناها ولما وجد ما يسره .

قال مخاطباً الجميع ذلكم الذين ذهلوا للوهلة الأولى من منظر الطفلة وهي تشد في شعرها .

- يا سادة :- البضاعة جاهزة وكاملة المواصفات .

وما كان من جوزيف ورفاقه إلا أن ابتسموا .. ابتسامات عريضة .. عريضة ، ثم اعيدت الصغيرة ذات العينين الخضراوين إلى سريرها الذي ستغادره بعد أيام قليلة إلى هوليود العظيمة !! بعد أن أظهر كارو كرماء رائعا وأمر باعطائها مسكناً لا يخفف بعضاً من آلامها بل حفاظاً على أن تبقى البضاعة جاهزة إلى حين الطلب .. وتنتجج العملية ذات الرقم الستين .

ومرت اللحظة خائفة .. فنامت الصغيرة وما نامت بيروت ولن تنام وها هو كارو وعصابته يغادرون الدير متوجهين قبل مجيء الفجر إلى فندق « السمرلاند » الفخم حيث اقامة السيد جوزيف الدائمة لقضاء متعة وعريضة لا نعرفها أبداً .

في تلك الأثناء مرت السيارة التي تقلهم بمنطقة رياض الصلح الواقعة في غرب العاصمة حيث كانت تشهد مع هذا الفجر طقوساً للموت لم تألفها من قبل انفجاراً مرعباً هب في سيارة صغيرة مفخمة وملغومة (ب التي إن تي) على مقربة من المسجد الكبير في الحي الغربي .. لينسف نصف المسجد وثلاثة أرباع البيوت المجاورة له ، لقد أربع الانفجار بيروت ومسح مسحاً مئات الأبرياء الذين لم يبق أشيائهم تلك التي تناثرت وتفتت هنا وهناك بين ركام الجدران التي تحطمت بشكل مذهل .. أدى ذلك لعدم قدرة رجال الأطفال والاسعاف على أي إنقاذ .

هذه اللقطة الإنسانية الرائعة مع هذا الفجر الإنساني الخالص أسعدت السيد كارو ورفاقه وزادت من ثقتهم بأن الحرب ستبتلع فعلاً كل شيء ليبقى ما يريدونه هم من دمار لإنسان لبنان مقابل مصالحهم وطمعهم وجشعهم .

وما أن غادرت السيارة التي تقلهم منطقة رياض الصلح المزدهمة بالموت والفرع معا حتى قال مارون الذي كان يقود السيارة فرحاً :

صدق المثل القائل « مصائب قوم عند قوم فوائد » ثم قهقهه بطريقة مفرقة لم تزعج كارو وصاحبه هذه المرة فما رأيك بمثل هؤلاء الذئاب الذين ينتمون لفصيلة البشر .. ما أبشع هذا !!

الفصل الخامس

رقعة الأفق الواقعة في الكون كمظلة عظيمة أبدعتها براعة قدرة بارئ عظيم ، كأنها وسام يزهى ، به صدر الليل ، وبحر يتناثر فيه النجم ويسبح ، وكأن على ظهرها قد امتطى وبكبرياء ذلك القمر الذى بدا كقنديل براق يبعث بالضياء ويساهر الوجود دونما قلق ليطل على بيروت الحزينة تلك المتكئة على أطراف الشطآن وفي وجهها بات البحر هياجاً غشوماً في حالة توتر وهذيان ، وفي حضنها ذلك الذي غدا قاعاً مظلماً يعيش فيه البؤساء والأشقياء يرهبهم الموت ويداهمهم تارة بانفجار وتارة بحريق ودخان فيبدل الضياء بظلام .. ويعم في الأجواء الدخان كضباب قاتم الألوان صنعته ببراعة يد الإنسان كستار يفصل بين الضياء والشطآن ليضيق الأمان ، وكذلك يختفي الاطمئنان وينشط زمان الغدر والأوثان فتهب من كل ناحية على الأصقاع جماعات الأحراب والقرصان تفرض الموت فرضاً فتنتهك البيوت بأهلها ، وتصرع الحارات بما فيها غصباً وتغلق الشوارع بالمباريس والحواجز والحطام قهراً لكي لا يبقى شيء إلا وقد دخل أسيراً في بوتقة الرعب والخوف والهديان ..

ذلك الخوف ..

وذلك الرعب ..

وذاك الهديان ، أشياء تربعت كأخطبوط سيطر تماماً على حالة الجميع بما فيهم حورائية العينين أوديت الوحيدة التي كانت تود أن تحتفل الليلة بعيد ميلادها الثلاثين .
ها هي ذي مرعوبة خائفة داخل جدران بيتها الصغير أسيرة تلك الأجواء وكأنها في حالة اغتراب شديد . يدها ترتجف خفيفاً وكذلك شفتها السفلى ، ونبضات قلبها تتراكمض .. وتتراكمض .. وظلّ بالها مبشوشاً كبال الذي سيسقط لا محالة في فوهة بركان يشتعل أو كذلك الذي ينتظر الهاوية على مقصلة الموت .. ولا مفر من هذا القصاص .

ماذا تفعل هل تبقى في بيتها ففي خاطرها تدور عدة احتمالات .. احتمال أن يداهمها رجالات الأحزاب السياسية أولئك الذين يفتصبون البيوت اغتصاباً .. واحتمال آخر يقول : أنها لو خرجت

لنستنجد بالجيران لن تجد مسعفاً أو مجيباً .
أما الاحتمال الثالث فهو الأقوى ربما يسقط المبنى كاملاً وتضيع هي وبيتها بين الركاب ..
نعم .. نعم ربما يحدث ذلك كما حدث فعلاً قبيل ساعات وسقط المبنى المجاور من عدة
ضربات قاضية تحالف عليها المدفع والصاروخ والآربي جي .
ماذا تفعل والحرب ثائرة لا تسكت .. ؟

أتنظر عبر النوافذ لتأكد من سلامة إحدى الطرقات .. لا يمكنها ذلك .. خوفاً من رصاصات
قناص أو رصاصات طائرات .
فهل تغادر البيت وتفر هاربة إلى الشوارع والأحراش ، لا يمكنها ذلك أيضاً فالشوارع مغلقة
والأحراش بعيدة وما من مسعف أو مجيب .
« لقد وجدت الحل .. لقد ... » هكذا قالت المرعوبة وهي تغمغم خائفة حائرة ثم أردفت
تقول في سريرتها :

« نعم .. نعم التمرد من أجل البقاء .. سأبقى في البيت ولن أبالي بما يجري في
العالم الخارجي .. لن أبالي بما تفعله الأحزاب بل سأحتفل بعيد ميلادي وليفعل الله ما يريد » ..
وتمرت .. وعلى الفور هرعت لتبدل ثيابها وتعد مائدة الميلاد .. ها هي ذي قد
فعلت قلبست ثوباً زاهياً في لون أزهار البنفسج فبدت رائعة وهي تنشر على ظهرها وكتفها شعرها
الجميل .

وما أن مرت لحظات حتى احضرت الشمع وكذلك قطعة من الحلوى وبعضاً من عدة
مشروبات مختلفة ، عصير الليمون .. والأناس ثم الماء وعنقود عنب ثم المسجل الصغير
وموسيقى الرحيل الصاخبة ليحيي أخيراً ضوء الشموع على مائدة الميلاد باهتاً خافتاً خائفاً حزينا
يتحدى ارهاصات الموت وكل ما يدور في خلد العالم الخارجي .. ليحتل الشجن مكانه ويحيي
الشوق بعد احتراق على ذكريات استرسلت فيها ذاكرتها بل انتزعتها من كهوف ذلك الزمن البعيد
ليمر الوقت خاطفاً كل شيء جارفاً في طريقه الخوف والرعب معاً .
وما أبدع تلك النفس البشرية عندما تتمرد على الموت لأجل البقاء فقد يكون في التمرد ذلك
الخلاص المؤقت .

وتوارت ساعات الليل .. ليطل الفجر ناقماً على الرصاص .. فيسكت
الرصاص من رهبة الفجر .. والحرب ظلت وأدويت ما زالت شاردة الذهن ذاهلة في معالم ذلك
الأمس الجميل .

.. وتمر اللحظات صامتة فتداهمها عاطفة ما .. تذكرها بأمرها فتذكرها ثم
تذكر جيداً أنها لا تنجب الأطفال ، وشيئاً فشيئاً تتذكر الوسيم صعب فتبعث ذكره الابتسام
فتبتسم في وضع من يرجو شيئاً ما .
وقبل الصباح .. تعلن الشموع مصرعها فتذوب وتنتهي عندها تستسلم أوديت للنوم فتذهب
إلى سريرها وتنام والحرب ثائرة ما نامت . وكذلك الحياة تبقى

وبيروت على مقصلة الموت تنتظر .

ولما فرش الصباح أشلاءه على المعمورة اشرفت الشمس لا لتطل في هذا اليوم على الوجود وتبعث بالدفع بل جاءت لترى مراسم الموت في وداع طفلة مسكينة سترافقها حتى المغيب . وعين الشمس التي تحديق غاضبة جائرة وتتابع بترقب ما يجري في « مطار بيروت الدولي » ظلت دافئة فاترة لا لأجل جوزيف بل من أجل تلك الطفلة التي يقودها .. لتنفيذ عملياته ذات الرقم الستين .

ها هي المسكينة وبعد أن غادرت « دير الصليب » وللأبد .. تبدو وادعة تحمل بين يديها دمية صغيرة وترتدي أحلى الثياب .. ثياباً بيضاء نظيفة لم تلبسها من قبل وعيناها الخضراوتين تنظران بعفوية إلى كل ما حولها .. من موجودات المطار ثم ينتابها ضحك لا سبب له فتضحك .. وتضحك ، ثم تدخل برفقة جوزيف إلى غرفة الانتظار في قاعة المطار بعد أن أنهى جوزيف إجراءات الخروج قاصداً هوليوود مدينة الإنسان والإنسانية !!

ففيها في ذلك العالم حيث يعيش البشر ستم عملية نقل عين الطفلة ومنحها لأخرى تحمل الجنسية الأمريكية مقابل مبلغ ضخم جداً لا تكسبه أكبر عمالة تهريب .. سيوزع وبالتساوي بين جوزيف وجورج ومارون بن فهم كارو الذي امتن أنبل مهنة يحتفي بها إنسان .. وبعد ذلك سيكون مصير الطفلة مرعياً بشكله الاتوماتيكي حيث ستدخل بعد وفاتها إلى غرفة صغيرة يتوسطها وعاء ضخم يستوعبها تماماً وذلك الوعاء سيكون مملوءاً بمركب الأسيد في أعلى درجاته حيث لو أنها غاصت فيه لن تمر عدة دقائق على بقاء جثتها فستلذوب الجثة لحماً وعظاماً .. بكل تأكيد وبذلك تنتهي العملية ذات الرقم الستين .. وكرة أخرى يعود جوزيف لتنفيذ العملية التي تليها ..

ها هي ذات العينين الخضراوتين تبدو أنيقة رائعة قد صعدت أخيراً برفقة جوزيف على سلم الطائرة وعين الشمس قد غادرتها قليلاً .

ها هي الطفلة تدخل الطائرة برفقة ذابحها وما زالت ولعبتها في يدها تمسك فيها بشكل غير معقول .. وبدا على جوزيف اهتمام بالغ بالطفلة .. ها هو يعاملها بكل لطيف وحنية على مرأى من المسافرين .. إلا أن الطفلة لم تبد لهذا اللطف أو تلك الحنية أي اهتمام لأن المسكن الذي جرعه من يد كارو الخبيث كان يبعث في نفسها الكسل ويشدها إلى النوم ..

إنها تود النوم .. وقد أصابتها بعد ما جلست على الكرسي المخصص لها في الطائرة .. حالة استرخاء وتعب .. وعلى يمينها نافذة طلعت عبرها عين الشمس لا لتدخل الطائرة بل لتزيد من قبالتها على وجنتي الطفلة .

ولما أغلق باب الطائرة ، وربط المسافرون أحزماتهم ، وتحرك محرك الطائرة أعلن مكبر الصوت عن الإقلاع .. فأقلعت الطائرة وعندما ارتفعت قليلاً بدت بيروت التي طلعت تراحم الشمس عبر النافذة الواقفة على يمين المسكينة .. حزينة شاكية ببيوتها وحاراتها وناسها . وذات العينين الخضراوتين لم تعر أي اهتمام ولا حتى فكرت بأن تلقي على بيروت نظرة الوداع كما يفعل كل أنبائها المغادرين المخلصين .

والمسكينة لا تتذكر في بيروت شيئاً وما شعرت بأنها تفقد عظمة وان عظمة ستفقددها وما
بيديها أن تفعل لها شيئاً .

والطفلة .. ما تذكرت شيئاً من تلك الأيام ..
يوماً كانت فيه طفلة . مرمية على حافة طريق .. ويوماً بكّت فيه وصرخت .. ويوماً قلص الجوع
معدتها وجف حلقها من عطشها ..

تلك الأيام ظلت لبيروت .. لذاكرة بيروت ..
نعم ستذكر بيروت تماماً أن في حضنها سلّبت طفلة عذراء عذريتها وكل ما تملك حتى غادرتها
وللأبد وهي لا تملك شيئاً سوى دمية صغيرة وقعت بين يديها تلمسك فيها بشدة .. وعيناها
الخضراوتان .. اللتان ستغادراها أيضاً في هوليوود مدينة الوحش الإنسان ..
ها هي الطائرة تغادر سماء بيروت وتبحر في عمق الغيم .. وترتفع عن سطح الأرض
آلاف الأقدام ..

والطفلة قد استسلمت للنوم فنامت نوماً عميقاً ، وذابحها يقلب في صفحات مجلة تهتم
بالعلوم الإنسانية ..

وعين الشمس كالواحدة باقية في اطلالها ترافق الطفلة ووحدها من يدري بما تحلم فيه الآن .
هل تحلم برغيف خبز .. أم ببعض اللبن وربما بذلك الذي اغتصبها ..
هل تحلم بأُمها التي ما عرفتها أبداً أو بذلك القدر الذي عاشته غصباً في كنف امرأة
حقيرة استغلّتها أبشع استغلال .

بماذا تحلم ذات العينين الخضراوتان .. بقطعة حلوى أم بأرجوحة وادعة تفرح بها
وتسعد .

لا أحد يدري .. غير الشمس .. تلك التي فجعت عندما أغلق جوزيف النافذة التي
تطل عبرها .. وبهذا يكون قد طردها .. غصباً .. وظلّ يتنفس ويشعر بنشوة عظيمة .. وكم تمنى
حين عودته أن يفوز حبه بالصحة و ببعض أجزاء من الداخلية .

الفصل السادس

شجيرات الياسمين والقرنفل والبنفسج تتزاحم بأزهارها وبعيداتها الرفيعة ووريقاتها الصغيرة للتدلى رأساً على عقب من على سور فخم صنع من حجارة ذات لون ناري خالص أبدعته يد ماهرة ليلتف حول قصر عظيم قد وقف منذ سنوات قليلة يزاحم غيره في منطقة القصور الواقعة بين سفح جبلين يتخللها نهر يجيء هادراً من أعالي قمم الجبال الشمالية ..

ورحيق الزهور يتلاحم ويمتزج بالنسمات الحديدية تلاحماً يشبه في طبعه تلاحم الهواء بالضوء والأوكسجين .. ليدخل ذلك المزيج المركب إلى عمق القصر عبر نوافذه الضخمة ويعبق فيه ثم لتستنشقه رئة كارو صاحب القصر .

ها هو ذا يتمدد مسترخياً على سريره الفخم المزخرفة أطرافه بالعاج والمطعم بالفسيفساء ، ويتنعم على فراش ناري اللون خامته من ريش النعام والحرير وتحت رأسه وقعت وسادة محشوة بالريش أيضاً أما عيناه الثابتين فما زالتا تنظران عبر نافذة كبيرة إلى قرص الشمس ذلك الذي بدا مع هذا الغروب وكأنه برتقالة نارية تود أن يتلعها رأس الجبل .

ولما ابتلعها في هذا المغيب الرائع انتشى كارو لذلك نشوة لا يدرك معناها سواه .. وتناول على أثرها لفافة تبغ من علبة لفافات التبغ وأشعلها بعصية وبعد أن امتص منها شيئاً لفظ بقاياها فلفظه الفراش وقادته نفسه لتناول كأس من خمر ناري عمره ربع قرن من الزمان .. ولما ارتشف منه قليلاً .. فقليلاً .. فكثيراً داهمته سكرة وأجبرته على العودة إلى السرير فعاد ليشعل لفافة أخرى من التبغ وبعدها يفكر .. ويتفكر والسكرة في رأسه تخطو وتمختر فيملكه الشيطان ويسرح به .. فيسرح خياله في صعب الوسيم .. وبعذريته ويرضيه جداً ذلك الخيال .. ويتخيل الطفل على مقربة منه عارياً تماماً .. فتتحرك في أعماقه غريزة شيطانية تدفع بنفسه إلى حالة تلذذ وغليان لا يخدمها سوى النعاس الذي غلبه فغلب غرائزه الشيطانية ، لينام الشيطان ويحلم حلماً لا يمت أصلاً للإنسانية .

في النوم ..

ترأى له أنه يخرج من غرفة العمليات منتصباً انتصاراً لا مثيل له في الوجود سيمكنه هذا

الانتصار من أن يحكم الأصقاع بأسرها .
ها هو قد خرج من غرفة العمليات بعد اجراء عملية جراحية قد نجحت نجاحاً مذهلاً .. فلقد تمكن كارو من نقل دماغ بشري لقرد جيء به من أقاصي القارة الرابعة ، وبهذا يكون قد أصبح القرد عاقلاً ما دام العقل هو أصلاً وظيفة للدماغ كما السمع وظيفة للأذن .
ثم عزم الدكتور كارو على أن تتألى العمليات فتتالت واستطاع أن يحقق ما أراد بنجاح مدهش فلقد شكل له أخيراً فريقاً من القردة العقلاء ليكونوا بمثابة أعوان له ينشرهم في الأصقاع ..
ها هم أولاء جميعاً القردة العقلاء قد امتثلوا أمام الدكتور كارو طائعين ساكتين على مائدة البحث في أول قمة لهم لينطق كارو ويخاطبهم قائلاً :

أيها القردة العقلاء يا أعواني الأوفياء في الأصقاع .
أنتم ميلاد جديد لم تشهده أو تعرفه البشرية من قبل ، هذه البشرية الأنانية المنحطة لن تدع قوماً مثلكم من أصل حيواني أن يحكموها ويتحكمون ويسلبون خيراتها لهذا أقول .. وأثني عليكم القول :

أيها القردة العقلاء يا أعواني الأوفياء ، أنتم ميلاد جديد سيقهر البشرية وسيحكمها بإرادتي النارية .. فلکم الأصقاع بما فيها ..
.. إفعلوا ..

.. إفعلوا فيها ما شئتم ، ولتكن مسرحاً لسياساتكم وانتصاراتكم ، ونجاحاتكم .. لكم الطفولة .. انتهكوا عذريتها وادحروها وكذلك النساء فتمتعوا معهن وان أردتم فجنّدوها . واقتلوا الرجل الإنسان .. عفواً إنني أقصد العاقل الإنسان ، ولا تقربوا الكلاب ومن ينتمي إليهم من الذئاب البشرية فجنّدوهم لخدمتكم .. ليكونوا أعواناً لكم وظلاً لكم في امبراطورياتكم .

فلکم يا أعواني كل الأصقاع وبما فيها من خيرات ..

المال .. لكم وكذلك الثروات ولكنني أوصيكم بأن تتفقوا في أساليبكم لدحر من هم في الأصقاع ولا تختلفوا أبداً على مظاهر حكمكم لتبقى لكم زمام الأمور .

وأمركم .. أقولها بإصرار والويل لمن لا ينفذ .. وأقسم إنني سأعيده قرداً حيواناً .. أمركم أيها القردة العقلاء بتغيير وجه البقاع فلا أريد في الأصقاع خضرة ولا اخضراراً .. لا أريد أن تبقى الأشياء الخضراء حية ففي الخضرة يكمن خوفي واحترافي فهي بدلوا وجه البقاع بلون ناري من ألوان أمان النار .. أريد ألواناً تشبه في شكلها الغليان ، ووحده رغيف الخبز رقيبي عليكم فانتبهوا حتى لا يلتهمه بكثرة عدوكم العاقل الإنسان . فجوعوه .. وجوعوه .. سيكون في ذلك سلاحكم لكي تبقى الأصقاع لكم بما فيها ..

أيها القردة العقلاء :

أنتم ميلاد جديد فاقهروا بذكائكم من يقطن في البقاع .. فلکم الأصقاع .. لكم الأصقاع .. وبعد ذلك سكت كارو وغادر مائدة القمة متوجهاً إلى كرسيه العظيم في عرشه ذلك العرش الناري الشيطاني .

ثم غادرت القردة العاقلة مائدة القمة قاصدة الأصقاع .. فانتشرت فيها كما ينتشر الضوء ، ثم تقاسمتها فقامت .. امبرا .. وامبرا .. وامبراطوريات ..

ورفعت الأعلام النارية وجاء بعد حين زمن التسميات .. فسمي القرد الأكبر بالامبراطور المعظم صاحب السمو ونائب ولي العرش .. وحوله الكلاب ومن ينتمي إليها من الذئاب البشرية سموا بالحاشية صاحبة النفوذ والقرار ..

وقامت السياسات .. لتقتل وتسلب كل شيء .. لتنهك وتدمر . وسياسة التجويع وحدها ظلت هي الرقيب .. هي الرقيب ..

وفي غضون بضعة من السنين تبدل في الأصقاع وجهها فماتت الحياة وكذلك الحضرة وأقيمت الحدود فاصلاً بين الامبراطوريات .. ثم غدا ما قاله وما أمر به كارو صاحب العرش الناري نارياً .. وأصبحت الألوان الحياتية في البقاع مصدراً يبعث بألوان تشبه في حقيقتها الغليان وزادت الأطماع في نفوس القردة العقلاء فأخذوا يختلفون مع بعضهم البعض ويتقاتلون ويتصارعون على حقل الموز الواقف على الحياد بين امبراطورية القرد الأصغر وامبراطورية القرد الأكبر ليجيء بعد حين الصراع الدامي بين الأكبر والأصغر .. حيث تهجم القرد الأكبر بكل ما يملك من قوة وعناد على امبراطورية القرد الأصغر .. واحتل حقل الموز ..

وعلى أثر هذا التعدي الكبير .. واحتلال حقل الموز ثار غضب كارو وسخطه فأخذ يدعو القردة العقلاء للاجتماع فوراً على مائدة البحث أقصد مائدة القمة ولما انعقدت القمة في القصر الناري الأعظم واجتمعت القردة ممثلة طائفة أمام السيد الأكبر كارو صاحب العرش لحل مشكلة الصراع الدامي على حقل الموز داهمهم فجأة بركان فوهته تشبه في لونها وجه رغيف الخبز وتقدم البركان بسيله ليتلعب هذه القمة ويتلعب ذلك العرش الناري فالتهم بادىء ذي بدء القردة العقلاء الواحد تلو الآخر .. ثم تقدم بسيله ليجرف مائدة القمة .. فيجرفها وها هو يزحف .. ويزحف ليتهم صاحب الكرسي المعظم .. رويداً .. رويداً .. ها هو يتقدم ذلك السيل العارم ليجرف ويتلعب كارو .. بل ليدوب لحمه وعظامه معاً كما تلدوب جثة طفلة لو وقعت غصباً في وعاء مملوء بالأسيد في أعلى درجاته ..

ها هو السيل الملتهب يتقدم قادماً من فوهة بركان نائر .. وكارو .. يفر منه هارباً خائفاً .. خائفاً لاهثاً .. ولا مفر من هذا المصير ..

ما زال يتتبعه ، ليداهمه ويدحره .. وقبل أن يصل إليه بلحظة ويتمكن منه

توقف الحلم فجأة واستفاق الخبيث من نومه

فانتفض من على فراشه لاهثاً .. مرعوباً يبحث عن الماء ثم ليتمم قائلاً بعد تهيدة طويلة :

ما أبشع هذا .. ما أبشع هذا .. ما أبشع ذلك البركان

ثم خطا باتجاه النافذة عدة خطوات ثقيلة ليرى عبرها في الكون شيئاً نارياً .. لم يفلح بذلك .. لم ير غير ذلك الصبح الذي ما زال طفلاً فيه الحياة والأمل وفي حضنه المروج خضراء زاهية وكذلك الأحراش ولون عيدان الصنوبر ووريقات التين وذلك الماء الهادر القادم من قمم الجبال ، والهواء الذي تمازج مع عقب الأزهار .. كل هذا ظلّ وسيبقى ما دام الله عظيماً لا يغيب .

الفصل السابع

كمن تاهت فيه الطريق في أغوار صحراء شاسعة لا نهاية لها ولا بداية غارقة في بحر من الرمال فخارت كل قواه بعد أن أضناه التعب وجف حلقه من شدة العطش .. ولا مفر .. فمكث على الرمال اللاذعة وحوله الكثبان مخيفة مرعبة تحت أشعة الشمس الحارقة وأخذ ينتظر .. و ينتظر يستهدي ليستجدي ضياءاً من أمل يجيء بالخلاص مسعفاً .. ولا مفر .

أو كحالة سياسي زج به في زنزانة صغيرة تبتلعها أعماق الأرض ، زنزانة أصعب من القبر لو كان القبر صعباً .. حقيرة رطبة عفنة لا تسمح أبداً بدخول الضوء إليها ولا حتى لأي شعاع كان من مصباح أو من قرص الشمس ذاته ، حتى سلخت هذه الحقيرة من عمر ضيفها حياته .. ولكنه ما زال ينتظر ومنذ سنين طويلة أن يرى ذات يوم عين الشمس والحياة مرة أخرى ينتظر أن تهب في العالم ثورة حقة فيسقط طغيان الظلم ويكون في ذلك أمل بالخلاص فيسقط من استضافه ربع قرن من الزمان في هذه الزنزانة الحقيرة عندها سيخرج إلى وجه الأرض ويلتقي بعد غياب بالحياة والحرية .

كذلك تماماً كانت حالة شيخ الزبالين وأكثر .. ما زال ينتظر عودة بيروت الشرقية لبيروت الغربية اللتين انفصلتا تماماً كحكم أبدي لا استئناف فيه أبداً وقامت بينهما الحدود والسدود والأسلاك والمتاريس كأمر شرعي .. ليحيى الحصار خانقاً فتاكاً فيضيع الجيق وكذلك تضيع أخته الحرية ، ويبقى للموت وحده حرية العبور ما بين الشرق والغرب بلا جواز سفر أو تذكرة هوية ، كان هذا الحكم .. ومن الحاكم ؟ .. وحدها الطائفية سيده القرار .. ولا فرار .. وشيخ الزبالين كان كغيره الضمحية فما عاد بإمكانه التنقل من بيته في الغربية إلى مقر عمله في الشرقية ، فالحدود واقفة وكذلك الموت وفوهة البندقية ، والأفواه الطفلة مفتوحة تود اللقمة المفقودة تلك التي غدت في هذا الزمان جوهرة زمردية .

وماذا يفعل بعد أن خارت كل قواه وأصبحت تعباً بالية .. ولا مفر ..

« لن انتظر .. سأبحث عن عمل لي في الغريبة » كذلك قال في سريره راجياً شاكياً
وها هو ذا يغادر بيته المتعثر قاصداً الغريبة تلك الواقعة بين النور والظلمة وعلى اكتافها
وفي حضنها اللهب ترافقه زهرة تلك الجورية البيضاء التي بدت كلوحة تمازجت فيها حمرة الحدود
وشعر بلون الذهب وبشرة نضرة بيضاء يزيدا جمالاً عيناها الخضراوتان وتلك البراءة النقية التي
لا تختفي فيهما أبداً .
« سنذهب إلى بيروت يا أبي » هكذا قالت مبتسمة فرحة تخاطب أباه . أجابها
قائلاً بعد أن اصطنع ابتسامة :

« بإذن الله يا صغيرتي » .

ومع هذا الصبح مشياً قاصدين بيروت⁽¹⁾ .. عفواً أقصد نصف بيروت الغريبة فقط ولا أقول
بيروت الغريبة .. وفي الطريق ومن حين إلى آخر كانت تستوقفهما رجالات الأحزاب الذين كثرت
في هذه الآونة حواجزهم وكثرت مشاكلهم .. وكثرت مظالمهم .

فعلى الحاجز العشرين التابع إلى حاكم الجزء الثاني من النصف الأول لبيروت امثّل شيخ
الزبالين وابنته أمام رجل الحاجز الذي استوقفهما .. لينطق الأخير
قائلاً : من تكون هذه الطفلة ؟
شيخ الزبالين - أنها ابنتي .

- رجل الحاجز - وما أدراني أنا أنها ابنتك .
- قلت إنها ابنتي .
- هل عندك بطاقة شخصية .
- نعم .. نعم .. ها هي .. ها هي تفضل .
- وماذا تعمل ؟
- انني أعمل في دير الصليب .
- ماذا .. ماذا تقول دير الصليب إذن انت كاتثي .
- ماذا تقصد ؟
- أنتم خييثون جداً .
- الله يسامحك .
- كاتثي وتعرف الله .

(1) بيروت : عاصمة لبنان ، وميناء هام على شرق البحر الأبيض المتوسط تقع على سفح سلسلة جبال لبنان ، سكانها 450 , 000 نسمة
كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية . وازدهرت أبان حكم السلوقيين والرومان والبيزنطيين ، فتحها العرب في خلافة عمر 635 وسقطت
في يد الصليبيين عام 1110 وأصبحت جزءاً من مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى 1291 سادها الدروز أثناء الحكم العثماني واستولى عليها
محمد علي في أثناء حروبه ضد السلطان العثماني 1832م وأرغمته الأساطيل الإنجليزية والفرنسية على إخلائها عام 1840م احتلها الفرنسيون
عام 1918 ونالت استقلالها عام 1944م بعد الحرب العالمية الثانية . زاد عمرانها وازدهارها وأصبحت مركزاً للأشغال الحضارية والفناني .
من معالمها الجامعة اللبنانية ، والجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف وغيرها .

- اننى مسلم ولست كثنائياً ولكنى أعمل في منطقهم .. أقصد كنت أعمل في منطقهم كمنظف في دير الصليب .. « زبالاً .. زبالاً » أفهمتي .

- زبال وعندهك طفلة بهذا الجمال .

- هذه من أرزاق الله تعالى .

- هيا .. هيا عبر ..

وعبر شيخ الزبالين وابنته .. وما أن قطعاً مشياً على الأقدام مسافة قصيرة حتى استوقفهما حاجز آخر .. وهذا بدوره تابع لحاكم الجزء الثالث في النصف الثاني لبيروت ..

ها هو رجل الحاجز يحمل باحدى يديه رشاشاً إيطالي الصنع ليشير باليد الأخرى إلى صاحبتنا وابنته ويأمرهما بالانتظار .

وعلى مقربة من البراميل المعبأة بالرمال توقف الشيخ وابنته .. وانتظرا

وانتظرا .. طويلاً .. ليقول الشيخ مخاطباً رجل الحاجز الذي كان قد استوقف صبية في العشرين من عمرها .. ويماطل معها .. ويماطل ويضحك ولا يبالي بأحد ..

« ستدعنا ننتظرك حتى آخر النهار » ..

رجل الحاجز قال مخاطبه وبعبسية لا حدود لها :

- اخرس أيها الحقير .. والتزم الصمت .. وانتظر ..

شيخ الزبالين وبصوت خافت أردف يقول مخاطباً رجل الحاجز :

- أليس من العيب أن تخاطبني بهذا الأسلوب وأنا في سن والدك .

كرة أخرى وبعبسية أردف رجل الحاجز يقول :

- قلت لك أخرس يا حقير .

« أنت الحقير .. أنت الحقير » كذلك قالت زهرة بغضب شديد .. أثارت كلماتها غضب رجل الحاجز فأسرع نحوها وصفعها على وجهها .. وما استطاع الشيخ أبداً أن ينبس ببنت شفة لأنه يعلم تماماً ما قد يجري لو نطق بحرف واحد .. الا أنه أغلق براحة كفه فاه الطفلة .

ثم أردف يقول :

ألن تدعنا نذهب بحق الله .. فأنا مريض ولا أقوى على الوقوف طويلاً .

ورجل الحاجز لن يبالي أبداً بما يقوله الشيخ وكأن لا أحد يخاطبه !!

والمقهور ما كان عليه الا ان ينتظر غصباً .. وينتظر وكذلك زهرة التي كانت تود أن تقول شيئاً لكنها ما استطاعت أن تتكلم أبداً بعد ما أمرها والدها بالسكوت .

ومرت نصف ساعة من الوقت .

والطفلة تنظر بعينها وتراقب بدهش ما يفعله هؤلاء الكلاب على الحواجز .. تفتيش ، تنقيب ، تشليح ، تذليل ، تحقير ، وغير ذلك . وبعين جائرة كعين الذئب نظر رجل الحاجز أخيراً باتجاه البراميل حيث كان ما يزال شيخنا وابنته ينتظران الأذن بالعبور .. وها هو ذا قد أشار لهما أخيراً بإبهام يده كعلامة بالسماح لهما بالعبور . ثم قال :

- هيا أغرب عن وجهي يا هذا .. هيا ..
وذهب الرجل وابنته وأخذوا يتابعان الطريق .. والطريق كانت مقرفة جداً فالخواجز كثيرة .. وكلها
تتطلب الانتظار .. والأذن بالعبور .. وقبيل الظهر .. ها هو شيخنا قد وصل برفقة ابنته إلى « مقهى
البحر » حيث يجتمع رفاقه المعذبون لينطق حكيم بفرح قائلاً :
- جاء الشيخ بعد الغياب .. أهلاً .. أهلاً أبا زهرة .
وأبو زهرة حزين .. حزين وكذلك صغيرته .. إلا أن الفرحة قد داهمته للقاء رفاقه الذي قضى
معهم معظم حياته منذ مشرقها ذلك الذي غدا بعيداً .. بعيداً ..
والرفاق الطيبون .. ها هم يحتفلون به احتفالاً بالغاً . لينطق فرج القيرواني مستفسراً
مبتسماً ويخاطب أبا زهرة قائلاً : « وما أخبار صاحبنا الصغير .. صعب الوسيم ؟ »
شيخ الزبالين أجابه :

- - انه بخير تركته يلزم أمه في البيت لقد كبر وازداد جمالاً .. ولكن لا أخفي عليك
يا فرج .. أشعر دوماً بأنني قلق عليه .
فرج : ولكن علام القلق ؟
شيخ الزبالين هناك ظاهرة غريبة لن أقدر على تفسيرها أبداً ..
فرج وباهتمام بالغ قال : أي ظاهرة تلك ؟

شيخ الزبالين : على مقربة من بيتنا تقف منذ سنين شجرة التين العجوز ، وكأن صعب قد
ارتبط معها بمواعيد .. فتره دوماً يتردد إليها ليلتقي بها مع الفجر فكثيراً .. ما لفت انتباهي وهو
يتسلل من فراشه ليلاً يحاول أن يخرج من البيت ولما أصابني الخوف عليه .. وبت أسأل نفسي
كثيراً « لماذا يحاول الخروج من البيت في مثل هذا الوقت » ؟

وذاث يوم تركته يتسلل ليخرج بحرية من البيت ولما خرج .. تتبعته وراقبته فما كان منه إلا
أن ذهب إلى حيث تقف شجرة التين وجلس على مقربة منها يحاكها .. ولا تحاكيه .. حتى اعتدنا
على ذلك .. ولكن الظروف اليوم وكما تراها سيئة جداً .. الحرب .. والقتل .. والتدمير أشياء
استوطنت في كل مكان .. وبات خروجه أمراً يثير الخوف والقلق .

وإلى يومنا هذا لا أجد أي تفسير لمثل هذه الظاهرة ، وتلك العلاقة التي لا توصف أبداً
بين صعب وشجرة التين .. وبالرغم أنني أدرك شيئاً .. ثم سكت . فرج مستفسراً .
ماذا تدرك .. تكلم ..

شيخ الزبالين .. وبعد أن ارتعش قليلاً قال : لا .. لا شيء أبداً .
فرج أردف قائلاً :

على كل الأحوال اطمئن .. ستتدبر معاً حلاً مناسباً يريحك تماماً ووحده الله ولي التدبير .

وجاءت موجة حزن شديد لتغمر مقهى البحر بما فيه .. بعد ما علم الجميع بأن أبا زهرة
قد داهمه مرض خطير .. وفقد عمله نتيجة التقسيم ، وفهموا من كلامه أنه عاطل عن العمل وليس
بإمكانه أن يقوم بأي عمل فجسمه غدا هزيراً ضعيفاً لا يقوى على شيء ..

وأخيراً نطق ثخين الصوت أبو مسعود ذلك الثرثار الذي يدلته الحرب فغابت الضحكة من أعماقه .. ليقول مخاطباً أبا زهرة .

لا تهتم .. يا شيخنا فكلنا إخوة ، وستعاون على أن نجتمع لك مبلغاً تدبر منه أحوالك فلعل الطريق إلى الدير تعود إلى مجراها الطبيعي وتتمكن من الذهاب إلى عملك .
شيخ الزبالين مبتسماً :

لقد سلبتك الحرب الضحك والثروة وما استطاعت أن تبدل فيك الرجل الشهم الكريم .. فشكراً لك يا صاحبي على كل أفضالك .
أبو مسعود قائلاً :

- استغفر الله ، لا فضل لأحد على الآخر ما دام صاحب الفضل موجود .
حكيم وبخشوع قال :
ونعم بالله .. ونعم بالله .

ذلك الحديث جعل الجميع يسهون عن الاحتفال بالأميرة زهرة التي ما زالت ساكنة تجلس على كرسي صغير تتابع .. وتسمع . وتترقب .. لكنها كانت تميز ..
فلقد ميزت في مداركها بين هؤلاء الرجال وحهم الكبير لوالدها . وبين هؤلاء الكلاب الذين يقفون على الحواجز .. ولن تنسى ذلك القدر الذي صفعها على وجهها في هذا النهار .
ها هي تمد يدها وتلمس خدها .. وتغضب .. وتغضب وما أعظمها الطفولة يوم تغضب
ان ذلك مثل الصارخ من حضن برعمه .

ثم يلتفت إليها الجميع فيهتموا بها اهتماماً بالغاً ، ويفر هارباً أبو مسعود ليغيب قليلاً ثم يعود وييديه قطعة من الحلوى جلبها للأميرة زهرة .

وأبت الغاضبة أن تأكل الحلوى ، إلا أن أبا زهرة قال لها راجياً : انها من يد كريمة وأنت ابنة كريمة هيا يا صغيرتي كلي الحلوى ..

أبو حازم : ما بالها حزينة يا أبا زهرة .

أبا زهرة : لقد ضربها أحد كلاب الحاجز العشرين .

انتفض القيرواني غاضباً ليقول :

الويل للذئاب لا تراهم .. الويل لهم .

أبو زهرة وبخزن قال :

علينا أن نتحمل لأجل هؤلاء الصغار .

« نعم .. نعم .. علينا أن نتحمل لأجل هؤلاء الصغار » كذلك قال حكيم وبخزن عميق ثم أردف قائلاً :

- لقد تطورت الحرب وكثر الموت والخراب ولا ندري فهل من نهاية .

« بالطبع ستكون هناك نهاية لهم » كذلك قال القيرواني .

ثم أردف يقول :

« سيشع بعد حين ذلك الفجر ويحيى أخضراً يطرد الموت ويبعث الحياة » .

أبو حازم : ولكن يبدو لي أنه إلى أن يشع ذلك الفجر لن يبقى في بيروت حَيٌّ .
رد عليه القيرواني قائلاً بعد أن تنهد تنهيدة طويلة :

« يمهّل .. ولا يمهّل .. يمهّل ولا يمهّل » .
وكرة أخرى قال : « بُعدا للقوم الظالمين » .

الجميع وبصوت واحد :

ونعم بالله .. ونعم بالله ..

وزهرة ها هي قد التهمت الحلوى كما الزمن التهم الوقت ليسرع هارباً النهار . ويمضي .
وبعد أن قدم الجميع مساعدة مالية لأبي زهرة .. ثم ذهب فذهبوا .. وفي أثناء عودته إلى البيت
مر .. بالحواجز ذاتها .. وبالألم ذاته .. وبالاتظار ذاته حتى وصل متأخراً إلى بيته .. ليدلف إليه
بعد تعب ويجلس وحوله أفراد عائلته حول مائدة العشاء .
وعلى العشاء قال يخاطب صعب ضاحكاً :

- قل لي يا صعب ما قصة صحبتك بشجرة التين العجوز .

لن يجد الوسيم جواباً سوى أنه توقف عن الطعام ليداهمه الحرج والشروء معاً ..
وقبل أن يلح أبو زهرة ويكرر سؤاله ثانية .

قالت أم زهرة مسعفة الموقف : وما بالها التينة العجوز فالله بارك فيها في كتابه العزيز .
أبو زهرة أردف يقول :

أنا لا أقصد في سؤالي هذا أي شيء قد يزعج صعب ولكني أحببت أن أسمع منه عن صداقته
الحميمة بتلك الشجرة ولا أكثر .

ابتسم صعب ثم تالت الابتسامات من زهرة وأمها وكذلك أبي زهرة لينطق أخيراً الوسيم قائلاً :
ألن نذهب أنا وأختي إلى المدرسة .

تأثرت أم زهرة لهذا كثيراً وكذلك شيخ الزبالين الذي نطق مسرعاً ليقول :
بالطبع ..

بالطبع ستذهب أنت وأختك إلى المدرسة .. أليست المعرفة حق طبيعي لكل إنسان ..
صعب .. ولكن متى يا بابا .

أبو زهرة وبصوت خافت قال :

- حتى تتوقف الحرب قليلاً وأتمكن من الذهاب إلى الدير .
زهرة مستفسرة :

- ومتى ستوقف الحرب يا أبتى ؟

أبو زهرة راجياً قال : عندما الله يريد يا صغيرتي .

زهرة : يارب .. يارب تتوقف الحرب لكي نذهب أنا وصعب إلى المدرسة ..

وما توقف حديثهم على مائدة العشاء المتواضعة الفقيرة التي احتفت بالخبز والشقاء معاً ..
بالقصة والحناء معاً بالتعب والفرح معاً .. ليظل الليل لهم .. وما ظل .

وبعد العشية قرع باب البيت بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهل البيت جميعاً الذين ما زالوا يشكلون

نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء ..
 زهرة : مستغربة تخاطب أباها قائلة : الباب يقرع يا أبي :
 « اللهم اجعله خيراً » هذا ما قالته أم زهرة ذاهلة مندهشة ..
 وبصوت عالٍ أخذ أبو زهرة يقول وهو يهرع ليفتح الباب ..
 « من الطارق .. من الطارق ؟ »
 ولما فتحه طلَّ رجل غريب لم يره من قبل يسدو أنه في حالة خوف وارتباك ليستجد بأهل البيت متمماً خائفاً ليقول :
 انهم يريدون قتلي .. نعم يودون قتلي .. أتوسل إليك خبتي عندك الليلة .
 أبو زهرة : خفف من روعك يا رجل وتفضل إلى الداخل .. هيا تفضل فاليك بيتك ..
 ولما دلف داخلاً إلى البيت . وجد من فيه حول مائدة العشاء ليقول بخجل : - اعتذر
 فقد أكون أزعجتكم .. وأخرجتكم ولكنني في موقف حرج جداً .
 سيدة البيت وبعد أن ابتسمت قالت :
 لا داعي لهذا الكلام فأهلاً بك في بيتك .
 أبو زهرة : هيا تفضل .. هيا اجلس معنا على العشاء ..
 الضيف : لست قادراً الآن على تناول الطعام ولكنني أود بعض الماء من فضلكم .. وعلى الفور
 تناول صعب ابريق الماء وناولته إياه قائلاً :
 هاك الماء يا عم .. هاك الماء يا عم ..
 الرجل وبعد أن تناول من صعب ابريق الماء وارتشف منه حتى ارتوى قال :
 الحمد لله .. الحمد لله ..
 وبعد أصرت القطعة الصغيرة زهرة على أن يتناول الضيف الطعام ..
 شاركهم على المائدة طعامهم وأخذ يتبادل مع أطراف الحديث .
 أبو زهرة خاطبه قائلاً : امطئن الآن ؟
 الضيف : أحسن حالاً .
 - وهل من خوف .
 - لا أتصور أنهم سيتمكنون مني لأنني استطعت أن أفلت منهم بأعجوبة وتوهمهم عني بقدرة
 قادر .. والمهم أن أغادر بيروت على وجه السرعة .
 - من هم أولئك الذين يطاردونك ويودون قتلك ولماذا ؟
 - يبدو أنك غريب عن لبنان .
 - لا فأنا لبناني .
 - ما دمت لبنانياً ألا تدري ماذا يجري في هذه الأصقاع ..
 - أعرف أن هذه الأصقاع غدت بؤرة .. للمنظمات والأحزاب المختلفة الاتجاهات .
 - الذين يودون قتلي هم الذين يودون تجويعكم وقتلكم .
 - ومن تقصد .. أي حزب .

- كل الأحزاب .. فمن تحزب خان .
- كلام غريب لم أسمعه من قبل .
- ألا توافقني في ذلك ..
- قد أوافقك مبدئياً لأنني لا أفهم كثيراً في السياسة ومهنتي تختص بالتنظيف فقط ..
- ولكن يمكنني أن أقول إن ما نراه من الأحزاب يعني أن الأحزاب جميعها خائنة وتقوم لمصالح واعتبارات .
- ما هي مهنتك ؟
- مهنتي متواضعة ولكنها ليست حقيرة .. أعمل منظفاً .. أقصد كنت أعمل منظفاً في « دير الصليب » .. والآن عاطل عن العمل لأن دير الصليب في الشرقية وبيتني في الغربية وكما تعلم .. فالتقسيم وقف حائلاً بيني وبين العمل .. ولكن أحمد الله على كل شيء .
- الحمد لله .. الحمد لله .
- أبو زهرة مخاطباً زوجته .
- هل لنا من يدريك بعض الشاي يا أم زهرة .
- أم زهرة مبتسمة .. ولم لا ..
- وها هي قد غادرت إلى مطبخ البيت المتواضع لتعد ابريق الشاي .. ومن جديد عاود الضيف وأبو زهرة حديثهم .. لينطق الأخير قائلاً :
- يبدو لي وللوهلة الأولى أنك من المغرب العربي .. أليس كذلك ؟
- صدقت فأنا عربي ليبي .
- أنت إذن من بلد القذافي .
- أنا جندي في ثورته .
- وماذا تفعل في لبنان ؟
- امارس حقي في الدفاع عن لبنان العربي .. أنا في مهمة .
- ولكن قل لي كيف حال ليبيا ؟
- مشرقة الوجه تود أن يكون لبنان مشرق الوجه أيضاً وكذلك كل البلاد العربية الواقعة تحت نير الظلم والاستبداد .
- وهل يشرق لبنان مرة أخرى .
- ولم لا .
- لقد انتهى لبنان وللأبد .
- كنا نقول ذلك في ليبيا أيام العهد البائد ، ولكن وجه ليبيا أشرق عندما قامت الثورة .. وحررت كل شيء ..
- في ليبيا قامت الثورة ولكن في لبنان أي ثورة ستقوم لقد سمعنا كل شيء هنا .
- ستقوم الثورة .. ستقوم .
- أنت تجزم .

- نعم ..
 - ولكن متى ؟
 - في الوقت المناسب .
 - يبدو أنك متفائل جداً .
 - ولم لا .. ففي التفاؤل أمل .. وفي الأمل حياة .
 - صدقت في الأمل حياة .. ثم تهدي أبو زهرة طويلاً إلى أن دخلت صاحبة البيت بالشاي .
 أبو زهرة مخاطباً زوجته : سلمت يداك يا أم زهرة .
 أم زهرة .. تفضلاً الشاي .. فأخذ كل منهما كأسه .
 في هذه الأثناء وبينما كان الشيخ وضييفه يرتشفان الشاي ويتبادلان أطراف الحديث لفت انتباهه صعب الجالس ساكناً هادئاً منذ أن هلّ الضيف إلى البيت تلك الأوراق التي وضعها على مقربة منه وذلك الكتاب الأخضر الذي يشبه لونه لون وريقات صديقه التينة .. وبلا شعور ، وبعد ما أصابه شرود قصير قال في سريره : متى سأذهب إلى المدرسة .
 تقدم باتجاه ما وقع على مقربة من الضيف وجلس هادئاً حائراً يود أن تتلمس يده الأوراق وذلك الكتاب ولكنه لم يفعل ،.. فلفت نظر الجميع إليه وكذلك الضيف الذي أخذ يخاطبه قائلاً : ما بالي أراك حزيناً أيها الوسيم الصغير ؟
 وقال أبو زهرة بحزن : هذه حاله دوماً ، كثير الشرود .. وسأكت لا يتكلم لكنه يود الذهاب إلى المدرسة .
 الضيف : ولم الشرود فهو ما زال صغيراً عليه .. ولم لا يذهب إلى المدرسة ؟
 أبو زهرة : هكذا .. دائماً شارد الذهن ميال للسكوت ، وأما من جهة المدرسة فالأحوال حالياً لا تسمح لنا بإرساله إليها هذا ان وجدت المدرسة .
 الضيف : أتقصد الأحوال المادية .
 أبو زهرة : « المادية وغير المادية » ثم سكت طويلاً .
 وغمرت الضيف موجة من الحزن على ما كان يشكو منه هذا البيت الكريم المضيف وعلى ما كان قد قرأه في عين الطفل من حزن وشكوى ، لقد أدرك ما في خلده من حب فائق للاطلاع والمعرفة وشغف لا حدود له للذهاب إلى المدرسة ، وكم تمنى أن يقدم لأهل هذا البيت أية مساعدة ولكن ما كان يبيده أن يفعل شيئاً لأنه في موقف حرج وسيغادر لبنان غداً .
 ولما وصل الليل على عتبة نصفه الثاني هيأت أم زهرة فراشاً نظيفاً للضيف وذهبت إلى المطبخ لتنام فيه برفقة زهرة ثم نام أهل البيت وعين الحرب ما نامت .
 ولما تنفس الصبح في اليوم التالي وجاء ندياً ، تراجعت فيه قطرات الندى المسالمة لتحتل مواقعها في أحضان العشب وعلى راحة الوريقات والعيان متناقلة خفيفة تنتظر مصرعها .. وهي تدرك جيداً ذلك المصير .

وما أن طلت الشمس متأخرة في شروق خريفي حتى أخذت تتهاون وتحالف مع الهواء والريح لتسقط عرش الندى في فجر ولادته فسقط .. وماتت القطرات ذابت وتلاشت محترقة على الوريقات

دون أن تصرخ أو تبكي لقد ماتت وهي تدرك جيداً أن بعد الموت تحيي الولادة .
في ذلك الحين كان الواقع والزمن يتفقان على شيء ما يخص ذلك البيت المتعثر الذي يقطنه شيخ
الزبالين وأهله .

فبعد مصرع الندى كان الضيف قد أستيقظ من نومه وكذلك أهل البيت بمن فيهم صعب وجلسوا
جميعاً لتناول الطعام على مائدة الافطار التي كانت قد أعدتها أم زهرة منذ وقت مبكر مع هذا
الصباح .. وعلى المائدة ..

قال أبو زهرة مخاطباً ضيفه :

- ما زلت تصرّ على الذهاب ، لبتك تنتظر قليلاً على الأقل عندما تهدأ الحال .. ربما .
الضيف - يجب أن أعادر لبنان اليوم .. وليس في مصلحتي أن أبقى هنا فرما يدهامون
المنطقة بحثاً عني .. كنت أتمنى أن أسعد بضيافتكم وأقدم لكم أية خدمة ..
ولكن .. الموقف حرج جداً .

أبو زهرة - كما تشاء .. ما دام في ذلك مصلحتك .. وبكل أسف أقولها
كان بودنا جميعاً أن نقوم بواجبنا تجاهك على أكمل وجه ولكن كما يقول المثل الشعبي :
« اليد قصيرة والعين بصيرة » .

الضيف : - لا داعي لهذا الكلام .. فأنا لن أنسى لك هذا الموقف الشهم ..
ثم أردف مخاطب صعب قائلاً :

أما أنت يا صغيري فأتمنى لك أن تذهب إلى المدرسة وتأكد أن الزمن القادم سيكون لك ..
يكل أبناء جيلك .. كما أنني لاحظت عليك أنك تود أن تطلع على هذه الأوراق وعلى هذا
الكتاب .. ولكن ماذا أقول لك وأنت ما تعلمت القراءة والكتابة بعد .. لكنني سأمنحك هذا
الكتاب لعله يكون مني إليك ذكرى .. وربما تستفيد منه ذات يوم .. هيا خذه .. خذه .
فأخذه الطفل بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة على أن يبقى له .. كذكرى من ضيفهم وظلت
بياله تلك الكلمات :

« لربما تستفيد منه ذات يوم » .

وبعد ..

وكما تعلم السفن أشرعتها لتسافر .. غادر الضيف ذلك البيت المتعثر وذلكم الذين يعيشون شتى
أنواع الحرمان والقهر لكنهم ما زالوا يحتفظون بأسمى سمات الإنسانية من حب وكرم وطيبة وشهامة .
ها هو ذا الضيف قد غادر متوجهاً ليشق طريقه عبر الأحراش يملكه شعور غريب تمازج فيه الحزن
والفرح معاً ، وكم تمنى للشيخ وعائلته الحياة الأفضل ليقول في سريره :
لن أنسى لك هذا أيها الشيخ الكريم .

كان صعب في تلك الأثناء قد هرع ليقف على رأس تلة قرية من البيت مطلة على الأحراش
ليترقب رحيل الضيف وهو يشق طريقه عبر الأحراش .

ها هو ذا الرجل .. يخطو مسرعاً إلى قلب الأحراش .. لقد دخل إلى عمق الأحراش لقد ..
اختفى في عمقها .

فجأة سمع صعب صوت الرصاص الذي أخذ يدوي ويعلو في قلب الأحراش لم يبال بهذا كثيراً .. وهرع مسرعاً عائداً إلى البيت .
ووحدها الأحراش كانت تبتلع الفرحه والحزن معاً . وما أدراكنا .. من ستبلعها بعد حين . ؟

الفصل الثامن

جحافل الموت تزحف مسرعة لتعصف ، ناقمةً غاضبةً على منطقة البيوت المتعثرة التي انطلوت على ليلة كان قد قضاها في قضاها الطريد الهارب من حكمها وقضاها . ليكون الموت فيها عملاقاً عظيماً يحمل تحت ابطه منجل الفناء الماض المعقوف ، وما كان يضعه أبداً لأنه ما فتر أبداً عن نقل خطواته بين أرجاء تلك البيوت المتعثرة المسكينة .. فأذل عمقها وحطمها .. بما فيها وحصد أرواحاً ما أذنبت ، أرواحاً عاشت الذل والقهر ولم تتمرد .. وما كانت قادرة على التمرد أبداً .

وها هي حملة التفتيش الذي يقودها الأمر الناهي في لجنة العلاقات العامة التابعة لحزب إنساني .. قد حلت بالمنطقة .

« امسحوا الأرض مسحاً ، وحولوا المنازل إلى أنقاض .. اطرودوا من فيها .. لا أريد أن أرى أي شيء هنا .. امسحوا الأرض مسحاً .. » كذلك كان يقول الأمر الناهي بعصبية لا حدود لها والشر يقدر من عينه قدحاً ..

وما هي إلا لحظات أنقضت هاربة مرتجفة .. حتى بدت المنطقة وكأنها خرابة تفصّ بالدمار .. فالجرفات العملاقة قد حولتها إلى أتربة متبعثرة غصت بجثث الذين أبوا الرحيل .. ورجال الأمر الناهي قد فعلوا ما أمرهم به وأكثر ..

وفّر من لجا من هذا الطوفان ، وماتت أحلام المساكين بموت أعشاشهم وتم نزوحهم قسراً .. ومن جديد لا مأوى ولا طعام .. هذا القدر نشر الثكل واليتم والدمع والجزع .. لينطق الأمر الناهي كرة أخرى بعد ما أشار لرجاله إلى ذلك البيت الواقع على مقربة من شجرة التين المعجوز .. قائلاً :

« ألم أقل لكم امسحوا الأرض مسحاً ، ما بالي أرى ذلك البيت واقفاً .. »

لم يكن في البيت المقصود سوى أم زهرة وطفليها .. فشيخ الزبالين قد غادره للبحث عن العمل .. وها هم رجال الأمر الناهي قد داهموا البيت ..

- أم زهرة : « ماذا تريدون » هكذا قالت خائفة مرعوبة .

- أحدهم وبصوت شيطاني قال : « هيا اخرجي من البيت سنهدمه في الحال » .
 - أم زهرة وبعد صراخ حاد قالت : « ماذا .. تهدمون البيت .. ولماذا » .
 - أحدهم كرة أخرى قال : « لا وقت لدينا هيا اخرجي من البيت » .
 - وبغضب قالت أم زهرة « لا .. لن أخرج من بيتي أبداً » .
 - أحد الرجال قال غاضباً : « اخرجي وإلا سنهدم البيت فوق رأسك » .
 - أم زهرة : لن أخرج من بيتي أبداً .. أبداً .
 أحد الرجال قال مستهزئاً : « ولم لا .. لا تخرجي .. لا تخرجي » .. فما كان منه إلا أن انتزع من حولها طفليها ورماهما خارج البيت وأمر قائد الجرافة السادسة بتحطيم البيت بل بانتزاعه من الأرض انتزاعاً .
 وأبت الفاضلة أم زهرة أن تخرج من بيتها ولو كان ثمن ذلك انتزاع الروح من الجسد .
 ونحطم البيت أمام ناظري صعب وزهرة .. وظلت بين ثناياه الممزقة أمهم التي غادرتهم للأبد ..
 وهم لا يدرون أبداً لماذا تغادر .
 لقد ضاعت الفاضلة في الأتربة .. لقد ماتت وامتزج دمها الساخن بالتراب وجثتها ما ظهرت أبداً .

وعين الطفولة تتساءل .. تارة وتارة تبكي .
 وعين الطفولة تشكو وعلام تشكو .. لقد ضاع كل شيء ..
 وها هما كلاب الأمر الناهي قد ذهبوا إلى حيث جاءوا .. وظل صعب وأخته زهرة ينظران إلى حيث كان يقف بيتهما .. ويجهشان بالبكاء ويصرخان .. صراخاً خجلت منه عين الشمس فغابت .. صراخاً فزعت منه عواصف الحريف فهربت ، صراخاً في شكوى .. وفيه ما فيه من لحن الموت وموسيقاه الصاخبة .
 « أين أنت يا أماه » ..
 « أين أنت يا حبيبة » « لقد .. تهدم البيت » « أين غبت يا أماه » وها هما صعب وزهرة يتراکضان إلى أنقاض البيت ليجثا عن أمهما .
 ها هم ينبشون في الأتربة المتراكمة .. كمن يبحث في التراب عن كنز مدفون وهو يدرك جيداً أنه .. هنا موجود .
 وما كانت غير حفنات من التراب تتبعثر .. هنا وهناك .. لا جدوى لقد اختفت .
 والطفولة ما زالت تصرخ وتبكي وتنادي .
 أماه .. أين أنت يا حبيبة ؟
 أماه .. أين أنت ؟
 أماه أين غبت .. ولا من يجيب .

ثم ساد صمت كالذي يعقب انطلاقة الرصاص ، وبدت المنطقة خالية موحشة لم يبق فيها أي شيء حي سوى زهرة وصعب اللذين ما زالا ينبشان في التراب بحثاً عن أمهما .. وتلك العنيدة

شجرة التين العجوز الواقعة منذ سنين ها هي تنظر بعينها .. وتترقب ما يجري حولها .. البيوت تهدمت والناس نزحت والأمهات قتلت ، والأطفال في ساحة الموت يصرخون .. ولا جدوى من انقاذهم ..

ما يجري حولها ..

وصعب ما زال يجيش بالبكاء وكذلك زهرة التي لم تدرك من كل هذا سوى أن أمها قد غابت .. إلى أين ولماذا .. لا تدري .

ها هنا ينتظران على مقربة من التينة عودة أبيهما .. لنجدتهم .. وشيخ الزبالين قد تأخر ولكن لماذا يتأخر ما دامت الطفولة في أمس الحاجة إليه .. وهل من مصير بعد هذا المصير العملاق . في ذلك الوقت وقبل أن يهجم الليل بظلامه على الكون كان شيخ الزبالين قد زج غصباً في غرفة عفنة مكتظة بالمساكين واقعة تحت الأرض التي قام عليها شامخاً برج المر .. و « برج المر » ذلك الواقف شامخاً في بيروت بؤرة فيها يدحر الإنسان دحراً ويقتل ألف مرة . ومرة ولا يموت .

في هذا البرج سجن لم تعرفه الأنظمة الرجعية الارهابية أبداً فالتعذيب فيه يكون بدون سبب ويتخذ له أشكالاً متعددة .. لم يألفها الإنسان من قبل .. وها هو أحد المساكين يتعذب على مرآة ناظر الجميع .. بمن فيهم شيخ الزبالين الذي فقد أعصابه تماماً .

ها هم رجال الحزب الإنساني وبين أيديهم إنسان يتكلم مثلما يتكلمون ولسانه عربي . مثلما هم يدعون أنهم عرب .. أنه من لبنان وكذلك هم من لبنان .. وها هم يودون استجوابه .. والرجل بين أيديهم غدا كهيمة لا تنطق أبداً لكنها تهز برأسها إلى الأسفل كعلامة نعم .. ودار حوار بين المحقق والسجين .

المحقق - أنت كتائبي .

السجين - (يهز برأسه إلى الأسفل) .

- تعترف أنك قمت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب .

- (يهز برأسه إلى الأسفل) .

- إنك تود الموت اليس كذلك ؟

- (يهز برأسه إلى الأسفل) .

- لن ندعك تموت من مرة واحدة أيها المجرم .

- (يهز برأسه إلى الأسفل) .

ثم يرفسه أحدهم إلى اليمين ويطلب استجواب سجين آخر ..

ويحضر الآخر .. طائعاً ساكناً لا يتكلم ..

فيسأله المحقق ..

- أنت كتائبي .

- أنا مسلم .

- يبدو أنك رجل حقير .
- أقسم إنني لم أفعل شيئاً فما أنا سوى بائع متجول أطوف النهار لأجل لقمة عيش أطعمها لصغارتي .
- يبدو أنك رجل حقير فعلاً .
- ثم يأمر أحدهم بإدخاله إلى غرفة الانعاش .. ليعود به ثانية للتحقيق .
- وبعد ما خرج الرجل من غرفة الانعاش وكأنه ابتلع مخدراً اسكته تماماً . المخدر .. هو تقليع الأضافر ، طلي الجسم بالأسيد ، قطع إبهام أو خنصر .. أو قطع لسان ، قلع عين .. أو لكمة تفرط الأسنان .
- المخدر .. في غرفة الانعاش يجعل الإنسان بهيمة .. لا تتكلم أبداً عليها أن تهز رأسها إلى الأسفل كعلامة على القبول .. أو كإشارة تعني نعم .
- الرجل المحقق يخاطب السجين الذي خرج من غرفة الانعاش قائلاً :
- أنت كئيب .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- تعترف أنك قمت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- أنك تود الموت أليس كذلك ؟
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- لن أدعك تموت بهذه السرعة .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- ثم يرفسه المحقق رفسة قوية توقفت أنفاسه على أثرها وللأبد .. ولما سقط .. أوردف المحقق قائلاً يخاطب جثة السجين :
- لقد أفضلت التحقيق يا حقير .. فما كنت أودك أن تموت بهذه السرعة . ثم أمر أحد عناصره بنقله ثم رميه على أكتاف المقبرة ..
- ثم جاء أخيراً دور شيخ الزبالين .. فامتل طائعاً خائفاً بين يدي المحقق ليخاطبه قائلاً :
- تشرفنا فأنت ضيف جديد أليس كذلك .
- نعم .. نعم ..
- ومن جاء بك إلى هنا .
- رجال الحاجز العشرون .
- وماذا فعلت ؟
- لم أفعل شيئاً .
- هكذا دون أن تفعل شيئاً تم اعتقالك ؟
- أقسم لك يا سيدي أنني لم أفعل شيئاً .
- ما هي مهنتك .. ما هو عملك ؟

- أعمل « زبالاً » .
- أين موقع عملك ؟
- كنت أعمل في « دير الصليب » .
- ماذا .. دير الصليب .. أتعني أنك تعمل في الشرقية ولكن كيف تنتقل والحدود قائمة ؟
- كنت أعمل في دير الصليب ولكنني انقطعت عن العمل أثر التقسيم .
- أنت ضد التقسيم إذن ؟
- أنا لبناني .
- ألمح فيك الروح الوطنية .
- كلنا نحب لبنان .
- هل تنتمي إلى أي حزب .. ؟
- أنا غير متعلم .. ومهنتي لا تسمح لي بالانتساب إلى الأحزاب .
- ولكن لماذا اعتقلك الحاجز العشرون ؟
- لا أدري .. ولكن ..
- ولكن ماذا ؟
- فربما لأنني سئمت الانتظار على الحاجز ليلة الأس لضعف جسمي ومرضي .
- وماذا حصل على الحاجز ؟
- بينما كنت قاصداً بيروت برفقة صغیرتي زهرة لأبحث هناك عن عمل أقتات منه أنا وعائلتي ..
- توقفنا عند الحاجز العشرين بعدما أمرنا رجل الحاجز .. ولما مضى على انتظارنا أكثر من ساعة ..
- قلت لرجل الحاجز أنني تعب وأود أن أعبر .. فصرخ بوجهي وضرب صغیرتي وعندما عبرت هذا اليوم .. تم اعتقالی .
- إذن أنت متمرّد ..
- أنا إنسان ضعيف غير قادر على التمرد .
- لو كنت قادراً لتمرّدت أليس كذلك ؟
- لا أقصد هذا .. ولكنني عبد فقير .
- أود الخلاصة .. هل أنت متمرّد ..
- لا .. لا ..
- سنرى ذلك بعد غرفة الانعاش .
- ولما دخل شيخ الزبالين غرفة الانعاش ثم خرج منها .. جلس مرة أخرى بين يدي المحقق .
- خاطبه الأخير قائلاً :
- أنت متمرّد .
- شيخ الزبالين : - هز برأسه إلى الأسفل .
- المحقق : - تعترف أنك قمت بمحاولة تفجير الحاجز .
- شيخ الزبالين : - (هز برأسه) .

المحقق : - انك تود الموت أليس كذلك . ؟
شيخ الزباليين : - (يهز رأسه إلى الأسفل) .
المحقق : - سأدعك تموت بسرعة لأنك مريض وتشكوا من التعب .
وفوراً .

أمر المحقق بإعدامه رمياً بالرصاص .
وتم ذلك بعد منتصف الليل ، ونقل شيخ الزباليين من مقر اقامته في
برج المر .. إلى حوض المقبرة المغتصة بالوافدين من ذلك البرج الشاخص .

الفصل التاسع

في العمق البارد الملهب الذي باتت الحياة فيه عاهرة لا تعرف الرجاء والحياة ، أسيرة في أغوار بوتقة الوجود المظلمة كان سواد الليل بعد السحر عملاقاً يشهد حرباً بين القدر وحليفه الزمن .

ففيه قد تاهت قبل قليل رحلة الشقاء في غياهب ذلك الغياب المنتظر ، لقد رحل الشيخ بعداباته وآلامه إلى ما بعد الروح وروحه مطمئنة شاكية ناجية ، قانطة بعد الهلاك والتعب بين يدي العدل في الديار العادلة ، لتحتل مكانها بالوراثة وتستوطن في هذا العمق القاهر المظلم جاهدة شاقة أدراجها عنيدة جائرة رحلة البدء والولادة ، تلك اليانعة التي أدركت عن كئيب أن الأشياء في هذا الوجود تنصهر انصهاراً مروعاً وتلف العناق حول أعناق الذين ما زالوا في عمر الورد براعم ما تفتحت بعد ..

وهل تفلت تلك البراعم من الانهيار وتسقط في القاع المرعب حتى الثمالة وتضيع أم أنها بالتمرد والعصيان ستحيا غصباً ذات يوم وتدفع بعجلة الأمان لأن تدور مرة أخرى بعد أن توقفت وأصابها الانكماش والغثيان .

فالخوف قد بدأ يطارد ساعاته الأولى ، ويلاحقها لاهثاً وها هو ذا يضطهد النفوس الطفلة ويذلها ويدفع بها اندفاعاً إلى دائرة الجوع ذلك المارد الذي سيطردها من حين إلى آخر للصقيع وهي ملتهبة هياجة ، ولم تكن قادرة على تحمل الخوف والجوع والصقيع معاً ، وبعد أن تصطك الأسنان ويكاد أن يتر رأس اللسان تستسلم النفوس طائعة بخنوع رهيب خنوع لا يدوم ، لا تتذكر ، لا يمكنها أن تتذكر ولكن عليها أن لا تنسى أبداً .

فها هي ذي التينة العجوز واقفة قد سلبها الخريف ما سلبها ، واهنة يقطى عارية لا تنام ، وحولها ما زال الوسيم وأخته ينتظران عودة الشيخ .. والشيخ ما عاد .

والحرب قائمة .. والجوع يدهم المعدة ، والبرد يجيء قارصاً ليدخل من مسامات الجلد والخوف لا يرحم ولكنه يطرد النعاس ويجيء مقنعاً ، متنكراً تارة في وحشة وسكون وتارة

أخرى في موجات صوت نباح كلب جائع ، أو عواء ذئب هرم ، وذاتها الأحرار⁽¹⁾ أسيرة خائفة مرعوبة .

ووحدها الذاكرة .. تلتهب وتلتهب وتزداد حرارتها .. فيتنامي الشعور بالألم ويكبر .. ويكبر ليعلن الوقت ذاته حالة الولادة .. وتبدأ رحلة الشقاء منذ طفولتها تواكب في سيرها سيرة كل حي يصرع ويسحق بل يمسح مسحاً ولا يموت في هذا الزمن العاهر .. لتظل تواكب ذاتها بذاتها إلى أن تلتحم بالتكوين ذات يوم لا بد آت وتجيء فيه الولادة المحقة طفلة تحيا في جسد هرم . ومرت ..

ومرت تلك الليلة بما حفلت ولما ارتفع الضحى التالي وقبل أن ينتصف النهار عزم الوسيم على الرحيل فراح يخطو برفقة أخته زهرة إلى حيث لا يدريان تاركين وراءهما أنقاض البيت الذي سقط وتحطم ونحياً في طياته جثة الفاضلة وذلك الماضي الطويل الصغير الذي غدا مطحوناً بما فيه .

والخطوة حائرة متعبة ها هي قد بدأت تلتهم من المسافة الواقعة بين المواطن المقتول وذلك القادم المجهول والدمعة خلاقة حرى في خلقها حزينة تقذفها العيون من مدامعها بمرارة ممزوجة بالبرق والحرارة ، ذلك البرق الذي تختفي وراء لمعانه وفيه صور الأمس الجميل وحفاوة تلك الابتسامات المسلوخة من صلبها بمرارة ..

ها هي زهرة مكسورة الخاطر تفر جائعة تعب من المواطن العارية الواهنة برفقة أخيها وهي لا تدري أي شيء .. وعيناها المتعبتان ما كفتا عن البكاء بعد .. والذهول يخطفها من لحظة إلى أخرى .. يخطفها تارة ويفر هارباً منها عندما كانت تشكو من التعب وتقسو آلام القدمين .

ها هي ذاهلة .. تسترسل أول خيوط الذكريات تلك المكتظة الحبيسة في ذاكرتها العذراء كما تكتظ النار في قلب التنور .. لتتذكر من تلك الأيام يوماً كانت فيه تفرح وتغني .. وتقلد الفاضلة في إعداد وجبة العجين لصناعة الخبز مقربة على وهج التنور .. وتضحك طويلاً ضحاكاً لم يشبه ضحك النار في قلب التنور ثم تداهما الغصة .. فيجف ريقها ومن جديد تجهش بالبكاء .

« لا تخافي .. لا تبكي .. لا تبكي يا زهرة » كذلك قال الوسيم والدمعة في عينيهِ حرى مرة .. والنهار واقف لا الضحك فيه ضحك ولا البكاء فيه بكاء .. والخطوة تبتلع من المسافة بعض أشيائها .

وزهرة ما زالت ذاهلة تتذكر .

يوماً كانت فيه تنعم برفقة أهلها داخل جدران البيت المتكسر المضيايف تفرح لمزاح الشيخ مع صعب على مائدة العشاء ..

ثم يوقظها الجوع من ذهلها هذا .. فتمد يدها تلمس بطنها .. الذي فيه وكأن الأمعاء تتقاتل وتتصارع ولحظات الجوع قد طالت .. والمسافة

(1) الأحرار : غابات من الصوبر وأشجار مختلفة

تطول .. وتطول .

وعلى حافة الطريق توقفا عن المسير ليستريحاً قليلاً .. فجلسا حائرين متعبين ولا سبيل للقمة ، والراحة في هذا المكان الذي بدا خالياً من كل شيء بالرغم من أن أجواءه كانت عابقة برائحة غريبة .. تشبه رائحة السردين يبعثها البحر ذلك الغاضب الآخرس .

وهنيئة من الوقت مرت .. فعزما من جديد على متابعة المسير ، والخطوة في سيرها تعبئة ثقيلة لكنها كانت تصبُّ على أن تقطع المسافات للبحث عن الماء واللقمة . وللبحث عن الشيخ الذي ما عاد منذ ليلة أمس .

وها هي الخطوة .. تتقدم لتداهم الحاجز الأول الذي وقف على عرض الطريق غير عابئة به ولا هو عالجها بها .

ثم داهمت الثاني .. والثالث والرابع وما تلاهم إلى أن وصلت إلى مشارف الحاجز العشرين حيث أصابت زهرة موجة عارمة من الخوف والارتباك معاً ، لقد تذكرت جيداً أنها قد صفت على وجهها هناك على مقربة من تلك البراميل الملونة الواقفة على يمين الحاجز .. يوم كانت برفقة والدها .

ولما وصلا إلى الحاجز استوقفهما على الفور الرجل المسلح قائلاً لها وبصوت أجش :

- إلى أين تذهبان ؟

أجابه الوسيم قائلاً وبخزن :

- إلى حيث لا ندري .

ولما بدا على زهرة أنها خائفة مرتبكة مرعوبة قال الرجل المسلح يخاطبها :

- ما بالك خائفة مرتبكة أيها الصغيرة ؟

وبعد أن نظرت إليه قالت بخوف :

« لقد دمر بيتنا وضاعت أمننا » وسكتت فأردفت راجية وهي تتلمس بيدها خدها الأيمن .

- ألن تصفعني على وجهي ؟

فسأها الرجل المسلح :

- ولماذا أصفعك على وجهك ؟

فسكتت ثم قالت : إذن دعنا نعبّر بسلام ونتابع سيرنا .

الرجل المسلح يضحك ساخراً ثم يقول :

- ولم لا .. هيا اعبرا بسلام .. هيا اعبرا وتابعنا سيركما إلى حيث تريدان .

وعبرا الحاجز العشرين وتابعنا سيرهما إلى حيث كانت بيروت ما زالت واقفة تجهش بالبكاء وتصرخ .

في تلك الأثناء أخبرت الأخت أنحاهما عما كان قد جرى لها ولوالدها على ذلك الحاجز صاحب الرقم العشرين ذات يوم غاب في عمر الزمان .

ومرت برهة من الوقت .. وها هما قد وصلا إلى مشارف بوابة العملاقة ببيروت الحزينة ..
لتنجى مسرعة وتنعش الصدور رائحة الخبز الفواحة القادمة من ذلك الخبز المتواضع الواقع على يمين
الطريق .. فهرعا إليه راَجين رغيف الخبز لمعدة جائعة وعندما دلفا إلى داخله ووجدا الرجل الخباز
منهمكاً يعد وجبة العجين .. توقفا مكتوفي الأيدي يملكهما خجل قصير .. وجاست عيناهما في
الخبز تارة وفي الخباز تارة أخرى .
لينطق الخباز قائلاً :

عذراً لا أستطيع اليوم بيع الخبز .. لأن الكمية كلّها محجوزة لرجال الأمر الناهى . ونتم
صعب قليلاً ثم قال بصوت خافت قوي غاضباً متوسلاً .
- أننا جائعان نود الخبز ولكننا لا نملك الدراهم .

وبدون أن ينبس الخباز بنبت شفة مد يده إلى « الطليبة التي وضعت فيها الأرغفة » وتناول رغيفاً
طازجاً وأعطاه لصعب .. ثم مرة أخرى قدم رغيفاً لزهرة .. وكرّر راكضاً إلى حيث العجانة الفولاذية
تدور وأخذ يتابع سير عمله والألم كامن في نفسه ، كان يدرك جيداً أن الجوع يداهم الأطفال
في هذه المدينة التي غدت بؤرة للبؤس والشقاء ..

في هذه اللحظات ذات القيمة تفرغ الصغيران لا يشغلها شغل عن التهام الخبز واجتهدا في
ذلك اجتهداً بالغاً لم يعرفه قاموس الجوع .. ثم طلبا من الخباز .. أن يمدّهما ببعض الماء .. فمدّهما
بإبريق الماء فشربا وشربا حتى ارتويا .. وما ارتوى الجسد لكن الظمأ قد ذهب ..
ثم أمرهما الخباز بالانصراف قائلاً :

- « هيا انصرفا إلى حيث جئتما .. هيا » فانصرفا .

ومن جديد بدأت الخطوة تطرد أختها وتبعث للأقدام تعباً .. إلى أن كفت عن المسير وأوى
صعب وأخته إلى شاطئ رملي تمتد طولاً وعرضاً على كتف البحر الغشوم فتمددا عليه ثم ارتحيا ..
ليداهما النوم فناما في الوقت الذي ما نام فيه دفء النهار .

وتعاقبت ساعات من النهار كانت الرمال في حينها فراشاً والسماء لحافاً ، وقيل أن يحيط المساء
في المعمورة استيقظا من نومهما خائفين .. وهرعا من جديد يتابعان المسير إلى عمق العملاقة ..
ذلك العمق البارد الملتهب . ففيها كانت الخطوات تجرف المسافات جرفاً وهي تعبئة تائهة حيرانة ،
والعيون تجوس في كل شيء وتترقب ولا تتأمل أبداً لكنها ما زالت تستقبل صوراً وتطرد صوراً ..
باقية مزروعة على الأرصفة وفي الشوارع وبين الحارات .. وحتى في الممرات الضيقة وعلى مرآة
الأضواء الخافتة الملونة التي كانت تطل خائفة من البيوت .. وفي الأصوات المتنوعة المفتتة المشتتة ..
وكل شيء في العمق يدوي ويصرخ يبحث عن القوت والمأوى والمأمن .

الأطفال قد أمرهم الساسة باستيطان الأرصفة .. تلك الأرصفة التي تزينها الحرب وتجميلها
الحوادث تجميلاً .

على الأرصفة نموء القطط جائعة ، والكلاب تنبح ، وفضلات الأشياء قد تراكت كباقات تزين
الشوارع .. المحفورة لينام ويتمدد حولها الأشقياء .. فقد يتعرضون لقذيفة تمزقهم أرباً .. وقد تنتهك
عذريتهم وقد يقتلهم فزع ووحشة الليل .. وقد .. وقد .. وقد .. وموسيقى الليل ذابحة تنجيء لحناً

من ألحان الموت الصاخبة .. يبعثها كل ما يجري في الكون ، صوت الريح والرصاص معاً ، ومن هناك صراخ يأتي من حيث يأتي صوت الموج .. إلى هنا حيث تصدر الأمعاء قرقرة .. والأنفاس تغدو لهاثاً .. ثم يدوي صوت انفجار يتبعه صراخ وحطام .. وركام .. لتعلو بعد حين أصوات أليفة أشبه بصوت الجنائز فهل سمعته من قبل !!
والأشياء تتكاثف تكاثفاً وطيداً لتضع صوراَ مأساوية غريبة في هذه العارية الجالسة في حضن الكون .. لتكبر فيها رحلة الانشقاق والتمزق وتكون الغلبة لمن غلب قسراً ويغدو الابتلاع هيمنة مقبولة ، كهيمنة السياسات الحاقدة على المغلوبين .

ومرت الليلة التالية كسابقتها بالفاقة والجوع ، عارية من كل شيء فما زالت السماء لحافاً للشقاء والرمال فراشاً ولا مهرب من المكتوب ..

وفي تلك العذابات والآلام التي كانت تتألى وتتعاظم بقسوتها ومرارتها لتتوارى أحداث تلك الليلة مستهزئة بالشقاء ثم يأتي النهار التالي كسابقه مزاحماً الشقاء بشقائه ، وعلى أعتاب نصفه الآخر حيث كانت الشمس واهنة تطل وتغيب ولا تختفي ، كان صعب وأخته قد دلفا بعشوائية المتشرد داخلين إلى عمق وأغوار سوق الخضرة المزدهم بالناس والعربات والخضرة ذلك الذي يطفح بآمال وآلام المضطهدين .

وفي مغاصه .. وأغواره غاص الوسم وأخته في زحمة الجموع الغفيرة ليشاء القدر حينذاك ويفرق شملهما فتتوه الأخت عن أخيها عندما هرع الناس يتفرقون خائفين مسرعين هاربين من ويلات قبلة انفجرت في إحدى الحانات داخل السوق في ذلك الوقت علا صوت صعب يصرخ ويدوي مصروعاً مرعوباً ، منادياً أخته قائلاً :

يا .. يا .. زهرة .. يا زهرة أين أنت .. أختاه أين عني قد تهت .

وعيناه المتعبتان اجتمعتا في البحث يمينا وشمالا .. وزهرة في الطريق المعاكس المؤدي لوجه البحر ما زالت تمشي باكية خائفة وهي تلتفت يمنة ويسرة باحثة عن أخيها ، ولا جدوى .. فلقد تاهت عنه في وسط الزحام كما يتوه كل شيء ويتفرق ويتمزق في زحمة هذه الحرب التي حطت بأثقالها وأوزارها على جسد العملاقة بيروت .. وحالة الاغتراب كانت تسير الساعات التي أخذت تتألى من عمر الوقت .. فازداد الخوف وكبر الألم وتفاقمت الحالة إلى أسوأ ، وزهرة دائبة تمشي في الطرقات المقتولة مذبوحة مسلوقة تبحث عن رفيق دربها وعيناها ما كفت عن البكاء .. والبحث هنا وهناك في الأشياء وحول البقايا وعند أول المفترقات ، ما زالت تجوس في بصرها وذهنها وعقلها .. في الركن وفي الروايا ليظل الدهول رقيقاً أنيساً .

والدمعة .. مالحة مرة .. فأين تذهب وماذا تفعل وكيف يمكنها أن تلتقي برفيق دربها قبل أن تداهما وحشة الليل .. فتداهما كورنيش البحر .

« خائفة أنا .. خائفة .. خائفة » كذلك قالت في سريرتها قبل أن يضحك لها القدر .. وتمر مصادفة مقهى البحر شاردة .. واستفاقت لقد عرفته جيداً أنه ذلك المقهى الصغير الذي التهمت فيه الحلوى ذات يوم .. وهرعت إليه كفراشة هائمة .. راجية أن ترى في داخله الشيخ الذي ما

عاد للبيت ولم تفلح في ذلك لقد وجدت حكيماً .. الذي كان ينظف ويغسل استعداداً للرحيل ..
وعلى الفور هرعت إليه باكية شاكية لينطق مذعوراً مدهوشاً ويقول مخاطبها : « من .. من ..
زهرة .. ابنة الشيخ !! من جاء بك إلى هنا وأين شيخنا » ؟
ولما اشتدت بها حالة البكاء .. أردف . مخاطبها برقة وحنان .
- يا بنتي .. هدي من روعك قليلاً .. ودعيني أفهم منك علام تبكين .. ماذا حصل ؟ ..
تعالى ادخلي واجلسي على هذا الكرسي الصغير .
ولما جلست .. قدم لها كوباً من الشاي ومكث على مقربة منها يسمع منها ما قد حل بها وبأبائها
وبأبيها وبأخيها وتألم كثيراً .. ثم مد يده ليمسح من على خدها الدموع التي تحدرت .
ثم ضمها إلى صدره ليرعاها من وحشة هذا الزمن منذ ذلك الحين وأخذها معه إلى بيته لتعيش
في كنف عائلته في بيت متواضع فقير ..
وأخذ الزمان يمشي في طريقه المرسوم فتداركت الأيام وتتابع .

الفصل العاشر

تحت أجنحة الليل وبين ثنايا أساريه الشاحبة ، في داخل مقبرة المدينة المنتهكة المسروقة وعلى مرآة نصف قمر خريفي باهت .. كانت العملاقة الصابرة تشهد في صلبها مشهداً عملاقاً تقوم في إحيائه ببراءة واتقان تلك الطفولة الموجوعة المتمردة التي غدت وهي متحالفة ومتكاثفة كيانا يخيف ويرعب وسيرعب بعد حين .

فها هو ذا فريق من صبية أشقياء .. هم ذلك الزبد الذي أفرزته وطرحته عفونة الحرب النتننة ، قد جاؤوا .. متفقيين متحالفين مع هذا الليل الخريفي ليدخلوا المقبرة الكبيرة دون حائل غير خائفين ليشكلوا أغرب وأخطر حملة مدهامة عرفها ليل بيروت .

ها هم أولاء جميعاً قد دلفوا إلى قلب المقبرة الكبيرة بمن فيهم الوسيم الذي كان قد انخرط في صفوفهم منذ عدة أسابيع يأكل من أكلهم ويشرب من مشربهم وها هو اليوم يرافقهم في حملتهم الشنيعة ومسلحهم .

ها هم الصبية جميعاً قد داهموا المقبرة لينتهكوا حرمة القبور المتمددة الراقدة الساكنة ويدحروها دحراً دون أن تقشعر أبدانهم ودون خوف أو مبالاة ..

ها هم يكسرون القبور بما حملت أيديهم تكسيراً ، وينبشون في عمقها نبشاً ويبحثون عن الجماجم البشرية الباقية في أجساد الموتى ليجمعوها الواحدة تلو الأخرى .

وصعب المسكين يحدق بعينيه جافلاً مستغرباً مشمئزاً قد أصابته قشعريرة رافقتها رجفة شديدة في أطرافه ثم تتمم مذعوراً ليقول في سريره وهو يتمعن برؤية ما يفعله الصبيان :

« ما أبشع هذا .. ما أبشع ما يفعلون .. ما أبشع هذا .. وحوش .. و .. » ثم يصرخ صراخاً حقيقياً لن تسمعه تلك الهياكل الراقدة منذ دهور .. فيفر هارباً متعثراً بين القبور .. ويغادر المقبرة إلى الشوارع وحيداً في هذا الليل المسعور .. المسعور ..

وقبل أن يهرع الليل هارباً يغادر الصبية قلب المقبرة غانمين بالجماجم العديدة فرحين بفعلتهم قاصدين بيت المعلم زاكي ذاك العجوز البشع الكرنيب ليعطوه ما حملت أياديهم ..

فيمدهم ببعض الليرات بعد أن يأخذ الجماجم مسروراً وبعد أن يتفحصها ويتمحصها ليهرع هؤلاء الأشقياء الذئاب إلى ممارسة لعبة « الفيلير » التي لا تتوقف في ليل أو نهار بهذه المدينة الأعجوبة .

وطلّ الفجر سادياً ماوردياً بارداً ، ثم طلّ النهار صورياً شتوياً مطراً جاءت مياهه لتطهر ما قد تدنس وتلوث ، وجاءت لتعيد حفنات التراب إلى مواضعها في المقبرة المسروقة وتطمر عظاماً قد تبعثت هنا وهناك ..

وأخذ المطر ينهمر بلا توقف لقد جاء بعد عام ليغسل جسد المعذبة الملطخ بالقدارات وها هو قد بلل رأس صعب لتنساب ذوائب شعره من على جبينه العريض ثم تتبلل ثيابه ويتسرب عبرها ماء المطر فيلامس مسامات الجلد وتلامسه قشعريرة أحيائها الباردة .
والبرد قد عم المكان وحطت أشياؤه على الجسد الغض الصغير لترتجف أطرافه وتضطرب الأسنان فيحمرّ خد ويصفر الآخر .. وتارة يشعر الوسيم بأنه قد تجمد من شدة الصقيع أو أن أنفه قد سقط . وما انكتمت الأنفاس بعد .

ولما اشتدت حالة الصقيع وازداد انهيار المطر وبدا البريق في السماء مضطرباً خاطفاً والرعد غاضباً غير ساكت وصفير الريح يدوي لعواء العاصفة ويشكو .

ووحدها الشوارع قد أفلحت واستسلمت فخلت من المارة ليقوم الثلج بثورته البيضاء ويحتل ببياضه كل سفح وقاع في الأصقاع . لقد جاء محملاً على أكتاف الريح الباردة القادمة من عمق الشمال وانتصرت ثورة الثلج فغمرت وقتلت عفونة الحرب وغطت جسد العملاقة الصابرة حتى بدت الأخيرة وكأنها حورية بيضاء لكنها ما فرحت فرح الحوريات ما زال الهدوء فيها غائباً .. وصوت الريح عاصفاً والنفس تواقاً للدفع والمأوى تنتابها حيرة تتخبط لذاتها بذاتها .

والوسيم حائر لا يدري ماذا يفعل ليجد ويستهدي طريقاً إلى الخلاص .. ليقول في سريره مقهوراً بهمس وخنوع راجياً .. شاكياً وعيناه تدمعان وتشكون مخاطباً الجلالة :

- أين مني يا رباه الدفع والمأوى .. والبرد يحتلني ويودّ أن يكتم أنفاسي ويخنقني .. أين أذهب والشوارع حافية .. لقد سئمتها وطال فيها عذابي وانتظاري ..

رباه .. أتوسل إليك خلصني .

رباه .. أناديك فأجبني .. وليتك من حياتي تعفيني ..

فرباه .. خلصني .. وخلصني .

وبعد ذلك أخذ يمشي ويتابع سيره في الشوارع الخالية ، كسلان قد أضناه التعب جاهداً .. ما زال يبحث عن مكان ينزوي فيه ليقية من ويلات الرياح الثلجية ..

وها هو قد أوى أخيراً إلى مدخل مبنى ضخم وقف في منطقة المنارة يطل معانداً وجه البحر الغاضب .

وعندما دلف من البوابة الحديدية إلى داخل المبنى خار جسمه وسقط متمدداً بشيابه المبللة على بلاطات عريضة كانت أشد برودة .. ليجيء الخلاص مسعفاً ..

فتتوقف في هذه الأثناء وعلى مشارف بوابة المبنى سيارة صغيرة لتهرع منها مسرعة امرأة قد

لفت رأسها بشال زهري .. ولما دخلت من البوابة جعلت تنظر إلى ذلك الصغير المتمدد كالقنديل على البلاطات في بهو المدخل فأسرعت إليه لتنقذه وبعد أن ارتبكت قليلاً تمكنت من نقله فحملته وصعدت به إلى بيتها وفي البيت ..

ودون أن تتمعن بتفاصيل وجهه الذي بدا شاحباً مصفراً ، أخذت تخلع من على جسمه ثيابه القدرة المبلة .. لتلفه بحرام صوفي وتسرع لتوقد نار الموقد .

وما هي إلا لحظات حتى فاحت في أجواء البيت رائحة الحطب وأخذت تنتشر سريعاً كالبخور انتشاراً ليختلط الدفء بالأنفاس ونحيء الحرارة تلك التي ما انتشى فيها ذلك الملفوف بالحرام الصوفي وما زال غائباً تسرقه غيبوبة ما .

ووحدها الخيرة قد ملكت الحورائية بعد أن احتلها اضطراب وقلق على حالة الصغير إلى أن اهتدت لاسعافه وادركت انه بحاجة ماسة إلى النوم .. فحملته إلى غرفة نومها جاهدة فرحة لتضعه على سريرها العريض .. بعد أن لحفته جيداً كمن يحكم أوتاد خيمة تصارعها الريح في الخلاء الموحش . وبعد العناية الطويل غاص الوسيم ببحر النوم طويلاً .. وخرجت السيدة تذرع الغرفة المحتفية بنار الموقد جيئة وذهوباً .

وكرة أخرى هرعت لتدخل إلى غرفة نومها ، وأمام السرير وقفت تواقفة تتأمل بشدة ذلك الراقد المتمدد على سريرها فأصابها نشوة غريبة واحساس جميل دافئ فابتسمت ابتسامة عاقرة مثلها ابتسامة المحرومة من انجاب الأطفال .

ومن جديد وإلى حيث وقف الموقد هرعت وفرحتها ما هرعت من أعماقها ، وعلى مقربة منه جلست شاردة ذاهلة ، لقد أسكرها منظر النار وهي تتأجج وطوعها ذلك لتطوف في ذلك الماضي البعيد .. الغائب دون أن تختار منه ما يناسبها ويسعدها .. فتذكرت زوجها رفيق دربها .. وأختها ، وكم تذكرت من أعباء ذلك الزمان الذي قد ولّى وما غاب . وتنهدت طويلاً .. وتذكرت ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنها لا تنجب الأطفال .. يوماً ماتت فيه أحلامها وظلت لها الأشجان .

وأبحرت في غمار بحر الذاكرة .. ووحدها النفس ترغمها على الغوص كثيراً في كهوف الذكريات وشيئاً فشيئاً كانت النار في الموقد تتنفس من بريق عينيها والعين شاردة ذاهلة بذلك اليوم الذي انقطعت فيه إثر التقسيم والحصار عن الذهاب إلى « دير الصليب » .. فتنهدت .. مراراً وعاد الذهول ليخطفها .. فتذكرت يوماً اشتغلت فيه بمشفى الجامعة .

ونار الموقد على غرار أعماقنا ما زالت تلتهب وتغرغر .. فتغرغر لها العواطف تلك التي ما أنحدها ولن يحمدنها الرماد .

وكرة أخرى .. انتفضت من جلستها تاركة قعدتها لتذرع الغرفة جيئة وذهوباً ثم وقفت وراء النافذة بعد أن ازاحت عن وجهها الستارة فطلّ وجه البحر غشوماً .. ورذاذات الثلج جاءت متصارعة متضاربة خلافة لتلامس زجاج النافذة وكأنها تود أن تدخل لتنتحر في الدفء على مرآة نار الموقد .

وهنيئة من الوقت مرت فعاتت . بعدها متسللة تاركة وجه البحر ووجه النافذة لتدخل

إلى غرفة نومها وتتأمل وجه الوسيم النائم ودونما استئذان داهمها النعاس فخنعت إليه طائعة حيث أسرعت لتفترش لها على يمين السرير فراشا .. ولما فعلت . عليه تمددت متراخية متعبة معلنة استسلامها للنوم فنامت حتى انتشى صدر الكون بظلمة الليل .

ولما فرش الأخير فراشه في الرحاب استيقظت حورائية العينين من نومها ، تملكها نشوة غريبة رائعة منعته الليلة من الذهاب إلى المشفى وحذت أن تبقى في البيت لأجل ضيفها الصغير .. ثم هرعت إلى الحمام واغتسلت ثم خرجت ومن جديد دخلت مطبخ البيت لتعد مائدة العشاء . وبرهة من الوقت تجري لتسرق أختها .. وكأن اللحظات تنتظر أن تقام مائدة العشاء .

وها هي أوديت الرائعة قد جلست وادعة برفقة الوسيم بعد أن ايقظته من نومه حول المائدة المغمورة بما لذ وطاب ليتناولوا وجبة طعام العشاء .
والوسيم جافل مذهوش كفراشة هائمة .. شيء غريب .. الدفء حوله والطعام اللذيذ وسيدة رائعة وحنونة ..

ها هي ذي قد قطعت الخبز .. ومدته ببعضه قائلة له :
- هيا يا صغيري تفضل وتناول طعامك ، فأنت بحاجة إلى الغذاء .. هيا .. لا تخجل فالبيت بيتك . وبصمت وبدون أن ينبس صعب بينت شفه مد يده وبدأ يلتهم الطعام يملكه الخجل الشديد حيث قالت أوديت مخاطبة إياه :

- سأقدم لك فيما بعد كساءً جميلاً .
وبدأ الحديث يسترسل بأول خيوطه بينهما بين استفسار وجواب . السيدة متسائلة تخاطب الوسيم قائلة :

- من أنت ؟ وأين أهلك ؟ ما اسمك ومن أين تراك قد جئت ؟
أجابها صعب بصوت خافت يملكه حزن عميق قائلاً :
- أنا طفل مبعثر الملامح .. بعثرته الحرب الظلمة وفي اشلائه توغلت وما تاهت .
في هذه الأثناء توقفت السيدة عن تناول لقمة طعام بيدها كان سيفوز بها فمها .. مستغربة متأثرة .. مندهشة على ما قاله لترد قائلة :
- تابع .. يا صغيري .. تكلم .

وأردف الوسيم قائلاً :
- أما عن أهلي فأني هؤلاء الأهل .. لا أهل لي .. لقد ذهبوا وولت السنين معهم .
وران الصمت فجاءت تهيدة قصيرة .. لن تطول .. ثم أردف القول من جديد :
- وأما عن اسمي فقد جاء يوماً من بيتي المدمر الواقف على أكتاف مدينتي ركاماً في حضن الأحراش .. من هناك .. جاء .. من حيث ذات مرة كنت قد ظلمت وسحقت وقتلت .
فأنا الصغير ذلك الذي ينتمي إليه الزمان الصعب .. فاسمي صعب يا سيدتي .
» .. ماذا .. صعب .. صعب « كذلك ، قالت أوديت بتعجب .
صعب : اسم غريب .. وليس جميلاً ولكنني أحبه كثيراً .

أوديت : لا .. لا تقل هذا فاسمك جميل جدا ولكني تذكرت فيه الشيخ الطيب .
صعب : ومن يكون ذلك الشيخ ؟
أوديت : انه عامل التنظيفات في الدير الذي كنت أعمل به منذ سنين .. إنه شيخ
الزبالين .

وكالبركان انتفض الوسيم مذعوراً .. قائلاً بشغف شديد :

- أتعرفين أين هو الآن ؟

أوديت مستغربة قالت :

- وما بالك تبدو كالمدعور .

صعب وبلهفة قال راجياً :

- أتعرفين أين هو الآن ؟

أوديت : وهل يخصك الشيخ .

صعب : بفرح وحزن معاً قال :

- أنه أبي .. أبي الذي ما عاد منذ ذلك اليوم .

أوديت وبعد أن ملكها الذهول قليلاً قالت تخاطبه وهو ما زال يحرق بعينها وينتظر أن تنطق :

- إذن أنت الصغير الذي شرب في مكتبي عصيره الليمون .. ياه .. ياه .. لقد خانتني

الذاكرة . وعلى الفور ضمته إلى صدرها فأجهش الصغير بالبكاء .

ومن جديد قال مستفسراً برجاء خائف :

- هل تعرفين أين هو الآن .. هل تدليني عليه .

أوديت : « سأبحث لك عنه .. اهدأ قليلاً ودعني أفهم منك .. ولكن عليك أن تأكل الآن ثم تدعيني

أفهم منك ما قد حدث لك على وجه التحديد .. وكف عن البكاء أرجوك » .

وما كف صعب عن البكاء .. لكنه بات الليلة يسرد للسيدة ما قد حدث

له وأصابه .. كثير الكلام والشجون معاً .

ومرت تلك الليلة .. ثم تالت الليالي وتواردت الأسابيع .. وأوديت خلالها جاهدة تبحث هنا ..

وهناك عن الشيخ الذي ما عاد .. ولا محال ..

ثم عزمته بعد حين على أن يتعلم الصغير .. ثم ألحقته بالمدرسة الابتدائية الكائنة في

المنطقة .. ليدرك ما فاته من تعليم وبيان ، لما أدركت جيداً أن صعب يميل إلى ذلك بشدة ..

وما مرّ يوم إلا وكان اهتمامها البالغ بصعب يكبر ويزداد .. فتهتم بأكله وكسائه

وبمتابعة دروسه .. وحتى بأبسط ما يتعلق بأمور تربيته .. وكم مرت عليها ساعات طويلة وهي

تمكث إلى جانبه وتلقنه من العلوم ما استطاعت حتى غدا يافعاً .. يافعاً قوياً في مسلكه متفوقاً

في مدرسته سعيدياً في كنف الرائعة أوديت التي ما عادت بدورها تحيا في وحشة واكتئاب منذ أن

احتفت بتربية صعب لكنها كانت تتألم وتخاف كثيراً من أن تدهمها ويلات الحرب فتبتلع سعادتها

ويضيع كل شيء .. وويلات الحرب قد ظلت موحشة فتاكة وقاتلة في العمق البارد الملتهب ..

وتدرجت الحوادث بعد ذلك في كفن النسيان .

الفصل الحادى عشر

نفس مشتاقة ولهانة ووحده الحنين يظل ذابحها ومسكرها .. تضطرب ببطء ولا تحكي وتتألم كثيراً فتصبر على الوجد ولا تشكو .. وتكاد تنفجر فتحقد على الظلام ولا تبكي ، لكنها تخضع في لحظة ضعف منسية فتأمر الذاكرة .. تطالبها وتجبرها على العودة إلى أدراجها الأولى ، وبعد أن تخضعها بالقوة قسراً تخضع هي إلى ما تسترسله الذاكرة من صور . والصور تجيء ممسوخة فاترة المنظر ، مسلوخة كعلامة ليفاعة قد طلت حية ذات مرة . ثم تتأجج العواطف وتسقط مدارك العقل فجأة فيضطرب الدماغ ، اضطراباً شديداً عندها يزوغ البصر فتجيء الدمعة وكأنها قادمة من بركان .. ملؤها شوق وحنين ومن دون بكاء ..

ويتحرك الجسم متعباً مضمناً وكأن شيئاً ما يجذبه أو يود اللقاء به .. فتتفق الحواس جميعها على أن يقوم اللقاء بعد عدة لحظات خلالها سيدلف صاحب هذه النفس المعذبة إلى منطقة البيوت المحطمة الواقعة بتمرد المطلة على الأحراش .. سيدلف بعد لحظات إلى أدراجها الأولى حيث سلبت منه طفولته وضاعت أمه بكل ما كانت قد ملكت لها وله .

ولما دلف فرحاً حزيناً إلى حيث عاشت زهرة ذات مرة وترعرعت طفولته .. كان ولهاناً مشتاقاً إلى أطلالها .. وها هو قد وجدها ما زالت واقفة ثمارها تالفة وكأنها الحياة .. وبعد أن لف بيديه نصف جذعها وعانقها عناقاً طويلاً خاطبها قائلاً بهمس وخنوع :
يا أنت يا رفيقة .

ها أنا قد عدت إليك بعد كل هذه السنين الحافية .
رفيقتي .. يا أيتها العجوز الشاهدة على مصرع طفولتي الطيبة .
كيف حالك .. وكيف حال فاضلتني في ثراها الغالية .
يا رجائي .. يا أيتها الحميمة المنسية ..
هل مازلت تذكرين في بيتنا الممسوح من حياتنا منذ فجر الأذية .

.. فما بالي أراك صامته شجية .
يا مدركة .. بدئي وميلاد أحزاني الفتية .
أسألك .. هل عاد للديار شيخي .. في زمن خفية .
ما عاد .. ما عاد شيخي .
ومثله ضاعت زهرتي .. لقد تاهت على أعتاب مدينتي .
فاه إليك يا باسقتي ألفظها .. والآه باتت حيرانة تلفظني .
وأنت يا رفيقتي .
بت كهيبة بكماء .. فمن بعدك أحاكبه ليسامرنى .
من بعدك يطفئ ما في صدري .. من .. من يخمد ناري .
آه شكواي .. ادركت أنك تالفة .. تالفة مثلي ..

وشجرة التين العنيدة ما نطقت أبداً . فغادرها الشاب الوسيم متألماً كهيلاً تجره الخطوات إلى
ذلك المكان القريب الذي قام عليه يوماً بيت أبي زهرة .. ولما وصله ما وجد حتى حطامه
وركامه .. فجثا على ركبتيه بخشوع الواهنيين لثوان معدودات خطفت ذاتها من ذاتها لتفر هاربة
من عمر الوقت .. وبعدها جلس القرفصاء طويلاً لتمتد إحدى يديه ، وتبعثر من حوله حفنات
من التراب .. وجعل كثيراً يحرق في المكان ويتأمل بهشدة ليخاطب مثنوى أمه الضائع هنا ..
قائلاً راجياً بلهجة الرؤوف الناقم :

أماه ..
أماه من قال أنني إليك غير مشتاق قد ذبت والله من حنيني وأشواقني
أسألك بعد أن فرت بعهد الصبا .. فهيا اعلميني وعن لغز الزمان كلميني .
أماه ..
من بدل فرحي بكاء .. من ذا الذي اعتقل حياتي وأمات في أشجاني .
من أسكت صوتي وللهلاك الفظيع قد رمانى .
من جعلني أصدق أن في حنجرتي صوتاً يكمن فيه نباحي .
أماه ..
من دمر مملكة وجداني وإحساسي .
من ذا الذي أسقط عرش أحلامي .

أماه ..
أسألك .. بعد أن فزت بعهد شبابي .. فزاد غضبي وتفاقم اضطرابي .
من بعثر .. طفولتي وقطع رأس لساني ..
من بالسكات الموحش مدني فأسكتني .

من بدل وجه مدينتي .
من هو ذابحي .. وجلادي .

أماه .. من ضيع قصة زهرتي وشيخي وودادي .
أماه .. عذراً لن تضيع بعد اليوم أفراحي وحياتي .
قد انسى بعد حين وأبدل ميلاد الود بميلاد طغياني .
وأصير أنا الولد الطاغي جلاداً ساقوى على جلادي ..
عندها لن أرضى أبداً أن يضيع منك الزمان ويحيا .. مصرعي وكذلك تحيا مأساتي .
قد انسى بعد حين وأبدل ودادي .. وأبدل ودادي .
وبعد ..

سكت سكوتاً طويلاً ثم بدأ يفتش في ذاكرته المرحومة عن حقيقة يودها أن تظهر وتلمع بعد أن طمرتها السنين .. كالذي ينقب في منطقة أثرية مغمورة عن معالم مطمورة تدله على الأمس البعيد .. والذاكرة نشطة للغاية طائعة ومجبرة على العودة إلى أيامها الأولى حيث بدأت .. منذ اللحظة تفرز الصور المختصة في مخزونها بعضها عن بعض لتفوز وتفلح بما أمرت به فأرسلت لصاحبها صوراً التقطتها في ذلك الماضي البعيد القريب فجاءت الصور تباعاً .. مرةً مرةً ومرةً مرةً .
الصورة الأولى .. هي وليدة قد جاءت من ذلك المساء البعيد ..

« بالضبط بعد العشية يوم قرع باب البيت بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهله جميعاً هؤلاء الذين كانوا يشكلون نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء .. يومها استغربت زهرة وأمها واندهشت .. فطلّ الضيف ودلف إلى البيت خائفاً مستنجداً .. ولما جلس حول مائدة العشاء طلب الماء .. فنأوله إياه صعب قائلاً له : هاك الماء يا عم هاك الماء يا عم » .

أما الصورة الثانية فهي من صباح اليوم التالي ، (يوم جلس أهل البيت بمن فيهم الضيف على مائدة الافطار فقال الضيف يخاطب صعب قائلاً : قبل أن يغادر ويرحل « أما أنت يا صغيري فأتمنى لك أن تذهب إلى المدرسة .. وتأكد أن الزمن القادم سيكون لك .. ولكل أبناء جيلك ، كما أنني لاحظت عليك أنك تود أن تطلع على هذه الأوراق وعلى هذا الكتاب الأخضر .. ولكن ماذا أقول لك وأنت ما تعلمت القراءة والكتابة بعد .. لكنني سأمنحك هذا الكتاب لعله يكون مني إليك ذكرى ولربما تستفيد منه ذات يوم .. هيا .. خذه .. خذه » فأخذه فرحاً) .
والشاب يتذكر .. ويتذكر .

وهذه هي الصورة الثالثة قد جاءت من نفس اليوم « عندما هرع صعب ليقف على رأس التلة القريبة من البيت المطلة على الأحراش ليتربق رحيل الضيف وهو يشق طريقه عبر الأحراش .. ولما اختفى في عمق الأحراش سمع صعب صوت الرصاص الذي أخذ يدوي » .
... وجاءت الصورة الرابعة بدون جهد أو عناء .. لأنها محفورة بقوة في ذاكرة صعب وتقول الصورة ..

« أخرجني وإلا سنهدم البيت فوق رأسك .

أم زهرة : لن أخرج من بيتي أبداً .
أحد الرجال قال مستهزئاً : « ولم لا .. لا تخرجي .. لا تخرجي » ..
في تلك الأثناء انتزع الرجل صعب وأخته من حول أمهما ورمهما خارج البيت وأمر قائد الجرافة
بتحطيم البيت ، فسقط البيت وضاعت في أحضان أمه على مرآة عين الطفولة وهي تبكي وتشكو .
هذه الصورة .. أوقفت الذاكرة عن الإرسال حيث بدأ الشاب يشكو من آلام في رأسه
فقال هامساً يخاطب مثنوى أمه ..

.. لنفترق الآن يا حبيبة .. لقد أدركت ما أردت ..
لقد أدركت ما أردت ..
فعهداً إليك أرميه وأقول ..
لن يضيع حقي .. لن يضيع أبداً .

ثم فر عائداً إلى البيت .. وهو يتمتم في سريره قائلاً :
الضيف .. الكتاب الأخضر ..
الضيف .. الكتاب الأخضر ..
الضيف .. الكتاب الأخضر .. لقد أدركت ما أريد .. لقد أدركت ما أريد .

وفي البيت . ولما جلس برفقة أمه أوديت على مائدة العشاء بدا عليه القلق الشديد .. ذلك القلق
أثار الخوف في أعماق مربيته فاضطربت لهذا كثيراً فخاطبته برقة ولين قائلة :
- ما بالك قلق يا ولدي .

أجابها بحماس لم تره فيه من قبل .
- أود أن أعرف هوية ذابحي وجلادي .
أردفت أوديت قائلة باستغراب شديد .
- ماذا .. ماذا .

صعب : - أنا مصر على ذلك فلا تقلقي يا أمي .
أوديت : - أين كنت اليوم طوال النهار .
- لقد زرت رفيقتي .. وزرت مثنوى فاضلتي ..
- هديء من روعك قليلاً وانس ما تفكر به لأن ذابحك هو ذابحي وجلادك
هو جلادي .. أنها .. الطائفية يا ولدي .

صعب : لا .. لا .. لا .. السر يكمن بالكتاب الأخضر وبهوية ذلك الضيف .
أوديت مندهشة قالت : ماذا الكتاب الأخضر .. ماذا تقصد .. أي كتاب هذا ؟
صعب : ذلك الذي من أجله فقدت أنا كل شيء .
أوديت : أتقصد كتاب القذافي .
صعب : ومن هو القذافي ..

أوديت : أنه مفجر عصر الجماهير.. قائد ثورة الفاتح في ليبيا .
صعب : ماذا عصر الجماهير .. هل تصدقين هذا .
أوديت : انها التجربة .. حقيقة أثبتتها القذافي .. فالعصر انبثق فجره فعلاً
والزحف قائم ومستمر .
صعب : هل يمكنك أن تصفي لي الكتاب .
أوديت : كتاب أخضر انفرد بعلامة مذهبة هي نصف الشمس تقريباً في هذه
باب صعباً ذهول ما .. جاءه خاطفاً .. ليتذكر اليوم الذي حصل فيه على الكتاب .. ولما
ذاكرة بوصفه .. تأكد من صحة ما تقوله أوديت فالكتاب قد انفرد باللون الأخضر وبعلامة
بي نصف الشمس تقريباً حيث أخذ يقول بلهفة المستغيث .
مي .. امكنني أن أعثر على ذلك الكتاب .
سامية عريضة قالت أوديت : أظن أنه من السهل عليّ أن أجلبه لك غداً .. بالرغم من
له ممنوع .. ولكن قل لي ما قصة هذا الكتاب ولماذا كتاب القذافي فجأة .
أجابها صعب قائلاً : لأنه سيرفني بهوية ذابحي وجلادي .
قائلة : « يا خوفي .. يا خوفي » ثم سكنت .
صعب : ومم الخوف يا أمي ؟
أوديت : من حماسك هذا .. ومن الغد المخيف .
صعب : اطمئني فالغد لنا .. الغد لنا .. نعم لقد أكد لي الضيف ذلك وأنا
أتذكر ما قاله لي قبل رحيله .
أندرين ما قاله قال : تأكد أن الزمن القادم سيكون لك ولكل أبناء جيلك .
نعم .. نعم يا أمي سيكون الزمن لنا .. لنا جميعاً .
أوديت : بحق الله .. اسرد لي قصة تتعبك بطلها الضيف وسرها يكمن في
الأخضر .. هيا .
فبدأ يسرد لها ما حدث له ذات يوم قائلاً :
« ... بالضبط بعد العشية يوم قرع باب بيتنا بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهل البيت جميعاً ..
كنا نشكل نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء .. يومها استغربت زهرة وأمي اندهشت
طلّ الضيف ودلف إلى البيت خائفاً مستنجداً .. ولما جلس على مائدة العشاء طلب الماء
أنا لإبريق الماء » .
.. وأوديت قد اندمجت تماماً بما يسرده .. وكم تأملت عليه .. ثم تواردت ساعات تلك
. وجاء اليوم التالي وفيه كان صعب ينتظر بفارغ الصبر عودة مريته التي ستفي بكل تأكيد
ت .. ولما عادت .. بابتسامتها المعروفة مدت يدها وتناولت من حقيبتها الكتاب الأخضر
الحجم .. فهب الوسيم فرحاً وأخذ الكتاب لتنتابه على الفور موجة من الصمت الطويل ..
تلمسه جيداً وتأكد من تلك العلامة الواقعة كنصف دائرة مذهبة تزين وجهه الأخضر ..
وقال مخاطباً : أنه هو نفس الكتاب الذي أخذته ذات مرة من الضيف

أنه هو نفس الكتاب .. فشكراً لك يا أمي .. شكراً لك يا أمي .
فابتسمت المربية وانصرفت إلى غرفتها لتبدل ثيابها .. وانصرف الوسيم بكل ما ملك لقراءة ذلك الكتاب .

واستغرق في طياته .. طويلاً ليمر الوقت خفية فيبتلع النهار ويغرق في كنف الليل فتغرق برفقته بيروت المذبوحة وكذلك أوديت .. ولا يفرق العنيد الذي ما زال مستغرقاً في طيات الكتاب الأخضر يبحث فيه عن هوية الطغيان ليسقطه بعد حين .

فها هو الشاب يستغرب ويتعجب ويتألم فيتمتع .. وعلام هذا الخليط .. علام هذا الخليط !!
فهل هناك في الأعماق الإنسانية علاقة وطيدة بين المتعة والاستغراب .. هل المسافة قريبة بين الألم والتعجب .. عدة تساؤلات حضرته وهو يتابع القراءة ويغوص فيما وراء السطور ليحيي النعاس مداهاً ومسعفاً للبصر والدماغ فيستسلم الجسم للنوم بعد أن تكون قد احترقت الأعصاب .. وثورة الوقت تتقدم لتبتلع عمر الأشياء فتبدل الألوان بألوان كما يروق لها .. وكما هي ترغب ما دامت هي سيدة الانتصار وصاحبة القرار .. وفجأة يشع الفجر في صدر الوجود يود أن ينارها ويتعبها بعد أن أسقطت سلطان السحر .. ورويداً .. رويداً تتقدم فتحرق كل ألوانه وتدحره دحراً ثم يطل الضحى خائفاً مستسلماً فتعصف فيه وتقف مبهورة حائرة وخائفة أمام يقظة الصبح التي تحالفت وتكاتف مع يقظة الشمس ويقظة النهار والناس وبيروت نائمة في سبات عميق ..
وها هو ذا قد استيقظ الوسيم باكراً وكذلك أوديت والحديث على مائدة الافطار الذي بدا يقظاناً متفتحاً ذا آفاق بعيدة وواسعة الرحاب .

« أعتقد أنك قد تمتعت بالفكر الأخضر .. أو على الأقل غرفت منه ما كفاك لليلة أمس » ..
كذلك قالت أوديت للوسيم بعد أن لاحظت انتفاخاً بسيطاً حول عينيه .
فأجابها قائلاً :

- لقد استمتعت فعلاً بما جاء في الكتاب .. ولكن ما الذي تقصدينه بأنني قد غرفت منه ما كفاني لليلة أمس .
أوديت قالت : نقطة من بحر .. المسافة بينك وبين الفكر الأخضر فالطريق أمامك طويلة جداً .

صعب : لم أفهم ما تقصدينه .

أوديت قالت :

- يلزمك أن تثابر في القراءة حتى يمكنك أن تفهم كلامي .

صعب : لغز آخر .

أوديت : لا .. لا فالفكر الأخضر لا يعرف الأغايز وكل ما أريده هو أن تدرك جيداً أنك تتعامل مع فكر إنساني جديد ويلزمك أن تبهر في أغواره جيداً لتكون ماهراً وتستطيع أن تصل إلى ما تصبر إليه .

- للوهلة الأولى أعجبني الكتاب كثيراً .

- الاعجاب وحده لا يكفي .. بل عليك أن تدعم هذا الاعجاب بالاجتهاد والتأمل وأن تبحث

- في الأصول .
- لا أفهمك يا أمي .
- ألم تقرأ في « الكتاب الأخضر » حل مشكلة الديمقراطية .
- نعم لقد قرأت ذلك فالكتاب قد خصص لهذا فصلاً كاملاً .
- ألم تقرأ في الكتاب حل المشكل الاقتصادي .
- نعم لقد قرأت ذلك .
- وهل قرأت ما يخص الركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثانية .
- لا .. ما قرأت هذا فلقد توقفت عن القراءة عندما انتهت من قراءة الفصل الثاني .
- إذا دعنا نناقش فيما قرأت .
- لنناقش .
- الا توافقني ان قلت أن ما جاء به الكتاب هو البلمس الشافي لجرح الإنسانية .
- لا يمكنني أن أجزم بهذا الآن .
- ولماذا ؟
- لكي أجيب عن هذا الموضوع يلزمني أن أتمعن بالتفاصيل أكثر .. وأنا ما أتممت قراءة الكتاب بعد .
- كما تشاء .. ولكن .. ولكن يحضر ببالي سؤال .
- تفضلي واسالي .
- ما دمت قد قرأت الفصل الأول والفصل الثاني من الكتاب فماذا فهمت من هذين الفصلين .
- وأوضح أكثر فأقول لقد مرت عليك في الفصل الأول قواعد أساسية لحل مشكلة الديمقراطية .. وسأتلو عليك تلك القواعد على سبيل التذكير لا الحصر .
- أ - لا نيابة عن الشعب والتمثيل تدجيل .
- ب - المجلس النيابي حكم غيائي .
- ج - المجالس النيابية تزييف للديمقراطية .
- د - الحزبية اجهاض للديمقراطية .
- هـ - من تحزب خان .
- و - لا ديمقراطية بدون مؤتمرات شعبية وغيرها ..
- وأعود لصلب السؤال وأقول .. ماذا فهمت من كل هذا؟

وبدون ارتباك قال صعب :

- لقد فهمت كل شيء أو على الأقل فهمت ما قرأت .
- أوديت : جواب لا يكفي وضح أكثر .
- صعب : عندما قلت لك للوهلة الأولى أنني قد أعجبت بالكتاب كان موضع اعجابي بهذا الخصوص أن الكتاب الأخضر سلس للغاية وليس فيه علامات استفهام .. فالطرح واضح العرض مقنع وان وجد سؤال فالجواب عليه موجود وما دام هو أصلاً قد جاء لفك الألغاز وحل

المشاكل فمن الطبيعي أن لكل قاعدة فيه جوابا وهذه براعة انفرد بها صاحبه المؤلف ..
ولم ألاحظها في مؤلفات كثيرة كنت قد قرأتها فيما سبق .
فابتسمت أوديت .. ابتسامة عريضة .

ثم أردف صعب قائلاً :

ما تلوت علي من برهة قواعد بارزة في الفصل الأول الخاص بحل مشكلة الديمقراطية .. وعلى التوالى أقول :

فيما يخص تلك القواعد (أ) لا نيابة عن الشعب والتمثيل تدجيل .. قاعدة ولها تفسيرها وتفسيرها يكمن في أن الديمقراطية تعني سلطة الشعب لا سلطة نائبة عنه وبمجرد وجود مجلس نيابي معناه غياب الشعب وهذا جواب الكتاب الأخضر .
وفيما يخص (ب) .. القائلة بأن المجلس النيابي حكم غيبي .. هذه قاعدة بارزة في الفصل وتفسيرها يقول :

« أصبحت المجالس النيابية حاجزاً شرعياً بين الشعوب وممارسة السلطة حيث عزلت الجماهير عن ممارسة السياسة واحتكرت السيادة لنفسها نيابة عنها ولم يبق للشعوب إلا ذلك المظهر الزائف للديمقراطية المتمثل في الوقوف في صفوف طويلة لوضع أوراق التصويت في صناديق الانتخابات » .
أما فيما يخص (ج) .. القائلة أن المجالس النيابية تزيف للديمقراطية .. وفي هذا الموضع يقول الكتاب الأخضر .. « ولكي نعري المجلس النيابي لتظهر حقيقة علينا أن نبحث من أين يأتي هذا المجلس فهو إما منتخب من خلال دوائر انتخابية أو من خلال حزب أو ائتلاف أحزاب وإما بالتعيين وكل هذه الطرق ليست بطرق ديمقراطية ، إذ أن تقسيم السكان إلى دوائر انتخابية يعني أن العضو النيابي الواحد ينوب عن آلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من الشعب حسب عدد السكان ويعني أن النائب لا تربطه أي صلة تنظيمية شعبية بالناخبين إذ يعتبر نائباً عن كل الشعب كبقية النواب .
هذا ما تقتضيه الديمقراطية التقليدية السائدة ومن هنا تنفصل الجماهير نهائياً عن النائب وينفصل النائب نهائياً عن الجماهير وبمجرد حصوله على أصواتها يصبح المحتكر لسيادتها والنائب عنها في تصريف أمورها .. وهكذا نرى أن الديمقراطية التقليدية السائدة في العالم الآن تخلع القداسة والحصانة على عضو المجلس النيابي بينما لا تقر ذلك بالنسبة لأفراد الشعب ومعنى هذا أن المجالس النيابية أصبحت أداة لسلب السلطة الشعبية واحتكارها لنفسها ، وأصبح من حق الشعوب اليوم أن تكافح من خلال الثورة الشعبية .»

ثم قاطعته أوديت قائلة بصوت عالٍ :

ذاكرة .. حافظه لكنها مذهلة .. مذهلة ..

تابع يا صعب .. فتابع صعب قائلاً :

وفيما يخص النقطة (د) . القائلة : « الحزبية أجهض للديمقراطية » .. يقول الكتاب الأخضر :
« .. فالحزب ليس أداة ديمقراطية على الإطلاق لأنه يتكون إما من ذوي المصالح الواحدة أو الثقافة الواحدة .. أو المكان الواحد .. أو العقيدة الواحدة .. هؤلاء يكونون الحزب لتحقيق مصالحهم أو فرض رؤيتهم أو بسط سلطان عقيدتهم على المجتمع ككل ، وهدفهم السلطة باسم تنفيذ

برنامجهم .. ولا يجوز ديمقراطياً أن يحكم أي من هؤلاء كل الشعب الذي يتكون من العديد من المصالح والآراء والأمزجة والأماكن والعقائد .. فالحزب أداة حكم دكتاتورية تمكن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم الشعب بأكمله .. أي شعب والحزب هو الأقلية بالنسبة للشعب .. إن الغرض من تكوين الحزب هو خلق أداة لحكم الشعب أي حكم الذين خارج الحزب بواسطة الحزب .. »

وفيما يخص (و) .. أقول .. فقال : وقال .. وقال ثم توقف جريان الحديث عندما قرع باب البيت .. وهرعت أوديت لتفتحه .

ولما فتحت الباب طلّ رجل تألفه أوديت كثيراً .. هو مندوب جمع الضريبة حيث خاطبته قائلة :

الضريبة .. الضريبة مرة أخرى .. ثم ابتسمت طويلاً وأردفت تقول :

- هيا تفضل .. تفضل ..

فدلف الرجل إلى البيت ولما جلس على أريكة عريضة تصدرت غرفة الضيوف تناول من حقيبته المملوءة بالأضابير والأوراق الخاصة بالحزب الحاكم في المنطقة بضعة أوراق ثم قال :

ستدفعين .. خمسة آلاف ليرة .

أوديت مدهوشة قالت : ماذا خمسة آلاف ليرة .. ولكن لماذا كل هذا المبلغ .

الرجل ضاحكاً قال يخاطبها :

سأتلو عليك .. وأبين لك لماذا هذا المبلغ .

أولاً .. ألف وخمسمائة ليرة ضريبة هاتف .. ويجب أن تدفع فوراً .

أوديت : مهلاً .. مهلاً .. ألا تدري أن الخطوط مقطوعة منذ عام وأكثر .

الرجل : أدري ولكن عليك أن تدفعها .

أوديت : وماذا أيضاً .

أردف الرجل يقول : ألف ليرة ضريبة التلفاز .. وألفاً أخرى للعقار الذي

وخمسمائة ليرة مخالفة .

أوديت : مخالفة على ماذا .

الرجل : أهل المبنى .. وأهل الحي يستعملون الماء في النهار .

ضحكت أوديت طويلاً ثم قالت .. ومتى يرى حزبكم الوقت المناسب لاستعمال الماء ؟

الرجل : ستدفعين المبلغ .

أوديت : بكل تأكيد .. بكل تأكيد وهل يمكنني أن أتأخر على سعادتك .. لحظة سأتيك

بالمبلغ .

وهرعت إلى غرفة نومها .. وتناولت من خزانة المبلغ المطلوب .. ولما عادت للرجل أعطته

المبلغ فانصرف .. ضاحكاً مستهزئاً ولكن علام ؟ لا أدري !!

في تلك الأثناء كان صعب يسمع حديث أمه مع الرجل .. وبعد انصراف الرجل جلس

على مقربة من أمه ليسألها مستفسراً .

لماذا دفعتِ المبلغ ؟

أجابته قائلة : ليكفونا شرمهم .. ولكن ما علاقتك أنت بهذا ألم أقل لك من قبل أنني أودك أن تشغل بالك بشيء يفيدك وأن لا تهتم بمثل هذه التفاهات ..

صعب : لا .. هذه ليست بتفاهات .. انهم يمتصون دمنا .

أوديت راجية : لا تهتم بهذا يا ولدي .. دعك من هذا أرجوك .

صعب : كما تشائين يا أمي .

أوديت : أيمكننا متابعة النقاش .

صعب : ألاحظ أنك ، تهتمين كثيراً بالكتاب الأخضر .

أوديت : وهل أنت لا ترغب في ذلك .

صعب : لا أقصد هذا .. ولكن .. ثم سكت .

- .. « ولكن ماذا » كذلك قالت أوديت .

أجابها صعب : سنتابع النقاش .

أوديت : - تفضل .. هيا ابدأ .

- صفوة القول في أن لكل قاعدة أساس والأساس هو ذلك الحل الأسلم .

- ولماذا تجزم بأنه هو الحل الأسلم .

- لو لم يكن هنا في بيروت أية مواقع ومواضع للأحزاب .. فكيف ستكون حالنا .

- بخير .

- إذا صدقت القاعدة القائلة : « من تحزب خان » .. وهذه بدورها قاعدة ونتيجة وحل .

- ولكن بلادنا قد عرفت أحزاباً شريفة ومناضلة كحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا .

- تتكلم وكأنك سياسي .

- أتمنى أن لا أكون يوماً سياسياً .

- ولماذا ؟

- لأنني سأكون شريفاً .

- وما المانع ..

- الشريف يقتل .

- إذا لا ديمقراطية في بلادنا .

- من المؤكد أنه لا ديمقراطية في بلادنا .

- هل وجدت الحل في الكتاب الأخضر ؟

- مبدئياً يمكنني القول .. أن الحل يكمن في الكتاب الأخضر ولكن متى تضيق المسافة بينه

- وبين واقعنا .. الا تلاحظين أن المسافة طويلة جداً .
- لا .. لا .. فالفجر قادم .
- أي فجر ذلك الذي تقصدين ؟
- فجر الجماهير .
- ألا ألاحظ أنك تتعاطفين كثيراً مع الفكر الأخضر .
- أنا اتعاطف مع كل ما هو إنساني .. أليست العاطفة ثروة كامنة في أعماقنا أو في العمق الإنساني ذاته .
- وهل ظلت للعواطف مكانة !!
- نعم .. العواطف ستظل موجودة ما دامت الإنسانية موجودة ولن تغيب .
- الإنسانية .. أخذت مني كل شيء أُمي .. وأبي .. وأختي وحتى طفولتي .
- لا .. الذي أخذ منك كل هذا هو الطغيان .
- إذن ذابحي هو الطغيان .
- نعم .. انه الطغيان .
- وأين أجده .. أين يمكنني أن أعرّ عليه .
- هو الذي يرفض أن نكون شركاء لا أجراء .. ويرفض القاعدة القائلة: في الحاجة تكمن الحرية ويرفض أن يكون البيت لساكنه .. الطغيان هو الذي انتزع منك كل شيء وطردك من بيتك .. فهدم أحلام طفولتك .. الطغيان هو الذي يذبحنا كل يوم ألف مرة .. وألف مرة ويرغمنا على دفع الضرائب .
- أفهم من ذلك أنه يقف في وجه انتشار الفكر الأخضر .
- بالطبع .. بكل تأكيد ..
- لقد أدركت ذابحي .. لقد أدركت ذابحي ..
- ما دمت قد أدركت ذابحك .. ألا تود أن تنتقم لأُمك وأختك وأبيك .
- بكل تأكيد .
- ولكن كيف ؟
- سأنتظر ..
- وماذا ستنتظر ؟
- انتظر الساعة أن تضيق بيننا المسافة .
- الانتظار مر .
- لن أبالي بالمرارة أبداً فلقد ذقت كل أصنافها .
- ولوحذك .
- لوحدي .
- لن تنتصر .. ستطحن طحناً .
- لن أستسلم .

- يمكنك أن تنتصر .
- بت لا أفهم كلامك .. لن أنتصر .. سأطحن طحناً .. يمكنك أن تنتصر .. بت لا أفهم كلامك .
- بالانتاء .. والدعم والقوة ستنتصر .
- وضحي أكثر .
- أنت تعيش في أمة والأمة مظلومة وكذلك شعوبها مازالت تشكو وتتألم فكن قومياً .. ثم كن أممياً عندها ستفوز بالانتصار .
- كان شيخى يحب عبد الناصر وكذلك فاضلتي .
- كلنا نحب عبد الناصر ونعشق فكره .. وبعده لنا في الأصقاع العربية خليفة .
- من هو ؟
- مفجر عصر الجماهير .
- وكيف يمكنني أن أعرف عنه شيئاً .
- كتابه بين يديك .. فتابعه جيداً وتمعن بتفاصيله سيدلك على ما تفعله فيما بعد .
- لقد أتعبتك معي يا أمي .
- كم أتمنى أن أراك منتصراً .
- سأنتصر .
- سأدعك الآن لتفوز بقراءة الفصل الثالث من كتابك .
- ولماذا كتابي .. لماذا لا تقولين الكتاب الأخضر .
- لأنني أثق تماماً أنه كتابك .
- ثم هرعت مسرعة لتبدل ثيابها وتغادر البيت قاصدة مقر عملها ..
- وانهمك صعب من جديد في متابعة قراءة الكتاب الأخضر .. ولما وصل في القراءة على مشارف الصفحة ذات الرقم مائة وخمسة وثلاثين توقف عندها قليلاً لأنها احتفت بالحديث عن الأمة .. فخطفه الدهول وتذكر ما قالته له أمه :
- أنت تعيش في أمة والأمة مظلومة وكذلك شعوبها مازالت تشكو وتتألم فكن قومياً ثم كن أممياً عندها ستفوز بالانتصار .
- وكلمة الانتصار بذاتها تبعث في نفسه نشوة غريبة لا أدركها أنا .. وفي هذا الموضع من الكتاب لجأ الوسيم لأسلوب في القراءة لا يعتمد إلا في الأوقات الحرجة عندما يحاول أن يركز بشدة وعندما يشعر أن شروداً ما قد يطارده فيخطفه الدهول أثناء القراءة فيتخلص من هذا الشرود .. ومن ذاك الدهول بمجرد أن يقرأ بصوت عالٍ جداً . ذلك الصوت لن يزعج النائمة بيروت لأنها اعتادت على الضجة والشغب في سباتها العميق هذا من جهة ومن جهة أخرى فيبيروت العارفة عارفة بما سيقوله الوسيم لكنها سعيدة بأنها ستسمعه من حنجرته وهي خائفة لاهثة .
- وعلى مسامع بيروت النائمة أخذ صعب يقرأ بصوت عالٍ في صفحات الكتاب الأخضر ولنسمع معاً ما يقرأ :

قال : الأمة .

الأمة ..

الأمة هي مظلة سياسية قومية للفرد أبعد من المظلة الاجتماعية التي توفرها القبيلة لأفرادها .. والقبيلة هي إفساد القومية فالولاء القبلي يضعف الولاء القومي ويكون على حسابه . مثلما الولاء العائلي يكون على حساب الولاء القبلي فيضعفه كذلك .

والتعصب القومي بقدر ما هو ضروري للأمة هو مهدد للإنسانية .

إن الأمة في المجتمع الدولي هي مثل الأسرة في القبيلة ، فكلما تناحرت عائلات القبيلة الواحدة وتعصبت لنفسها تهددت القبيلة بطبيعة الحال .

مثل أفراد الأسرة الواحدة إذا تناحروا وتعصبت كل فرد لذاته تهددت الأسرة . وإذا تناحرت قبائل الأمة وتعصبت كل قبيلة لنفسها تهددت تلك الأمة ، والتعصب القومي واستخدام القوة القومية ضد الأمم غير القوية أو التقدم القومي نتيجة استحواذ ما لأمة أخرى هو شر وضار للإنسانية . ومع هذا فالفرد القوي والمحترم لذاته والمدرک لمسئوليته الفردية مهم ونافع للأسرة .

والأسرة المحترمة والقوية المدركة لأهميتها مفيدة اجتماعياً ومادياً للقبيلة . والأمة المتقدمة والمنتجة والمتحضرة مفيدة للعالم كله والبناء السياسي والقومي إذا نزل إلى المستوى الاجتماعي ، أي المستوى العائلي والقبلي وتفاعل معه وأخذ اعتباراته .

بما أن الأمة عبارة عن أسرة كبيرة بعد أن مرت بمرحلة القبيلة وتعدد القبائل المتفرعة من أصل واحد .. وكذلك المنتمة إلى ذلك الأصل انتهاء مصيرياً .. والأسرة لا تصير أمة إلا بعد مرورها بمراحل القبيلة وتفرعها ومرحلة الانتماء نتيجة الاختلاط المختلف وذلك يتحقق حتماً اجتماعياً بعد زمن لا يمكن ألا أن يكون طويلاً . ومع هذا فإن طول الزمن كما ينشئ أمماً جديدة يساعد على تفتيت أمم قديمة ، ولكن الأصل الواحد والانتماء المصري هما الأساسان التاريخيان لأي أمة .. ويبقى الأصل في المرتبة الأولى والانتماء في المرتبة الثانية فالأمة ليست أصلاً فقط ، حتى وإن كان الأصل هو أساسها ومنشأها ، ولكن الأمة علاوة على ذلك هي تراكمات تاريخية بشرية تجعل مجموعة من الناس تعيش على رقعة واحدة في الأرض .. وتضع تاريخاً واحداً .. ويتكون لها تراث واحد .

وتصبح تواجه مصيراً واحداً .. وهكذا فالأمة بغض النظر عن وحدة الدم هي في النهاية

انتماء ومصير .

ولكن لماذا شهدت خريطة الأرض دولاً عظمى ثم اختفت وظهرت على خريطتها دول أخرى والعكس ، هل السبب سياسي وعلاقة له بالركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة ، أم السبب اجتماعي ويخص هذا الفصل في الكتاب الأخضر ؟

لنرى :

لا خلاف على أن الأسرة تكوين اجتماعي وليس سياسياً .. والقبيلة كذلك ؟ لأنها أسرة توالدت وتكاثرت فأصبحت أسراً عديدة .. والأمة هي القبيلة بعد أن كبرت وتعددت أفخاذها وبطونها وتحولت إلى عشائر ثم قبائل فالأمة أيضاً تكوين اجتماعي علاقته (القومية) .. والقبيلة تكوين اجتماعي

علاقته (القبيلة) .. والأسرة تكوين اجتماعي علاقته (الأسرية) . وأهم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية) .

هذه بدييات .. ثم هناك تكوين سياسي يكون الدولة هو الذي يشكل خريطة العالم السياسية .. ولكن لماذا تتغير خريطة العالم من عصر إلى آخر ؟ السبب هو أن التكوين السياسي هذا قد يكون منطقاً على التكوين الاجتماعي وقد لا يكون كذلك . فعند انطباقه على الأمة الواحدة يدوم ولا يتغير وإذا تغير نتيجة استعمار خارجي أو تدني يعود للظهور مرة أخرى تحت شعار الكفاح القومي أو النهوض القومي أو الوحدة القومية أما إذا كان التكوين السياسي يجمع أكثر من أمة فإن خريطته تتمزق من جراء استقلال كل أمة تحت شعار قوميتها وهكذا تمزقت خريطة الامبراطوريات التي شهدتها العالم لأنها تجمع عدة أمم ما تلبث حتى تتعصب كل أمة لقوميتها وتطلب الاستقلال فتتمزق الامبراطورية السياسية لتعود مكوناتها إلى أصولها الاجتماعية ، والدليل واضح تمام الوضوح في تاريخ العالم إذا راجعناه في كل عصر من عصوره .. ولكن لماذا تتكون تلك الامبراطوريات من أمم مختلفة ؟ .. الجواب هو أن تكوين الدولة ليس تكويناً اجتماعياً فقط كالأسرة والقبيلة والأمة .. فالدولة كيان سياسي تخلفه عدة عوامل أبسطها وأولها القومية . فالدولة القومية هي الشكل السياسي الوحيد المنسجم مع التكوين الاجتماعي الطبيعي ، وهي التي يدوم بقاؤها ما لم تتعرض لطغيان قومية أخرى أقوى منها ، أو أن يتأثر تكوينها السياسي كدولة بتكوينها الاجتماعي كقبائل وعشائر وأسر . فلو خضع التكوين السياسي للتكوين الاجتماعي العائلي والقبلي أو الطائفي وأخذ اعتباراته لفسد . أما العوامل الأخرى لتكوين الدولة غير الدولة البسيطة الدولة القومية ، هي عوامل دينية واقتصادية وعسكرية .

فالدين الواحد قد يكون دولة من عدة قوميات .. والضرورة الاقتصادية كذلك والفتوحات العسكرية أيضاً .. وهكذا يشهد العالم في عصر ما تلك الدولة أو الامبراطورية ، ثم يراها قد اختفت في عصر آخر .. فعندما تظهر الروح القومية أقوى من الروح الدينية ، ويشتد الصراع بين القوميات المختلفة التي يجمعها دين واحد مثلاً فتستقل كل أمة راجعة لتكوينها الاجتماعي فتختفي تلك الامبراطورية .. ثم يأتي الدور الديني مرة أخرى عندما تظهر الروح الدينية أقوى من الروح القومية فتتحد القوميات المختلفة تحت علم الدين الواحد .. حتى يأتي الدور القومي مرة أخرى وهكذا . فكل الدول المكونة من قوميات مختلفة بسبب ديني أو اقتصادي أو عسكري أو عقائدي وضعي سوف يمزقها الصراع القومي حتى تستقل كل قومية .. أي ينتصر حتماً العامل الاجتماعي على العامل السياسي .

وهكذا بالرغم من الضرورات السياسية التي تحكم قيام الدولة ، إلا أن أساس حياة الأفراد هو الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة إلى الإنسانية فالعامل الأساسي هو العامل الاجتماعي وهو الثابت .. أي القومية فيجب التركيز على الحقيقة الاجتماعية والعناية بالأسرة ليظهر الإنسان السوي المرئي ، ثم القبيلة كمظلة اجتماعية ومدرسة اجتماعية طبيعية تربي الإنسان اجتماعياً فيما فوق الأسرة ثم الأمة ، إذ أن الفرد لا يعرف قيمة القيم الاجتماعية إلا من الأسرة والقبيلة ، وهما التكوين الاجتماعي الطبيعي الذي لا دخل لأحد في صنعه العناية بالأسرة من أجل الفرد والأمة . أي القومية فالعامل الاجتماعي هو

المحرك الحقيقي والدائم للتاريخ (أي العامل القومي) .

ان تجاهل الرابطة القومية للجماعات البشرية ، وبناء نظام سياسي متعارض مع الوضع الاجتماعي هو بناء مؤقت سيتهدم بحركة العامل الاجتماعي لتلك الجماعات . أي الحركة القومية لكل أمة . تلك كلها حقائق معطية أصلاً في حياة الإنسان ، وليست تصورات اجتهادية ، وعلى كل فرد في العالم أن يعيها ويعمل وهو مدرك لها حتى يكون عمله صالحاً أي من الضروري معرفة هذه الحقائق الثابتة حتى لا يقع انحراف وخلل وإفساد لحياة الجماعات البشرية نتيجة عدم فهم واحترام هذه الأصول للحياة الإنسانية » .

ثم توقف عن القراءة فحمد الصوت وضاع عن مسامع النائمة .. حيث أخذ صعب يقول في سريره بدهش شديد :

- لقد صدقت يا أمي .

- لقد صدقت يا أمي عندما قلت لي أن الاعجاب وحده لا يكفي وعليّ أن أدعمه بالاجتهاد والتأمل وأن أبحث في الأصول .. وبعدها أغلق الكتاب على أن يعود إليه فيما بعد .

وبينما كانت الآمال تتوارد في نفسه المشتاقة للنصر البعيد كأطياف المنى ، خطا باتجاه إحدى نوافذ البيت المطلّة مباشرة على شارع مغلق يسكنه سعادة رئيس الحزب وجماعته المسلحة .. حيث أخذ يتابع بعينه الواهنتين ما يجري في هذا الشارع المسلوخ تماماً عن الشوارع والخارات المجاورة له ، فلقد أغلق قسراً منذ زمن ومنعت الناس من المرور فيه .. وحتى الكلاب والقطط والفئران ، إلا أن بعض الفئران البشرية التابعة للحزب ذاته تسرح فيه وتمرح ولا تبالي بالقاطنين أبداً .. بل أنها تتمرد عليهم فتنتهك أعرافهم وتقاليدهم وتسرق أغلى ما عندهم كما أنها تهضمهم بالضرائب ووحدها الإتاوات تتخذ لها في أعرافهم آلاف الأشكال والعين واهنة تتابع ما يجري .

ها هم رجال الحزب يترأضون من اليمين إلى الشمال .. فيتبين لناظرهم للوهلة الأولى ، أنهم خائفون مذعورون ولكن مم الخوف ؟

ها هم قد انتشروا في الشارع انتشاراً مهيباً يحملون بأيديهم بنادق مختلفة وكل ما فهم يرتبك .. لقد أكدت تحركاتهم .. وتنقلاتهم من اليمين إلى الشمال .. ومن الامام إلى الورا .. وهناك في العرض .. وعلى طول الشارع أنهم مرتبكون ارتباطاً شديداً .. ثم فجأة حضرت إلى الشارع ثلاث سيارات من نوع رانج روفر تقل رجالاً مسلحين .. امتدت بنادقهم من النوافذ في كل الاتجاهات .. إلى الامام وكذلك إلى الخلف .. إلى الشرق والغرب .. إلى الجنوب والشمال .. لتتوقف فجأة أمام ذاك المبنى الضخم الذي تتصدر مشارفه الحواجز الرملية والمتاريس .. والبراميل المعبأة بالرمال . ثم تلفظ السيارات من فيها بارتباك شديد ، ليقفوا جميعهم كالمسامير على الجدران كل منهم على حده في مكانه المخصص له .. وعين الوسم ما زالت تتربق بشدة ما يجري في الشارع .

وها هي قد حضرت السيارة الفخمة الضخمة تلك التي لا يمكن للرصاص أن يخترقها .. ولا يمكن أن تؤثر فيها ضربة (آر بي جي) لو قصدها طائشة أو مرسومة .. لتتوقف الفخمة الضخمة أمام مشارف ذلك المبنى الضخم .. وما أن مرت لحظات .. حتى حضرت ثلاث سيارات أخرى

(ولكنها مصفحة) دون أن تقذف بمن تقله وتوقفت الواحدة تلو الأخرى وراء الفخمة الضخمة .
وظهر فجأة رجل يحمل بيديه جهازاً صغيراً وبدأ يضعه على بعد أمتار في اتجاهات مختلفة
من السيارة الفخمة الضخمة ليرفع يديه عالياً .. ثم يخفضها .. وهذه علامة تؤكد على أن السيارة
سالمة .. من أية شائبة .. وقد تسألني عن الشوائب فأقول في لبنان العجائب حرب الاغتيالات
السياسية قائمة وتفخيخ السيارات ذات الصفات المتميزة بات أمراً تهابه الأحزاب ورجالاتها إلى
أن وصل الحذر في مثل هذه المسائل إلى أرقى مستوياته على الإطلاق .
.. وأخيراً ظهر سيد الغليون تغمره هالة من الفرع الرهيب وكأن الأرض تود أن تبتلعها
وليتها تفعل .. لتقله الضخمة الفخمة وتفر به بسرعة مذهلة تود أن تسابق سرعة الضوء .. وتتبعها
السيارات الثلاث بعد أن سبقتها الأخريات .

ويخلو الشارع من الحركة .. فيغادر الوسيم النافذة مندهشاً مذهولاً .. وهو يقول في سريره :
كل ذلك من أجل سيد الغليون .. شيء مذهل .
ثم .. دخل إلى مطبخ البيت ليعد لنفسه كأساً من الشاي .. ليجلس بعد ذلك ويتابع الغوص
في بحر الفكر الأخضر ويستغرق في طيات الكتاب الأخضر بدون أن تسمعه النائمة لأن ما قد
رآه قبل قليل عبر النافذة دفع في نفسه الحذر والخوف معاً .
ومرت ساعات النهار .. ثم تواردت بعض ساعات من الليل والوسيم منتظر عودة
أمه .. وها هي قد عادت متأخرة ليخاطبها قائلاً بلهجة عصبية .
- لماذا تأخرت ؟

أجابته الأم قائلة : دعني استريح قليلاً .. سأخبرك فيما بعد .
أردف الوسيم يقول : لقد شعرت بالخوف عليك .. فليل بيروت مليء بالأذى والمتاعب .
أوديت : كم أحبك .. كم أحبك .. ثم ابتسمت فابتسم الوسيم أيضاً وبعدها فرت إلى غرفة نومها
لتبدل ثيابها .. ثم عزمت على أن تعد وجبة طعام العشاء .. ففعلت .
وعلى مائدة العشاء جلست برفقة الوسيم تغمرها سعادة لا حدود لها . حيث بدأ
الحديث عتافاً .. ثم ملامة واللوم ما ظلّ ابداً .. لقد بعثته الحبة مثلما كانت الأيدي تبثر أطباق
الطعام ، ثم دخل الحديث أخيراً مكمناً الجد وخاض في بحر الفكر .
فقالت أوديت مبتسمة :

- أين وصلت في القراءة ؟

أجابها صعب :

- لقد انتهيت من قراءة الكتاب .

أوديت أردفت تقول :

- ما رأيك بالفصل الثالث .

صعب : - أثار اعجابي حديثه عن الأمة .

- ولماذا الأمة بالذات ؟

- كان العرض مقنعاً للغاية ومدعماً بسلسلة غايتها الإنسان ذاته .

- ما رأيك في حديثه عن المرأة .
- لقد توقفت في هذا الموضوع طويلاً .. طويلاً .. ثم تنهد طويلاً .
- ولماذا هذه التنهيدة الطويلة .
- وهل هناك في حياتنا تنهيدات قصيرة .
- ما الذي يتعبك يا عزيزي ؟
- اشعر بأن الكتاب قد أفلح وحرك أشياء كثيرة كامنة في نفسي منذ زمن .
- للخير أليس كذلك .
- لا أدري ولكنني أقول أن الكتاب الأخضر يستطيع بمهارة أن يجرّض قارئه .
- ولم لا .. مادام في ذلك التحريض خير للإنسان .. ولكن كيف وصلت إلى هذا الشعور .
- كل ما في أعماقي يدفعني لأن أحرك شيئاً ما .
- في الوقت المناسب ستتحرك بكل تأكيد .
- ولكن متى يحين ذلك الوقت ؟
- كل شيء في هذا الوجود .. يتقدم .. الزمن ذاته يتقدم وكذلك الزحف الأخضر يتقدم
- وسيصل إلى ما يصبو إليه ذات يوم .. ولكن قل لي لماذا وأين توقفت في حديثه عن المرأة .
- عندئذ قال :

عندما قال « .. ان الأمومة وظيفة الانثى وليست وظيفة الذكر ، ولهذا فمن الطبيعي ألا يفصل الأبناء عن الأم .. وأي إجراء لفصل الأبناء عن الأم هو عسف وقهر ودكتاتورية » . هذا الكلام ذكرني بوحشية من انتزعني من أمي وقتل طفولتي .. ولهذا كنت قد تنهدت طويلاً .

أما فيما يتعلق بصلب السؤال القائل ما هو رأيي في حديثه عن المرأة ففي هذا الصدد أقول :

تبقى قضية مساواة المرأة بالرجل .. قضية مؤجلة لن تنال الحل الا في ظل ذلك العصر البعيد القريب .. أما الآن فهي ما زالت تشكو من تشعب وتعقيدات ولا جدوى من هذا الحديث طالما المسافة بعيدة جدا بين الفكر الأخضر ذاته والواقع الذي تعيشه وتحياه المرأة اليوم في ظل الجمهوريات والممالك البعيدة بمسلكها وآمالها وأهدافها عن الفكر الإسلامي الحق .

ويمكنني القول .. أن الإسلام وقبل الفكر الأخضر قد أوجد الحل لهذه المشكلة القائمة على نزاعات ونزعات ونزوات مختلفة . وغير متقاربة أو متباينة ، ولكن للأسف ما ظلت حضارة الإسلام .. ولو قلنا غير ذلك فنحن نبالي ونغالي لأننا فعلاً قد افتقدنا كل ما يتعلق بتلك الحضارة السامية ولكن عندما نتأمل .. ونقول في ظل عصر الجماهيريات أو عصر الجماهير يمكن أن نجد هذه المشكلة حلاً لها فتصدر المرأة مكانتها المرموقة في ذلك العصر القادم ، فإذا حصل .. وإذا هنا فجائية بالرغم من أنني أكدت أن العصر قادم .. إذا حصل ذلك ستكون المرأة قد عاودت مجداً قد عرفته في سالف الأزمان عندما حاول الرجل جاهداً أن يتساوى بها في عصر سلطة الأم

في ظل الحضارة الرومانية .. ولكن ذلك المجد لن يتكرر بكل ما كان يعنيه وهو أن تتصدر المرأة ذاتها العصر ويضيع حق الرجل ..

وهنا أقول سنصل في عصر الجماهير إلى الأمور بتكافؤ وتوازن من دون نواقص .. لأن ذلك العصر سيكون فعلاً قد استفاد جدياً من أخطاء العصور بما فيها عصر سلطة الأم .. وعصر الإسلام المقتول .. وسيكون الأقدار على البقاء وعلى أن يعيش طويلاً .. طويلاً .. فألى أن يحين مجيء ذلك العصر ستبقى مشكلة المرأة متشعبة لا جدوى في حلها وأن أوجد الكتاب الأخضر ذلك الحل البعيد ومر .. في هذا المبحث مرور الكرام » ألا توافقيني بذلك .. ثم سكت .

أدويت : من أين لك كل هذا ؟

صعب : من مكتبتيك الفخمة .

أدويت : وماذا أيضاً .

صعب : هذا ما عندي بخصوص ما قرأت .

أدويت : أعتقد بأنك قد تعبت .

صعب : سأنصرف إلى النوم .

أدويت : كما تشاء .

وانصرف صعب للنوم . فنام طويلاً .. ومثلما فعل فعلت ثم أخذ الزمان يمشي في طريقه المرسوم .. والساعة فيه تلتهم أختها ومثلها الدقائق والثواني وما مرت لحظة من عمر بيروت إلا وسُرقت منها جثة أو كفن أو سرقت ذاتها صوتاً من حنجرة ، وبصراً من عين .
وبيروت وحدها المتهم في قفص الاتهام .
وبيروت وحدها الجاني والجريمة .. وما نرحت .. المتهمه .

الفصل الثاني عشر

' بالضبط بعد بضعة هنيات من الوقت سيتم اعتقال الألم اعتقلاً لا يدوم .. فالشموع ستشتعل غصباً وكذلك الفرحة ستجيء سيصنعها الألم ذاته ثم ترحل قهراً والأضواء ستكون مبهرة فتنبهر لها القلوب الحزينة وتحيا ليلة كالطرفة إلى ما بعد السحر .
بعض الناس سيفرحون وهم حزانى .. والبعض الآخر يود أن يتسمم .. ويتسمم ليس من أجل الابتسام فحسب بل لينسى .. وينسى وما يود أن ينساه كثير .
وفريق المتسلطين من الذئاب البشرية أمثال كارو وجوزيف والمعلم زاكي سيكون حريضاً جداً على أن يصطاد ما يريد أن يصطاده بالوقت الذي ستكون للخطة متعتها ونشوتها ، عندما يستسلم للنشوة والمتعة ويشرب الخمر حتى الثمالة ولا يستسلم إليه وبالتالي سيفوز بالطبع بكل ما يريد في مختلف الاتجاهات برأ على الأرض وحتى في العمق الإنساني ذاته .. وبحراً في الأغوار الرحية حيث يوجد الماس ويحيا المرجان .. وجواً في الفراغ حيث المسلك والعبور لتنفيذ العملية ذات الرقم ٦٥٠٠ .. وأكثر من هذا .
وعندما تبدأ رحلة احتراق الشمع .. ورحلة كل شيء مبهر ستعتلي الابتسامة عرشاً لا يدوم .

لنسقط أحلامها في اليوم التالي على الفور .
إذن سيفرح المعذبون وكذلك المعذبون .
سيفرح الشمع وهو يموت .. وهو يذوب كالذين ما زالوا منذ فجر الأذية هياكلاً أصلهم من أصل البشر يقطنون في الزنانات الباردة الرطبة غصباً لكنهم ما زالوا يتأملون ويتنظرون يوم الخلاص والحرية .. وذلك اليوم الذي ستسقط فيه الأنظمة الفولاذية الورقية الوهمية .
وما أعظم الإنسان في مثل هذه المواضع .. عندما يبقى عنيداً ويتنظر ذلك الأمل الآت من سراب .. ما أعظم الألم ذاته لو جاء من بعده زمن الدواء .. وما أدرانا !!
وها هي ذي قد حضرت أخيراً إلى حيز الوجود .. لقد وصلت إلى بيروت في جولة تفقدية ستدوم عدة ساعات .. أنها ليلة الميلاد العظيمة ..

أنها ليلة الميلاد ..

فتعالي لمرافقتها رحلتها الطويلة .. الطويلة .. ونفترق عند مطلع الفجر تماماً كي لا نتعبنا لحظة وداع مرة .

في الساعة الأولى من رحلتها وبعد أن غاص قرص الشمس البرتقالي في عمق البحر .. مرث العظيمة بالأحراش فوجدتها حزينة تشكو وتبكي فقالت تخاطبها مستفسرة :

- أيتها الأحراش .. يارفيقتي منذ الأزل علام تنهين وتشكين ؟ فأجابتها الأحراش قائلة بحزن عميق :

- وكيف لا أشكو وأبكي يا عظيمة .. فالكل في يومك هذا سيفرح ويغني ويمرح إلا أنا وحدي أبكي .. وأبكي على صنوبرات صغيرة قد انتزعها من صلبى سيد الأرض احتفالاً بك .

ثم أردفت ليلة الميلاد تقول :

- أفهم من كلامك هذا أن قصة الانتزاع غصباً ما زالت حية وقائمة في أعماق سيد الأرض .

أجابتها الأحراش قائلة :

- نعم .. نعم .. وأكثر من الانتزاع .

ليلة الميلاد : ماذا تقصدين بقولك هذا .

الأحراش : الغدر والنفاق ، البطش والقتل ، السحق والمسح ، كل هذا بات أعمدة ثابتة تقوم عليها حياة سيد الأرض .

ليلة الميلاد وبداهش أبكم قالت :

- يفرعني هذا يارفيقة الأزل .. ولكن علام يبتسم .. ولحضورى يستسلم أيخاف

من حضورى ومنى .

الأحراش مستهزئة قالت :

- هنا يا عظيمة .. تبدأ قصة الغدر .. هنا تبدأ يا عظيمة قصة الغدر ..

ليلة الميلاد :

- وأين في حضنك الباسقة أما زلت حية ترزق .

الأحراش :

- باقية حية ميتة كل ثمارها تالفة .. هي في مكانها واقفة في القلب وأكثر يمكنك

أن تنفقدتها ستفرح بك كثيراً .

وما هي إلا لحظات حيث وصلت العظيمة الباسقة تنفقدتها .. وعلى الفور قالت تخاطبها :

- كيف حالك أيتها العجوز .

أجابتها الباسقة قائلة :

- أهلاً بك يا ليلة الميلاد ها أنت قد جئت إلي بعد غياب ... وعين الطفولة

ما عادت .. ما طلت .

ليلة الميلاد :

- ما بالي أراك حزينة تالفة متعبة .
- كل شيء يغيب ويحترق .. ولكن لماذا الغياب والاحتراق .
- من الذي أتعبك يا عجوز .. أهو الزمان .
- لا .. لا .. انه الغدر الكامن في أعماق البشر ذاتهم وقصة الانتزاع غصباً تلك التي قرأتها في عيون الصغار ذات يوم قبل الغياب .
- الغدر .. الغدر ولكن لماذا .
- العجوز : لكي أصير تالفة مثل هذا الزمان التالف .

وبعد ..

غادرت العظيمة .. الشجرة الباسقة ثم غادرت الأحراش المعذبة قاصدةً ذلك الموطن الرهيب الذي صنعه يد الإنسان .
ها هي ليلة الميلاد في طريقها إلى برج المر .
ولما تسلمت ودخلت في عمقه إلى أحقر زنزانة وَجَدَتْ في حضنها سيد الأرض تالفاً كهيئاً ما زال ينتظر !؟

وعندما وصل إلى مسامعها ما كان يقوله لنفسه وللجدران وللعمدة باستهزاء أدركت تماماً أنه لن يراها ولم يرها وما رآها حيث كان يردد ويقول ويكرر فيقول :
« أنت كتائبى » .. ثم يسكت لحظة كاملة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل ويردف فيقول ..
« تعترف أنك قتت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب » . ثم كرة أخرى يسكت لحظة كاملة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل .

ويتابع فيقول : « انك تود الموت أليس كذلك .. لن ندعك تموت مرة واحدة أيها المجرم »
ثم يسكت لحظات معدودة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل .. وهكذا طوال الوقت ومن جديد ينطق فيقول :

« أنت كتائبى » .. ودون أن يبالي بحضور العظيمة .. عندها أدركت ليلة الميلاد أن تلك الزنزانة الحقيرة قد سلخت قاطنها عن كل شيء .. من كل شيء .. فغادرته على الفور وفرث هاربة إلى « دير الصليب » .

وعندما وصلته ودلفت إلى اعماقه وجدته ما زال غاصاً باللواني لا يفرقن بين الضحك والبكاء .. ولا يهمن الألم وكذلك الابتسامة .. فلن تجد العظيمة في الدير أي حضور لها .. فكثرت هاربة من جديد ..

ولما مرت بكورنيش البحر لتتفقده ما وجدت على أكتافه مقهى « البحر » بعد أن فتشت عليه على امتداد الكورنيش عرضاً وطولاً فقالت تخاطب بيروت تسألها عن حكيم ورفاقه :
- بيروت يا مظلومة .. أين مني رفاق الرغيف وأحاديثهم الطبية المسكينة ؟ أجابتها

بيروت قائلة :

- لقد ذهبوا .. تبعثروا ومنهم من غادرني بعد أن تمزق إرباً .. إرباً . لقد تاهوا عن عيني وحتى عن مسامعي فماتت فيهم ومعهم الأحاديث المسكينة .
وبعد ..

غادرت العظيمة كورنيش البحر وأخذت تشق طريقها إلى بيت حكيم المتعثر ولما وصلته دلفت إليه خلصة فوجدت في عمقه زهرة التي غدت يافعة براقة وجميلة .. لقد كبرت بحكم الطبيعة البشرية .. وها هي تجلس على البساط الصوفي وحولها أهل البيت بمن فيهم العجوز حكيم خاشعة بين يدي الله عز وجل .. تقرأ وترتل آيات بينات من سورة مريم من كتاب الله العزيز .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مُقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَاتَّخَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ ثَحَابًا مِمَّا تَمَسَّى * وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّنِي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَنْتَ بِهِ قَوْمُهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١﴾

في هذه الأثناء وقفت ليلة الميلاد خاشعة لتتمتع بما تتلوه زهرة اليانعة من كلمات لسامعيها .. ولتتمتع بجمالها ورونقها الاخاذ وهي تلف على جسمها ثوباً أبيض ناصعاً كوجهها الطاهر المنير .. ثم أبت أن لا تعكر صفو هذه الجلسة الطاهرة في بيت حكيم فرحلت خلصة كما جاءت بدون استئذان ببطء مثل اللحظات . وأسرعت لتتفقد ما تود أن تتفقد في ليلتها هذه فهرعت إلى حيث يقف مطار بيروت الدولي وعندما وصلته دخلت مباشرة إلى قاعة الترانزيت حيث كان السيد جوزيف يستعد للقيام بتنفيذ عمله ذات الرقم ستة آلاف وخمسمائة فراقبته بشدة .. وتبعته كما تتبعها اللحظة .

وها هو جوزيف النائب في مجلس؟؟ يبدو أنيقاً نظيفاً وعليه القيمة .. قد صعد أخيراً برفقة طفلة صغيرة على سلم الطائرة .. ولما صعد ودخل وجلس فجلست الطفلة أيضاً في الأمكنة المخصصة .. انهالت عليه التحيات من كل ركن في قلب الطائرة وتزاحمت المضيقات الجميلات على

(1) سورة مريم : الآيات من 15 إلى 33 في كتاب الله العزيز .

خدمته وراحته وخدمة من ترافقه .. ثم مرت عدة دقائق خلالها أغلق باب الطائرة وربطت الأحزمة .. لتقلع الطائرة وعلى متنها ضحية العملية ذات الرقم 6500 وما أدراك .. ما المطلوب هذه المرة .. عين بريئة ستنقل أم قلب لا يعرف الحق سينتزع غصباً .. ما أدراك ؟!

ومر الوقت سريعاً فغادرت الطائرة سماء بيروت قاصدة لندن مدينة الأضواء ومن جديد فرت ليلة الميلاد من مطار بيروت وهرولت إلى حيث يقف بيت المعلم زاكي ذلك اليهودي القذر المتهم على جماجم الموقى .. تلك التي تصله عن طريق أولاد الشقاء الذين صنعتهم ويلات الحرب الظالمة .

ها هي ذي ليلة الميلاد قد وصلت إلى حجرتها الطافحة برائحة الخمر في بيته المهلهل المقرف المملوء بالمطاحن وحولها تراكمت جماجم الموقى لتطحن طحناً .

ها هو المعلم الخبيث زاكي العجوز قد جلس مخموراً متوتر الأعصاب قلقاً لشيء ما .. ها هو يتمتم .. خائفاً ويقول في همس شديد لا تسمعه الجماجم .

- لقد تأخر أولاد الزنى .. لقد تأخروا الليلة يجب أن أطحن الكمية المطلوبة علي أن أطحن الكمية المطلوبة .

لم تفهم العظيمة ما كان يدور في خلد اليهودي القذر .. وكم سألت نفسها علام يجمع مثل هذا الكرنيب جماجم الموقى ولماذا يطحنها في مثل هذه المطاحن الغريبة العجيبة .. لماذا .. لا جواب .. أدرك هذا لا جواب .

ثم كرت ففرت هاربة من مكر ودهاء المعلم زاكي المخمور قاصدة القصر الناري .
وعندما حاولت أن تدخله خلصة بعد أن وصلت إليه ما استطاعت أبدأ لأن كارو ورفاقه ورفيقاتهم كانوا جميعاً بانتظارها .

ولما وصلت تمسكوا بها بإحكام شديد بعد أن أغلقوا النوافذ والأبواب لتظل العظيمة أسيرة بين أيديهم .. أسيرة لهم فقط في هذا القصر المطفوح بكل شيء .. ووحتها الشياطين والكلاب البشرية وقفت لتحرس هذا الضخم .. أقصد لتحمي من فيه .

ومن فيه .. كثير لا يعد ولا يحصى !!

العاهرات الجميلات السمر والبيض والصفر والسود .. وطاولات الروليت والبوكر والكونكان .
الأعضاء في مجلس ؟؟ والأعضاء في مجلس ؟؟ ورجال الأعمال والخمر بآلاف الأصناف واللذة المفقودة من أرض البشر .

الموز جاءهم من الصومال والتمور من العراق والأناناس من الغابات العذراء وقطاف وفير يهر من كل أصناف الفاكهة .. أقصد فاكهة كل الفصول تلك التي تصارعت وتصارعت لترتمي على مائدة كارو الفخمة في وقت واحد .. واصطففت على التوالي مزينة بالبالونات الملونة وبألعاب علي بابا وألعاب الأربعين حرامي وشجرة صنوبر صغيرة انتزعت الليلة من بين رفيقاتها وأهلها في الأحراش .. وقالبت كاتوا صنعه أمهر معمل حلويات في الشانزلزيه وجاء محملاً من باريس والشموع الطويلة العريضة قد جاءت من الشام .. وعلبة الهدايا المملوءة بالماش والذهب والياقوت .. وغير ذلك .

وها هم أولاء جميعا يمارسون اللذة بأشكالها والمصيبة أن أظافرهم وسخة قذرة .. ها هم اجتمعوا حول جهاز تسجيل فخم .. بعد أن دعاهم كارو لسماع موسيقى من نوع آخر . ها هم يستمعون ويستمتعون جميعا لموسيقى لا نعرفها نحن .. هي منا ولكننا لم نعتد أن نُطرب لإيها أبداً .. والموسيقى هي خلاصة مزيج من صوت عذراء تصرخ وتغتصب وصوت النار الذي يغرغر في الفرن .. الفرن صانع رغيف الخبز ولكن ماذا وراء هذا .. ألهذه الدرجة يبقى رغيف الخبز بباهم وهم يملكون أكثر ما تملكه الطبيعة ذاتها ؟
ألهذه الدرجة يطاردون الطفولة ويتمتعون بصراخها في مشهد اغتصاب يدوم حتى في مثل هذه اللحظات ؟

.. والجميع يستمتعون .. وأي متعة هذه !!
وموسيقى الغرابة صاحبة للغاية .. لحناً غريباً عجيباً لن تقبله مسامع العظيمة ليلة الميلاد ..
أبداً .. أبداً .

وها هي قد أبت الرحيل لكنها ما استطاعت أن ترحل فالشياطين قد تمكنوا منها بشدة وتالت الساعات .. غير خائفات وكارو بصحبة رفاقه ورفيقاتهم العاهرات الغانيات يتمتعون بشراهة مطلقة بجسد ليلة الميلاد الذي لطخته الخطيئة وأظافرهم القذرة بعد أن عروها ثيابها وأسكروها حتى الثمالة فسقطت خائفة مطيعة بين أياديهم فهبّ السحر غاضباً ليخلصها وما خلصها وأسرع الفجر يشع ليسعفها وما أسعفها حتى صرعت ذاتها بذاتها ودفنت جثتها بيديها في حضن الوجود فاخترقت عندما كان النعاس عظيماً بعد الفجر وبعد أن ذاب الشمع وصار بقايا لرحلة احتراق انتهت وببيروت باقية تحترق وعلى صدرها الألم وساماً لا يتزعزع وكل ما فيها نائم إلا صعب وأمثاله من أبناء جيله الذي سرعب بعد حين .

ما زالوا يتسكعون بالشوارع الخافية عارين من كل شيء وحتى من المأوى واللحمة والمشرّب .. أما الوسيم صعب ذاته فما زال ينتظر الفرصة . وينتظر الساعة أن يلتحم بقصة النور . ها هو يقظاً متفتحاً عنيداً يفتش ويتمحص وينقب في أمهات الكتب عن تاريخ يقرؤه ليده على ملاح ذلك الفجر الذي قد أطل للجماهير الضحية ..
ها هو يبحث في اجتهد بالغ لا يضاهيه اجتهد عن أي شيء يصور له أو يعلمه عن الولادة التي تمت بأعجوبة كالمعجزة تماماً .. وأي ولادة تلك !!

ومر ذلك اليوم ..

وتواردت من بعده عدة أيام خلالها اجتهد صعب في أن يجد شيئاً يدلّه على ما يريد . وقد أفلح أخيراً بالصدفة فوجد ما أراد في مكتبة صغيرة متطرفة وقفت بجروحة في حارة منسية من حارات بيروت بالرغم من أنها فقدت نصفها منذ أيام أثر ضربة « آربي جي » استهدفتها .
لقد عثر الوسيم بعد العناء والتعب على كتاب عنوانه « الماضي يبدأ غداً » ففرح لهذا كثيراً وفرّ بما وجد إلى أوديت يعلمها بأنه قد أفلح وعثر على ما سيدله على ملاح ذلك الفجر .
ولما وصل أعلمها بفرحته ثم أسرع فدخل غرفته مشتاقاً كشوقه لزيارة أمه ، ولما أوصد

الباب من خلفه انكب على السرير جالساً عليه نصف جلسة وبدأ يتمعن بغلاف الكتاب ثم قرأ ما كتب على الغلاف .. مرات ..

ثم بدأ بالقراءة فغاص بكل ما ملك بين السطور .. ولن ندعه هذه المرة يبحر لوحده فنحن أيضاً تواقون للابحار والبحث عن كل ما هو مفيد .. نحن أيضاً نود أن نتعرف على ملامح ذلك الفجر .. فلعل في ذلك فائدة ثم انتهاء .. ثم انتصار وانتصارات ولا أستبعد هذا طالما سيكون ذلك الانتهاء .. من أجل الانتصار .. هو أصلاً لخير الإنسان والإنسانية ..

سنقرأ .. ونسمع وندرك .. وتتمعن ما لم نقرأه ونسمعه وندركه من قبل بسبب التعمية الاعلامية التي تفرضها علينا السياسات الظالمة ويفرضها الحصار .

فتعالوا معي .. وأعدكم بأننا لن نفترق أبداً ..

تعالوا لنفوض ونبحر برفقة صعب في رحلة عاشت .. وعاشت .. ولم تنته .. لن تنتهي .. ورحلتنا في طيات ذلك الماضي الذي سيبدأ غداً .

الفصل الثالث عشر

سنوات ما قبل الولادة :

لم يكن الشيخ الفاخري⁽¹⁾ الذي طالما طاف كثيراً في أغوار الصحراء اللاذعة يتنبأ بانفثاق الفجر منها .. لأنه كان يدرك جيداً أن مثل هذه الصحراء العطشى لكل شيء المسلوقة من كل شيء المنسية الواقعة على هامش الزمن والتاريخ غير قادرة على العطاء أبداً . وكذلك ليبيا المنهكة المطحونة الغائبة في ضمير ذاكرة الزمن التي طالما لاقت من العذابات والويلات والآلام والاضطهاد يوم كانت مسرحاً لا يغلق الستار . ولا يتوقف عن عرض مأساوي يثير الاشمئزاز والقرع لسياسات استعمارية مختلفة ومتضاربة ، جاءت إلينا تتناحر وتتصارع لتذبح وتقتل وتنتهك لتبلي مطامعها وتحقق طموحاتها التي لا تنتمي لطموحات البشر . ليبيا البدوية السمرء .. عريقة النسب .. ليبيا العطشى ما كانت تدري أبداً أن الفجر سيزغ من صلبها . منها . وكذلك أمة العرب بأجمعها تلك الخانعة المطيعة لأذنان السياسة المتسلطين على خيرات الشعوب وأنفاسها الذين ما زالوا يتربعون في الديار .. ويدركون عنا ما ندركه وما لا ندركه عن أنفسنا .

أمة العرب الخانعة الخائفة لم تكن تتوقع أبداً أن ينبثق من صلبها الفجر ويشع إلى ما لا نهاية . ووحده الاستعمار صاحب المخالب الفولاذية كان يتوقع وللوهلة الأولى أن متاعباً قد تهبُّ في وجهه وتدفعه إلى الهلاك وتحطم كل طموحاته الشيطانية .. سرها يكمن في تلك الصحراء العطشى الملتهبة وجهاد العربي الليبي في مثل هذا الموضع شاهد على ذلك فنحن لا ننسى أبداً شيخ المجاهدين البطل العربي عمر المختار .. ولا ننسى أمثاله من الذين استشهدوا مجتهداً مجهولين أمثال سعدون⁽²⁾

(1) هو محمد الفاخري .. فقيه عربي ليبي كان يفد إلى الصحراء ومن عادته التجول في رحابها ليعلم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وبعض الآيات القرآنية .. وهو من عائلة الطيور القاطنة في مدينة « سبها » وما زال حياً يرزق .. المؤلف « .

(2) محمد سعدون الشتوي السويحلي .. أصغر أبناء الشتوي من مدينة مصراته شرق طرابلس على بعد 213 كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط .. تولى قيادة المجاهدين في منطقة مصراته بعد وفاة أخيه رمضان سنة 1920 م وأثناء عملية إعادة الاحتلال الإيطالي من قبل القوات الإيطالية لمدينة مصراته تصدى بقواته للغزاة الطليان وعندما تمكنوا من احتلال المدينة انسحب بقواته إلى منطقة سدة الواقعة في شرق شمال بني وليد وظلّ من موقعه يهاجم تلك القوات حتى استشهد شهيداً 1933 م في معركة =

وعبد السلام (1) أبو منيار والجالط (2) وغيرهم .

أما كرة الأرض فلم تبهر لبزوغ ذلك الفجر وكذلك العالم .. العالم الذي لا يعني لي بالتالي .. الانظمة والحكومات .. أقصد بهذا العالم الضحية ذاتها .. الشعوب المغلوبة .. المضطهدة منذ العصور السحيقة ..

ولقد أدركت كرة الأرض والعالم كذلك أن زمن الضحية قد جاء لينتصر بعد غياب طويل قد طال .. جاء ليغمر الأرض ويحييها مرة أخرى ولن يفرح في هذه المرة إلا من كانوا هم الضحية على امتداد الأزمان أولئك الذين خضعوا منذ فجر البشرية فكانوا أول الأمر اتباعاً ثم تطورت بهم الحال فصاروا عبيداً ثم تطوروا فأصبحوا رقيقاً .. وبعد الرقيق أذنان وبعد الأذنان .. أذيان ثم خيال . ثم كادوا أن يمسحوا مسحاً وكادت رؤوسهم أن تطحن طحناً .. لولا أن زمن الضحية قد جاء مسعفاً ليصبحوا في ظله هم الأسياد .. هم الأسياد .

ومن البديهي لو قلت .. عاشت الأنظمة الرجعية والرأسمالية نصف عمر البشرية وعاشت الأنظمة الشيوعية الربع الثالث وسادت في آخره من عمر البشرية .. وإلى هذا الحد أصابها الاشباع غصباً فجاء زمن الضحية ليعيش الربع الأخير في حياة البشرية . وهذا أبسط حقوقه على الاطلاق ألا توافقني بذلك .

ما دامت هذه هي أصلاً مشيئة الله عز وجل ولكن يحضرنا سؤال صعب يقول :
على من وقع الاختيار في الزمن الصعب الأكثر عهراً ورذيلة ليفجر عصره أراد الله للبشرية بعد زمن المعجزات .. وبالتالي لماذا كانت الصحراء الليبية هي موطن الولادة الأولى ولماذا « جارف » (3) بالذات .. تلك الضائعة منذ فجر التاريخ من خارطة الزمن .. ولماذا من خيمة الفاضلة زوجة أبو منيار ؟

= « الشرك » . وهو موقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة مصراته ونستطيع أن نحدد موقعه على أنه بين مدينة مصراته ومنطقة السدادة السابق تحديدها .

راجع في هذا الصدد كتاب « سعدون السويحلي » للكاتب العربي علي مصطفى المصراطي .

(1) هو محمد عبد السلام أبو منيار .. محاهد عربي ليبي من قبيلة القذاذفة القاطنة في مدينة سرت في الصحراء الليبية .. شارك في عدة معارك الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي من بينها معركة القرطابية ومعركة يوم السبت ويوم المويلح وغيرها .
راجع في هذا الصدد كتاب « القرطابية أسماء وأرقام » الصادر عن مركز الجهاد الليبي - طرابلس الغرب .

(2) هو الشيخ الجالط البرعشي .. أحد المجاهدين الليبيين الذين كانوا يتركزون في منطقة الوسط في ليبيا وفي سنة 1928 م حاولت القوات الإيطالية أن تطوق تجمعات المجاهدين في هذه المنطقة في عملية عسكرية عرفت في المصادر الإيطالية بميليات شمال خط 29 وعندما شعر المجاهدون بهذا التطويق عقب معركة تافرفت بدأوا يندفعون جنوباً للخروج من هذا الحصار الذي حاولت القوات الإيطالية فرضه .. فجمع الجالط أباه وأخذ بناته الثلاثة واتجه بهن جنوباً أسوة ببقية المجاهدين وبينما كان يندو السير جنوباً اصطدم بالقوات الإيطالية التي كانت منسحبة من تافرفت .. فطلبوا منه الاستسلام إلا أنه رفض وبأدبرهم بإطلاق النار بعد أن تحصن في موقعه برفقة بناته الثلاثة .. واستمر الاشتباك بينه وبين القوات الإيطالية على مدى خمس ساعات تقريباً وحيث أن الجالط من الرماة الجيدين فقد استطاع أن يقتل ما يقارب من ستة عشر رجلاً قبل أن يستشهد . ويعتبر هذا الموقف في حركة الجهاد العربي الليبي ضد الغزو الإيطالي ليس موقعاً فريداً حيث أنه تكرر في مواقع كثيرة إلا أن ندرته في هذا المجال أن من وقف هذا الموقف كان شيعياً كبيراً وهذا ما يميزه كحدث يجعلنا نتحدث عنه بفخر واعتزاز ..
« مركز الجهاد الليبي - طرابلس الغرب » .

(3) جارف .. واد بأرض سرت وبه آبار كثيرة .

وعلى هذا السؤال نجيب :
يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾ (1) « صدق الله العظيم » .

من كلام الباري العظيم يتبين لنا أن الخالق عز وجل قد خلقنا .. خلقاً آخر بعد أن مرت الولادة بعدة مراحل .. أولاً من طين ثم نطفة في قرار مكين ثم علقه من مضغة ثم عظاماً فلهماً وما بالك بمشيئة الحكيم لو أراد للبشر عصراً .. فهلم بنا لتتبع المراحل بإذن الله منذ الولادة وحتى مطلع الفجر الأول ثم مطلع الفجر الثاني ثم مطلع الفجر ذاته .

المرحلة الأولى :

- الرحلة من رحم الفاضلة إلى حضن العملاقة .
- الزمان : قبيل غروب شمس آخر يوم من أيام تموز صيف عام 1941 م العام الذي وصل فيه المارشال رومل إلى طرابلس والذي استطاع بدوره احتلال مدن درنة (2) وبنغازي واجداليا فتحوّلت ليبيا العربية إلى ساحة قتال كواحدة من أبرز ساحات القتال خلال الحرب العالمية الثانية .
- المكان .. الخيمة الثامنة الواقعة في حضن النجع القريب من « بئر الكراعية » الواقف منذ سنين في وادي جارف الثالث غرب سرت في رحاب الصحراء الليبية .

(1) سورة المؤمنون الآيات : 12 إلى 14 في كتاب الله العزيز .

(2) درنة : من المدن القديمة اقيمت على جزء من مدينة (درنيس) المدينة اليونانية القديمة التي كانت عاصمة ليبيا الشرقية (مر ما يريكا) واغلب انبثا على الطراز العربي القديم .
ويبدو أن أول من أسس مدينة درنة الحالية هم الأندلسيون الذين نزحوا إليها عام 1040 هـ⁽¹⁾ ، أما الدليل السياحي فيقول (يرجع عهد تأسيس المدينة الحالية إلى سنة 1493 م عندما استقرت بها بعض العائلات الاندلسية التي هاجرت إليها بعد سقوط غرناطة) .
ويمر بوسطها نهر ينحدر من الجبل الأخضر من عين بومنصور وقامت مياه النهر على البيوت والبساتين وتكثر فيها انواع الفاكهة وخصوصاً الموز وقد اشتهرت بمجودته .. ولأهلها نشاط واضح في التجارة وهي بنين على لسان تمتد من البحر من الجنوب إلى الشمال وبها مرسى بحري صغير في جهتها الشرقية كانت ترسو فيه السفن على بعد قليل من البر وتقع مدينة درنة شرقي مدينة بنغازي ينحو 280 كم وفي درنة الكثير من قبور الصحابة استشهدوا جميعاً في معركة مع الروم سنة 71 هـ واشهر القبور قبر زهير بن قيس البلوي الصحابي كان من سبعين رجلاً من أصحابه .
وفي سنة 1805 م أيام يوسف باشا القرمنلي حاول الأمريكيون احتلالها وشهدت شواطئها معارك ضارية وانتهت بأسر أضخم بواخرهم (فيلاديلفيا) ومن ثم عقدت اتفاقية بين يوسف باشا وأمريكا لذلك الغرض .
احتلها الايطاليون سنة 1911 م واخرجهم منها الانجليز في أواخر سنة 1942 م وسكانها خليط من القبائل العربية .. ودرنة اليوم من المدن الضخمة تكثر بها الحدائق الغناء والكبارى وشوارعها واسعة ومنظمة وبها أسواق حافلة بالتجارة وعدد من الفنادق الممتازة وبها كثير من المدارس والمعاهد العليا . « معجم البلدان الليبية » .

(1) العياشي .

الرتم والشعال والسدر والشيخ ، وكذلك البطوم والتين الشوكي .. شجيرات وأعشاب
تفاخرت بها الصحراء على مدى الدهور .. وها هي قد سقطت وأعلنت مصرعها قبل قليل
فصرعت بعد الهلاك وبعد ما أصفرت أوراقها وعيدانها وتفتت فانتهدت على مرآة الرمال وعين
الشمس الراحلة .. والحرب العامة الثانية بويلاتها ما رحلت بعد .. ووحدها شجيرات الطلح وقفت
عنيذة عطشى ما انخرطت في مهرجانات الموت الجماعي

وها هي باقية لا تود الموت ولن ترضخ أبداً للانتحار الجماعي .
ها هي ذي تنتشر انتشاراً من جارف الحزينة إلى أبو هادي⁽¹⁾ الوادعة المسكينة وإلى
« سرت »⁽²⁾ وعبر الصحراء الظمآنة .. تنتظر أن يمن عليها الرب فيجيئها ماء المطر مسعفاً فتجيئها
الحياة .

وكذلك جارف العنيذة الصابرة تلك المرمية المنسية المسوحة تماماً من خارطة الزمن لن تأبى
الموت ولن تخضع للانتحار الجماعي بل وقفت بعناد أمام أشباح الطوفان وأي طوفان ذاك !!
الباعوض .. يحمية الجراد وتحمية أمراض الحمى والجدرى والتيفوئيد .. جاءها مارداً فتاكاً
استهدف كل ما يتنفس في حضنها فالتهم كل ما كان يسقط بين يديه من الأطفال الرضع وغيرهم
وحتى القطط المستيرة والعصافير ووريقات الطلح المتمزقة .

و الجوع .. جاءها عملاقاً كالأسطورة وبات فيها مستوطناً كالسلطان يتربع بأناية مطلقة في
الديار المتبعثرة ولا يتزعزع .. لقد استطاع أن يغمس المرارة في الأفواه العطشى والأعماق الظمآنة
الطفلة والشابة والهرمة .. فطارد الحيوان وطارد النبات وحتى الهواء ذاته كاد يمتص منه الأوكسجين
فسقط أمامه وعلى يديه مئات الضحايا .

والجفاف .. جاءها غولاً لا يرحم .. حليفاً وفيماً للجوع الذي طال عمره في هذه المخيمات
المغلوبة .. لقد جاءها غولاً يطارد البدو فيمتص رحيق أرضهم حتى اضمحلت الأرض وما اضمحلوا
وهلكت وما هلكوا .

أما سيد الطوفان فهو العطش رفيق الجوع سالب الروح من الجسد ذلك المرعب الذي امتد نفوذه
من جارف وإلى أبو هادي ثم إلى الصحراء بأكملها .

لقد انتصر الطوفان بالباعوض والعطش وبمرارة الجوع والجفاف .. انتصر على جارف الصغيرة
وعلى جاراتها في عرض الصحراء وطولها وسلخ من جسمها جلدها .. فعرها وأفسد ما أفسده فيها

(1) أبو هادي - قصر قديم في سرت يقع في الجنوب الغربي من مدينة سرت بحوالى 19 كيلومتر به آثار قديمة وبئر ماء .

(2) سرت (سرت الجديدة) أنشئت سنة 1203 في عهد أحمد راسم باشا حاكم طرابلس وتقع على البحر في نهاية خليج سدرة الجنوبي
الغربي ولها مرسى صغير . وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 475 كيلومتر .

وقامت سرت القديمة من الشرق ومن الجنوب من مصراته بنحو 260 كيلومتر احتلها الطليان في أوائل سنة 1913 م وخرجوا منها
بعد معركة القرقابية سنة 1915 م ورجعوا إليها سنة 1924 م وخرجوا من طرابلس كلها في أوائل سنة 1943 م وهي الآن مدينة
كثر عمرانها واستوطنها من أهل بادية سرت وهي مركز تجاري مهم بين شرقي ليبيا وغربها وجنوبها لأنها تقع في مثلث بين طرابلس
وبرقة ، فزان ، وتمتاز الأراضي المحيطة بها بالخصوبة وتكثر فيها الحيوانات لما فيها من جودة المرعى وكثرته .

حتى باتت بمجملها وكأنها جسد طفل ينازع من شدة الألم .. لا الدواء موجود وما من مسعف أو مغيث .

ووحده الاضمحلال سيد الموقف ظل راقداً راقداً عميقاً في صلب كل شيء باقي وكل شيء باق بات ينتظر الموت لأنه فيه تكمن الراحة ويكمن الخلاص من كل هذه الويلات الجسام . لكن جارف التي فقدت الكثير .. وكذلك الناس الطيبون الذين تأملوا مثلما تأملت بعناء وبصبر يضاهي أمل النازحين من فلسطين بالعودة .. وصبر أيوب ذاته على أن تتبدل الحال بعد حين وما تبدلت تبديلاً عادياً !! .. ومن هؤلاء الذين أرهقتهم الحياة حتى الثألة وظل الأمل برآقاً يسكن في أعماقهم ..

البدوية عائشة تلك التي فقدت بعض أولادها أثر الطوفان .. طوفان الحمى والباعوض والجفاف وعاشت من بعدهم الحسرة والألم وما أدراك بذلك الألم ما أصعبه .. ما أعظمه .. وعائشة البدوية امرأة رائعة وروعته في صبرها وإيمانها .. شقراء بيضاء بياضاً ناصعاً أخذاً قلما أن تجده في الصحراء السمراء الحارقة ، وعيناها السوداوان ما زالتا تشتكيان من شدة الألم والعذاب وترقبان كل ما يجري في عراء هذا الوادي من عواء .. ونواح ونباح .. وجسمها المكتنز اليافع القوي البنية كقوة إيمانها بالله ساعدها مراراً على القيام بالأعمال المجهدة وعلى مساعدة زوجها المجاهد الذي كاد يسقط مع من سقطوا من المجاهدين ذات يوم في معركة القرظاية . وهي قاطنة تلك الخيمة الواقعة على كتف الخيم في حوض النجع القريب من « بئر الكراعية » ذلك المتمرد وعلى مر السنين .

وتلك الخيمة الثامنة قد وقفت حائرة خائفة من السقوط والانهيار حيث قامت على عدة أعمدة تهزها الريح متى تشاء وبدون استئذان ولا تبالي بأوتادها .. فتقذف بها عشرات الأمطار لو أرادت .. ويبللها المطر في الشتاء القارص ولو أراد يغمسها في الرمال غمساً وتلذعها أشعة الشمس في الصيف الحارق ولو أرادت تحولها إلى حريق بدون هب وكذلك يصرعها الخريف بكل ما يجيء به من عجاج ورياح .. وأتربة تكاد تغمرها تماماً .. وفي الربيع قد تنبت في حضنها وردة أو نبتة شوكية وقد تدخلها النسمات الرقيقة كما تسرح في أجوائها الداخلية كل نسمات الفصول .. ولا يستبعد الضباب أبداً أن يدخلها وكذلك الرمال .. ويمكن لأفاعي الصحراء أو عقاربها السامة أن تتسلل إليها بسهولة وتدخلها بدون عناء .

تلك الخيمة يمكن لكل ما في الطبيعة أن يقرب منها وأن يتدخل في حياتها ووحدها الطبيعة طيبة البدو الرحل تبقى ملازمتها تماماً كقاطنتها الجميلة عائشة وصغيراتها سالمة وعتيقة والزادمة أما عن زوجها المجاهد ما عاد بعد من رحلته إلى فزان⁽¹⁾ تلك الرحلة التي يعتادها من حين إلى آخر .. يذهب إليها بالإبل ليعود منها بالتمر .. وسيعود بعد أيام فما مضى على رحلته الأخيرة شهران وأكثر .

(1) ولاية فزان .. هذا كان زمن النظام الفدرالي الذي انقضى عام 1963 وأصبحت ليبيا وحدة واحدة وهي عدة واحات واقعة جنوبي مدينة طرابلس بنحو 970 كيلومتر وأصلها من مواطن البربر القديمة ولما ذكر في التاريخ القديم ، أرضها خصبة ومياهها الجوفية وفيرة وبها نخل كثير يعد بمئات الألوف .

وها هي ذي البدوية عائشة تجلس القرفصاء على مقربة من خيمتها مع مغيب الشمس تترقب رحيلها .. وتترقب الطريق المؤدية للوادي فلعل زوجها يطلّ بغد الغياب .. وما طل ثم ترقبت كل ما كان يجري من حولها .. الناس والقطيع .. والدجاج والعطش ذلك المتربع في كل ركن وزاوية وزحام الجميع حول البئر .. والوادي على حاله بعد أن اجتاحه الطوفان بكل ما ملك .
وكرة أخرى عادت لتتمعن بعين الشمس الذاهبة .. وما أن ذهب الشمس في طريقها حتى جعلت عائشة تمحّد بعيون السماء الرحبة طويلاً .. طويلاً .. لتقول شاكية راجية تناجي ربّ الوجود بعد أن رفعت يديها عالياً باتجاه السماء .
ربي ..

ربي .. ما خلقتني لتعذبني وبسياط البؤس والحرمان لتجلد أهلي وتجلد جسمي .
يا أيها البارئ يا منقذ العباد انقذني وخفف عن صدري لهيباً يكاد يذبحني .
يا عال .. يا مسعف اسعفني فالحمى التهمت صغاري ومثلها الباعوض قد فعل فالتهم حسني ودفعني .

ربي .. يا أيها الصمد يا واحد أحد من رزقك ارزقني وهون على ناسي وسماري وأهلي .
ربي ما أخطأت بحقك مرةً لتأخذ مني ما تحبه نفسي وتجفف حلق جارف وحلقي .
ربي يا قيوم ما نسيتك قط لتنسائي وتجنّوني وتقرّب حسني ووجداني .
فهيأ .. يا ربي أرني وجهك ولو مرةً تحمد في رؤياك لهيبي وناري ..
أرني وجهك طالما أنت الحق .. الوهاب الباني ..
وما أن سكنت حتى سُحت من عينيها دموع حرى فأجهشت بالبكاء طويلاً .. بكاء فيه ما فيه من المرارة والألم .

وقبل أن يخيم الليل على الوادي والنجع دلفت إلى خيمتها حزينة كئيبة ثم أصابتها على الفور رجفة شديدة أفلقت صغراتها .. واحتارت أكبرهن ماذا تفعل لاسعاف أمها .. وبعدها ارتبكت قليلاً هرعت إلى حيث يقف الوعاء المملوء في الماء بزاوية الخيمة .. فتناولت من على الأرض الإناء الخشبي الصغير وغرفت فيه بعض الماء من الوعاء وأسرعت إلى حيث تمددت عائشة فرمت بالماء على وجهها .. والأم ما استفاقت .. ما زالت تملكها غيبوبة .. ولا جدوى مما فعلت سالمة .. وقبل أن يدهمها الخوف والاضطراب على صحة أمها راحت لبيت عمها تستعجلهم راجية ملهوفة لاسعاف أمها .

في تلك الأثناء صرخت الصغيرة الزادمة الدلوعة التي ما تجاوزت نصف عقدها الأول .. صرخة حادة ومفرقة أفرغت أختها عتيقة تلك التي تكبرها بثلاث سنوات وأفرغت من يقطن حولهم في الخيام .. وما كان من عتيقة إلا أن شاركتها الصراخ والبكاء وعلى صوتهما حضر أهل النجع بمن فيهم الصغار والصغيرات رفيقات الزادمة وعتيقة إلى خيمة المجاهد .
فأسرعت النسوة لاسعاف عائشة بالطرق الأولية السائدة المألوفة .. وضجت الخيمة بكل هؤلاء الطيبين .. وانهمكت الصبية سالمة باشعال الحطب للإنارة بعدما هلكت في البحث عن فتيل الزيت الذي اختفى في الرمال .

وعلى ضوء نار الخطب .. شكل الجميع نصف حلقة دائرية حول عائشة تلك التي استفاقت أخيراً من غيبوتها بعدما جُرعت ماء العشب المغلي .. ففرحت الصغيرات وكذلك أطفال النجع .. وبدأ الحديث يدور .. في فلك الأمس البعيد .. وبداهم هذا الوقت المر الذي يحياه الجميع .. بدأ الحديث الذي لا تقيده قيود .. ولا يخضع أبداً للمجاملات والتعذيب .. ذلك الحديث الأكثر نقاء وصفاء محوره الألم والشكوى والنجوى وهدفه التمر من فزان .. ورحيل الإبل من جارف .. كان حديثاً جماعياً لن تذوق طعمه الحضارات المدنية .. حديثاً للنساء والرجال والأطفال والشيوخ .. ديمقراطياً خالصاً .. الكل يتحدث ، الكل يعاني ويتألم وبالتالي الكل سيشرب الشاي المصنوع على نار الخطب من يد الصبية الناعمة سالمة .. تلك البدوية كأماها شقراء بيضاء امتازت بما حفلت أمها بميزات وسمات فهي عائشة الصغرى ذاتها .

ونار الخطب مضيئة وهاجة ككل هذه الوجوه .. والنفوس ذاتها بدوية أصيلة لا تعرف الخداع ولا الكذب .. بدوية صافية مثل الرحاب في الفجر ومثل العطش في هذا الوقت تتمنى .. وتتمنى ولا تترجى غير الله .

ولما مر الوقت الذي لا يهم هؤلاء لأن الساعات عندهم تدخل دوماً في حدود الانتظار .. انتظار ما ستبعثه السماء اليوم أو غداً .. ما زال الكل ينتظر المطر .. ينتظر أن يحيا الوجود بالخضرة والخير .. وما أمر من مرارة ذلك الانتظار !!

وعندما تخمدت نار الخطب .. وصار الضوء منها وفيها باهتاً ضعيفاً .. وصار في ألوانه مزيجاً شفافاً مثل لون غروب الشمس في يوم غائم .. هزعت عندئذ النفوس الشفافة ودلفت إلى خيامها .. لتنام وتحلم بالماء والخضرة وبكل ما يرضي الظمان في صحراء قد نسبها الزمان .

وها هي ذي قد نامت الزادمة الصغيرة وكذلك عتيقة وما نامت عائشة من شدة الألم وكذلك سالمة التي أصابها القلق والخوف على صحة أمها . بعد أن أسدلت على وجه الخيمة ستاراً لن يسدل فيما بعد أبداً .

ومضت تلك الليلة بما حفلت .. وغابت من عمر النجع وعمر القاطنين فيه وعمر الزمان بعينه .

وجاء صباح اليوم التالي فأشرق شمس الصحراء ومع شروقها وصلت طلائع قافلة التمر القادمة من فزان .. فوصل معهم المجاهد غائماً بالتمر وبيع بعض أكياس الشعير وبلغافة الحبال التي حملها خصيصاً ليصنع منها أوتاداً تمكن خيمته في الأرض التي وقفت عليها .

.. وها هي قد دوت الزغاريد .. زغاريد الفرحة تلك التي تطلقها أفواه النساء وهن يستقبلن رجالهن .. لقد جاءت الفرحة وأي فرحة تلك !!

لقد فرح الصغار والكبار نساء وشيوخاً وأطفالاً .. للتمر والحبال .. للمعدة الجائعة وللخيمة التي كادت أن تسقط من الريح وتهار .

.. وها هي الزادمة تهرع حافية القدمين باتجاه القادمين إلى النجع تبحث عن المجاهد ذاته وما أن رآها حتى سارع وضمها وحملها بين ذراعيه ثم مد إحدى يديه إلى حمله وناولها بعض حبات

التمر .. وكم فرحت الزائدة بحبات التمر .

وبعد أن وصل المجاهد لحيمته ولما دلف إلى داخلها وجد عائشة قد انتابتها وعكة صحية فأسرع نحوها بلهفة ليطمئن عليها فاطمأن ثم قبل الصبية وضم إليه عتيقة .. وفر بعد ذلك ليفرغ حمله في زاوية الخيمة .

في هذه الأثناء نهضت البدوية عائشة من رقدها وعزمت على أن تعد لزوجها وصغارها وجبة طعام الافطار .. فكابرت على الوجع وآلام المغص الذي داهمها منذ ليلة الأمس .. وأحضرت « الجاروشة » ثم تناولت حفنات من حبات الشعير وبدأت تطحنه وبعد الطحن عمجته بالماء ثم خرجت من الخيمة بالعجين قاصدة التنور الواقف على كتف الخيمة .. وبعدما كسرت الحطب واشعلته انتظرت .. وانتظرت حتى التهب النهاباً فشوت على ظهره خبز الشعير .. ثم عادت بما صنعت يداها لزوجها وجلست على مقربة منه برفقة صغيراتها ليتناول الجميع وجبة الافطار بعدما جاءت سالمة بالحليب والبيض .

وعلى مائدة الافطار .. تلك المائدة المتواضعة جلس المجاهد وعائلته لتناول الطعام والشراب ثم دار الحديث .. بين استفسار وجواب بين المجاهد وزوجته حيث قال يخاطبها :

- أما زلت تتألمين يا أم سالمة .

أجابته عائشة بعد أن أشرقت على وجهها الابتسامة قائلة :

- لقد زال الوجع .. وكل ما في الأمر مغص في المعدة لا أكثر .

وعلى الفور قاطعتها الصبية سالمة قائلة تخاطب أباهما :

- لقد أصابتها غيبوبة طويلة ليلة أمس .. وطوال الليل لم تنم .. لكنها تكابر أمامك يا أبت . المجاهد وبعد أن تهد تنهيدة قصيرة قال :

- ولكن ما الذي يمكننا أن نفعله في هذه الديار يا ابنتي .. فالدواء غير موجود وكذلك الطبيب وكل ما بودنا فعله هو أن نجربها ماء العشب المغلي .. وننتظر رحمة الله . فأردفت سالمة قائلة :

لقد جرعت ماء العشب المغلي منذ ليلة البارحة .

المجاهد وبعد أن نظر طويلاً إلى عيني عائشة قال :

- هل أنت بخير يا عائشة .

أجابته عائشة قائلة بعد أن اصطنعت على ثغرها ابتسامة ما كانت عريضة :

- بخير والحمد لله .. الحمد لله لقد زال الألم برؤياك يا محمد .

فابتسم المجاهد ابتسامة ملتها الطيبة .. وتابع تناول الطعام .

وما هي إلا بضعة دقائق قد مرت حتى حضر إلى الخيمة الشيخ مسعود شقيق المجاهد وعلى الفور نهض المجاهد وكذلك أم سالمة وسالمة من على مائدة الافطار تحية للشيخ .

وعندئذ نطق الشيخ قائلاً بتواضع : اجلسوا .. اجلسوا .. فجلسوا على مائدة الطعام مرة أخرى .. وعتيقة ومثلها الزائدة مازالتا منهنكيتين بالتهام الطعام دون أن يباليا بحضور الشيخ الذي

أخذ يخاطب عائشة قائلاً :

- وكيف حالك اليوم يا أم سالمة .

عائشة : بخير والحمد لله .. لقد زال الألم .

ثم كرة أخرى أردف الشيخ مسعود قائلاً يخاطب المجاهد :

- وأنت يا أخي كيف حالك .. هل توقفت في فزان .. وكيف حالها وحال أهلها ؟

أجابه المجاهد قائلاً بعد أن ناوله كأس الشاي :

- الحمد لله على كل شيء .. أما عن حال فزان وأهلها فهي تشكو مثلما نحن نشكو وتنالم

مثلما نتنالم فالحرب يبدو أنها لن تدع شبراً من أرض ليبيا إلا ورمت بولاياتها عليه .. فلقد

تحولت البلاد إلى ساحات قتال .. الألمان والانجليز .. وغيرهم من المستلطين وحربهم الثائرة التي

لا تسكت .. أما عن المفايضة فلقد تمت بسرعة مذهلة .. ففزان بحاجة إلى اللحوم وعلى الأقل فهي

تمر في موجة جوع مؤلمة .. أما نحن فلقد فزنا بالتمر .. والشعير والحبال .. بعدما الجفاف أخذ منا

كل شيء .. والمهم طمئني على أحوال جارف وعن أحوالك يا أخي ؟

« آه .. لقد أتعبنا الزمان » كذلك قال الشيخ مسعود بعد أن تنهد تنهيدة طويلة لفظتها أعماقه ..

ثم عزم عليه المجاهد أن يشاركهم طعامهم .. فتناول الشيخ بعض حبات التمر ثم استأذن

وانصرف إلى خيمة أخرى ليطمئن على العائدين من فزان .

ومرّ ذلك اليوم .. ومرت من بعده أيام الصيف .. فجاء الخريف غاضباً عاصفاً .. كما كانت

الحرب العاصفة تعصف بالصحراء ولبلييا .. ووحده الوادي ما زال يصرخ مثلما تصرخ فيه الرياح

وتصفّر فاصفرت الحياة بكل ما فيها ودبّ سلطان الخوف مرعباً فترجع في النجع وفي داخل أجواء

الخيام ، وفي نفوس قاطنيها حيث أن التمر أوشك على الانتهاء والحبال قطعتها الريح العاصفة وكم من

خيمة أسعفت وهي تطاوع الريح لتسافر في حضنه .. وكم لسعت الرياح الباردة أجساد هؤلاء

الواقفين في عراء الكون لا يمتصّتهم الوجود بمدنيته .. تحتضنهم الصحراء وحدها .. لكنها تخيفهم

ولا تخيفهم ثعالبها .. وما استطاع الزمان ذاته أن يدرهم أو يمسخهم مسحاً فما زالوا ضعفاء أقوياء

بملكون القوة من ضعفهم ومن خوفهم ومن أجوائهم .. تلك التي لا نعرفها .. ولن نعرفها

سواهم ..

وذاث ليلة من ليالي ذلك الخريف الغاضب ... وبينما كان المجاهد وزوجه وحولهما الصغيرات

قالت عائشة بفرح يضاهي فرح ليبيا بالاستقلال تخاطب زوجها بانتسام :

- إلي حامل .. إلي حامل .

فدهش المجاهد مما قالته ثم أصابته الفرحة .. وفرح .. وفرح دون أن يتكلم أو ينبس بهنت شفة ،

فقفزت سالمة من مكانها .. ومن فرحتها على ما قد سمعته من أمها قبل قليل حيث أخذت تقول

لها : ان شاء الله صبي .. فنحن بحاجة إلى أخ جميل مثلك يا أمي .

في هذه الأثناء قالت عائشة بسريرتها راجية :

« يا رب ولد .. يا رب ولد لتفرح به الصغيرات. وفرح المجاهد فأفرح أنا وتعمر حياتنا وليتها به

تعمر بعد كل هذا العناء والتعب » .

وكذلك في نفس اللحظات جاء الذهول ليخطف المجاهد فأخذه بدوره يتخيل .. ويتخيل ويتلذذ بما يتخيله .. فلقد تخيل أن زوجته قد وضعت ولداً جميلاً .. ففرح فرحة عظيمة ثم استيقظ فجأة من ذهوله حيث قال في سريره بعد أن لفظ من أعماقه آهات حزينة : « يا رب .. يا رب » . إلا أن الزادمة وعتيقة قد استسلمتا للنوم فنامتا نوماً هائلاً مثل تلك الليلة الهائلة . وبعد منتصف الليل من ذلك اليوم نامت سالمة وكذلك أمها وأبوها .. وما نامت الفرحة حتى في أحلامهم ..

وأخذ الخريف يسرح بما ملك ويمرح بهؤلاء الطيبين وكم صرعهم بويلاته ورياحه وأعاصيره حتى جاء من بعد الشتاء معطاء مسعفاً .. جاء غريباً على غير عادته فهطلت الأمطار بغزارة وشربت الأرض العطشى روحاً جديدة فتشطت مرافق الحياة بمجملها . وفرح النجع وأهله بالمطر .. وبهذا الشتاء الخير بالرغم من أن ماء المطر ذاته قد غمرهم غمراً وأفسد كل وسائل تدفئتهم .. لكن النفوس ذاتها كانت تتلذذ بعذابات هذا الشتاء وتتلذذ بالبرد والصقيع وبألوان البرق والرعد لأنها كانت بحاجة إلى الحياة والمطر .. بحاجة لأن يدوم هذا الخير ولو كفهم ذلك أن يهلكوا من شدة قساوة البرد والصقيع .. ومهما هلكت خيامهم أو غمرت أو حتى انغمست في الرمال غمساً .. المهم أن الأرض ذاتها تشرب وكذلك النبات والحيوان وبئر الكراعية قد طفع بالماء حتى الثمالة .. والكل يدرك جيداً أن ما بعد هذه العذابات سخاء كبيراً ستمنحهم إياه أهمهم الأرض وما طالت أيام الشتاء بالرغم من أنها كانت قادرة تماماً على أن تروي كل شيء حتى الثمالة .. فالقاع ارتوى وكذلك الروح والجسد وحتى الحلم ذاته . وبعد أن راح ذلك المطر الكريم المعطاء .. جاء الربيع متباهياً .. وغير متكبراً .. زاهياً براقاً أزهى بقدمه الليلي والأمسيات السامرات الحالمات الزاهيات .

وبالضبط في آخر يوم من أيام الربيع .. كانت عائشة تتخبط ذاتها بذاتها .. وتستعد قبيل الفجر لاستقبال مولودها .. وكل ما في الخيمة مضطرب اضطراباً شديداً .. شديداً . الزادمة تتألم على صيحات أمها .. وكذلك عتيقة تبكي عليها .. أما سالمة فكانت تدعو ربها راجية بأن يرزقها أخاً جميلاً مثل أمها .. أما عائشة ذاتها فما زالت تصرخ وتتألم .. وها هي تلف بقبضة يدها اليمنى جدولتها الغليظة .. وتدهس طرف الحصيرة في يدها الأخرى .. وتساعدها على الولادة جارتها مبروكة بنت أحمد .. والكل ينتظر .. الكل يبدو قلقاً .. قلقاً بالغاً .

وها هو ذا المجاهد قد خرج من الخيمة تاركاً فيها صراخ وآلام عائشة .. وأخذ يخطو خطوات ثقيلة باتجاه بئر الكراعية .. وهذه عادته يوم تستعد زوجته لاستقبال مولودها .. فكان المجاهد يتفعل كثيراً برؤية ماء البئر الساكت في مثل هذه اللحظات الملتببة .

ولما وصله تمنن في عمقه وشعر بارتياح شديد لرؤية الماء الراكن في عمق البئر . ثم جلس من بعد على مقربة منه .. يتأمل كل ما حوله .. النجع وبما فيه من الخيام .. فالتاس ما زالت نائمة حاملة .. وكذلك القطيع في حظائره ، ثم رفع عينيه باتجاه السماء .. كانت أكثر صفاءً ونقاءً اشرقت في رحابها خيوط الضياء الأولى تلك الفاصلة بين الليل والنهار .. حيث بدا الشفق شفق الفجر

بنفسجياً زاهياً براقاً فيه شوق الولادة .. وفيه احتراق كصراخها تماماً .
ومرت اللحظات غالية والمجاهد بانتظار ذلك القادم من رحم الفاضلة في تلك الأثناء كانت
مبروكة قد قطعت الحبل الواصل بين عائشة ووليدها الذي حضر للوجود منذ قليل .. فأُسْرعت
سالمة إلى حيث يقف المجاهد و ينتظر وما إن رآها حتى ابتسم ابتسامة عريضة حيث قال : يخاطبها
بلهفة : هل وضعت وليدها ... وما أن سكنت حتى انهالت عليه كلمات سالمة وهي تقول :
- لقد جاء أخي .. لقد جاء أخي .. فأُسْرع وضمها إلى صدره ثم فر هارباً إلى حيث
زوجته .. ومثله فر الفجر من الوجود فطلت الشمس دافئة في يوم ربيعي وكذلك فرت الصغيرات
بفرحهن وذاع خبر الولادة وانتصر النجع بزعاريد النسوة التي أخذت تدوي لفرحتهم بما أُنجبت
زوجة المجاهد .. وفجأة سكنت الزغرودة فخدمت الفرحة عندما فوجيء الجميع بأن المولود ضعيف
جداً .. ولاحظوا أنه لا يصرخ كأبي مولود في لحظة الولادة .. وانقلب الفرح لبكاء إلا ان المجاهد
وبعد أن غصّ طويلاً قال :

- هات الزيت يا سالمة .

فجاءت سالمة بالزيت .. وبدأ المجاهد بمسح جسد المولود بالزيت وشفتهاء تتمم بآيات بينات من
القرآن الكريم ..

وبعد ذلك لف المولود بلفة من القماش .. ثم وضعه على مقربة من صدر أمه .. وانتظر
أهل النجع أن تنتابهم الفرحة مرة أخرى فيصرخ المولود .. وتحسن حاله .
وتم ذلك فعلاً بعد عدة أيام قضاهما المجاهد .. ينتظر .. وينتظر رحمة الباري العظيم .. ووحده
الباري ما بخُل عليه بهذا .. فتحسنت حالة المولود .. وبعده عدة أشهر ابتسم .. فابتسمت الحياة
ذاتها للمجاهد وأهله وحتى للصغيرة الزادمة التي فرحت بقدوم أخيها الذي سموه معمر .

وهكذا .. استقبلت العملاقة ليبياً .. ذلك القادم من رحم الفاضلة وبعدها مرّ على النجع
ألف ليلة ثم ألف ليلة .

الفصل الرابع عشر

المرحلة الثانية :

— الرحلة من جارف وعبر المسافات المستحيلة .

عبر الأمسيات ذلك الساكن الراكن في أعماق البدو الرّحل ، وفي أجواء خيامهم المتعثرة ظلّ وفياً سباقاً يرافقهم حتى بترحالهم بعدما أصاب الجفاف أرضهم وتوغل في أعماقها كالعطش فغادروا النجع وجارف بخيامهم وبأمتعتهم وشياهم وبكل ما حملت نفوسهم الطيبة على ويلات الفاقة والتشرد والجوع .. فرحلوا بصغارهم وآمالهم وبكل أمانهم .

لقد رحلوا جميعاً بدون استثناء وحتى الدجاجات والققط وغيرها .. وأخذوا يزحفون قهراً وراء الكلاً قاصدين « الجفرة » في الجنوب تلك التي لم تدعها الحرب العامة الثانية أبداً فسلبتها ما سلبت قبل أن ترحل بويلاتها منذ ثلاثة أعوام وظلت بقايا البقايا من ويلاتها الجسام .

وها هم أولاء جميعاً أهل جارف وبعض جاراتها ومثلهم أهل الصحراء بأكملها يشكلون قافلة راحلة غائصة في أغوار الصحراء وسيغلبون بالطبع على ما قد تبعثه الصحراء من ويلات تفاجئهم بها فقد تهاجم الثعالب الماكرة الجائعة شياهم وصغارهم وقد تهبّ في وجوههم الرياح بهبوبها المسمومة وقد يتوه فيهم العجاج ذاته وقد يحدث ما لا يتوقعون أبداً ولكن مهارتهم البارعة في الغوص ببحر الرمال تمنحهم الثقة الغالية بأنهم سيتغلبون على ما قد تفاجئهم به الصحراء .. وها هو ذا المجاهد الأسمر ذاته الذي كاد أن يسقط في معركة القرظابية يتقدم جاهداً في صفوفهم الأولى وترافقه عائشة وصغيراتها الزادمة وعتيقة ونجلها معمر الذي ما تجاوز عقده الأول بعد .. انه يبدو أكثر وسامة من طلته الأولى في الوجود .. طفلاً واهناً اتسم بالهدوء والصلابة تلك التي صنعتها فيه الظروف ودعّمتها البيئة ومكّنها القهر بألوانه وأشكاله .. وها هو اليوم يمشي في زحام القافلة بين الرجال وينظر بتمعن إلى كل ما حوله ، وكم تأملت قدماء من شدة التعب والمسير لكنه ما كان يجرؤ أبداً على الشكوى لأنه اتسم بالخجل أولاً ثم إن المجاهد كان يغريه باستمرار حيث كان يخاطبه بالفارس المقدام .. ومعمر الصغير يصدق المجاهد الذي كان يمنحه في هذا درساً ما نسيه أبداً .

والطريق .. تكبر .. وتطول ، وما زال يمشي وأهناً متباهياً بنفسه بين الجموع .. ومتعزراً بالوقت ذاته .. ووحدها ذاكرته العذراء تلك التي ما مستها شائبة بعد .. وما عرفت غير الوادي والبحر والنجع وبعض حكاياته السالفة التي كانت تروى له عائشة عند الأمسيات .

والذاكرة العذراء تستقبل الصور وتخزنها مباشرة بدون عناء ، تختزن كل ما ارتبط بها من الصلابة والقهر معاً والتعب بدون راحة ، والنسمة المسممة بالتراب وصوراً كثيرة من هذا الشتاء الذي ما عرف المطر .. وتلك الشمس الراحلة في رحاب صدر هذا الوجود .. وصبر الناقة ذاتها تلك التي تحمل على ظهرها أخواته والحافظة الطفلة في اجتهاد بالغ ما زالت تستشف بشفافية متناهية شيئاً من كل شيء وتستقبل كل ما هو جديد .. وبحر الرمال يتسع ويكبر ومعمر منهمك جداً بالتمتع بكل ما حوله وكل ما يجول حوله يبعث بالجديد ويمكنه كما تمكن الصحراء كل أهلها فتمنحهم الثقة والصبر على العناء والجوع والعطش ، فمكّنه هذا الجديد برحلته الأولى الطويلة .. الطويلة من أن يتبع تعاقب الليل بالنهار . وأن يمشق في الليالي لون النجم ذلك المتباهي بكبرياء .. الواقف في أعالي سقف رقعة الوجود .. وألاً يهاب أبدأ العواء .. عواء الذئب وعواء الريح والرمل الغاضبة وحتى عواء الزمن ذاته وتعلم كيف يدهس بقدميه الخافيتين أشواك الصحراء لو وقفت حائلاً في طريقه وكيف يحذر من مطباتها وكتبانها ومن زوابعها وأفاعيها وعقاربها حتى مكّنته أيام تلك الرحلة والرحبة العملاقة سيدة الرمال من أن يتعلم أولى الانجديات فتعلمها بمرارة ومهارة وظلّ علامها علامة متميزة يتفاخر بها وتتفاخر به .

ولما توقفت القافلة عن المسير قبيل أن يبعث المساء بأدراجها الأولى لتسترخ لليلة في عراء هذه الصحراء .. فتسترخ النساء وكذلك يسترخ الأطفال والشيوخ .. ويستريح القطيع وغيره من شدة عناء ومشقات البحار في بحر الرمال بعدما قطعت القافلة الراحلة نصف المسافة تقريباً الواقعة بين وادي جارف وعاصمة الجنوب هرع الرجال ينهمكون بفوضوية مطلقة الحدود لينصبوا خيامهم قبل أن تدهمهم ظلمة الليل الكاخ في أواخر هذا الشتاء المحلّ .. وانشغلوا بهذا طويلاً في الوقت الذي انشغلت الشمس فيه باستعادة خيوطها وضياؤها من الأرض بعين محمرة ذات لون يشبه الدم بل هو أقرب للون البنفسج وبدون خجل كما شردت الصهابة أهلنا بفلسطين في ذلك الحين . بعدها قر كما جاءت ظلمة الليل إلى حيث خيمة أبيه ولما دلف إليها مبتسماً وجدها مكتظة بالأقرباء والأهل ، بخالاته وأخواله وعمته وأعمامه وبغيرهم .. وعلى الفور هلت عليه تحيات بعضهم باهتمام بالغ ورويداً .. رويداً انخرط في جلستهم ليشرب الشاي مثلما هم يشربونه ويسمع ما يقولون .. فالتزم الصمت كعادته في مثل هذه الجلسات الساهرة بعد أن جلس القرفصاء على مقربة من نار الخطب .. وبدأ يرشف الشاي ويستمتع بأحاديثهم الفوضوية الدافئة .. ونار الخطب هياجة تبعث بالضياء والدفاء .

« من أين جاء أجدادنا » كذلك قال أحدهم يخاطب الشيخ مسعود ساللاً : وبعد أن رشف الأخير بعض الشاي أجابه قائلاً :

يقال :

يقال .. إن أجدادنا جاؤوا من الصحراء العربية بعد أن تنقلوا من شرق مصر إلى سواحل المغرب .. وقرروا الإقامة في عراء بحر الرمل .

أردف السائل بقوله :

لقد سمعت بعضهم يقول أن أجدادنا نزحوا من الساقية الحمراء وجدنا الأصلي هو الامام موسى الكاظم المدفون في العراق .

أردف الشيخ مسعود قائلاً :

نحن عرب والعرب أصلاً جاءت من مأرب .. فمهدنا مأرب وسلالتنا طاهرة مادنا أفضل العالمين .. وقذاف الدم ولي من أولياء الله الصالحين وهو أقرب إلينا من موسى⁽¹⁾ الكاظم . ما دمنا قذافه .. وقد يكون الكاظمي نفسه واحد من أجدادنا ولا أستبعد هذا لأننا جميعاً أقصد العرب أبناء سلالة واحدة ولو كثرت الفروع في هذا المضممار فكلنا ينحدر من شجرة واحدة .. كلنا واحد .. والشيخ يتحدث بحرارة .. والكل يستمع ويستمتع .. والنسوة تتحدث .. وتحدث أحاديثاً بلون الحنة والذهب .. ونار الخطب عليها أن تبقى هياجة تبعث بالدفع والإنارة .

ومعمر الصغير ها هو قد نهض من جلسته وتسلسل بهدوء ليخرج من خيمته إلى وجه العراء ولما خرج جلس على مقربة من مشارف خيمته وحيداً وكأن النجم في السماء قد استدعاه وحده ليتمعن بعيونه وبلونه وبريقه وقنديل الكون واقف .. ولكن بماذا كان يفكر معمر صديق النجم والشارد بفكره وهيامه بجمال ورونق ذلك القنديل البعيد .. فجأة تلفت عائشة حولها فلم تجد ابنها .. فتسللت إلى خارج الخيمة وهي تنادي بصوت مبجوح « معمر .. معمر أين أنت يا ولدي ؟ » .

« أنا هنا يا أمي .. أنا هنا » كذلك قال يخاطبها ..

ولما اقتربت منه . استطردت .. ماذا تفعل هنا يا معمر .

— أراقب النجم واتمتع برؤية القمر .

مدهوشة قالت : ماذا .. !! تراقب النجم وتتمتع برؤية القمر .. ألا تخاف من أن تأكلك الذئاب أو ثعالب الليل الجائعة .. هيا .. هيا ادخل .. هيا .. فدخل برفقتها إلى حيث نار الخطب ما زالت ساهرة تفرغر وحولها الطيبة تتنفس والفطرة بحالها والنقاء بأرقى مستوياته .
وبعد ما أخذ معهم إلى النوم فنام نوماً عميقاً ووحدها الأحاديث في حالة غليان .. باقية ما دامت نيران الخطب وهاجة وما محمدت بعد ..

(1) هو : موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن الامام علي ابن أبي طالب . ولد بالمدينة سنة مائة وثماني وعشرين للهجرة . وتوفي في سنة 186 هـ . والكاظم سابع الائمة الاثني عشر عند الامامية كان من سادات بني هاشم ومن أعيد أهل زمانه وأحد كبار العلماء الأجواد .. وكان قد رافق جميع الأدوار التي مر بها والده الامام (ع) ورأى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها الامام بين المسلمين وكثرة الملقين حوله ليأخذوا عنه معالم الدين .
من أقواله المأثورة :

أن قوماً يصحبون السلطان فيدخلهم المؤمنون كهوفاً فهم الآمنون يوم القيامة أما والله لن عز بالظلم في الدنيا (يعني الرشيد) ليلدن بالعدل في الآخرة . وما أمان الدنيا قوم قط إلا هأنهم الله أيها وبارك لهم فيها وما أعزها قوم قط إلا بغضهم الله أيهاا ..

ومرت تلك الليلة بما حفلت وتواردت من بعدها عدة ليال بعدها استأنفت القافلة سيرها وأخذت تغوص من جديد ببحر الرمال قاصدةً الجفرة في الجنوب راجية أن يصدق المثل الشعبي الليبي القائل : « نصف ربيع لفوق ولا ربيع لوطة » .

وأخيراً طلت « سوكنة » الجنوب زاهية فرحة بنضرة وإحاثها ومرامعها الخضراء ففرحت القافلة تلك التي وصلت بعد العناء إلى مشارفها ، فوجدت الربيع عامراً في أحضانها وأطرافها .. كما النخل شامخاً بكبرياء لا يضاهيه كبرياء .

وقبل أن ترمي الإبل بحمائلها لتستريح .. وقبل أن ينصب الرجال خيامهم .. هربت الأغنام تزاحمها الماعز لتفتتح الموسم وتبدأ بالتهام العشب بعدما شربت الماء حتى الثمالة فارتوت . ونوع من الارتياح البالغ قد أصاب تلك النفوس الوافدة للجنوب .. القادمة من العطش للماء والخضرة فارتوت وحفلت بما حفل به فصل الجمال بعدما نصبت خيامها واستقر بها المقام لعدة أشهر من عمر الزمان . والصغير معمر ما زال يحمل بيده عصاه وها هو فرح كفرحة الوجود بالماء والخضرة .. بل كفرحة الحياة بلونها الحقيقي .. ثم فرح فرحاً عظيماً عندما ناداه المجاهد وأخبره بأنه سيصبحه معه من الغد ليعرفه بالمعلم الذي يلحق الأولاد التعليم الأولي فيعلمهم أولى الكلمات وأول القراءة من كتاب الله العزيز .

فجأة .. كما تدهام الرياح الخيام .. داهمتها زغرودة الأم عائشة التي أسعدها هذا الخبر حيث أخذت تقول وبصوت عالٍ : « سيتعلم معمر .. معمر سيتعلم .. وحيدى سيتعلم » .

في هذه اللحظات انتاب معمر صمت طويل .. سره يكمن بفائق السرور الذي قرأه في فرح أمه وبذلك الأمل الدفين الراكد في أعماق المجاهد .. الذي بدا عليه فرح الدنيا وهو ينقل الخبر لمعمر . وبعد الصمت بدأ الخيال الطفل ينسج صوراً مختلفة بنيانها وألوانها وصلبها حب التعلم والمعرفة ذلك الحب الكبير الذي اختلط بأنفاس معمر .. ودخل إلى شرايين دمه .. وفي مسلمات جلده ووراء عينيه .. وأمامها إلى ما لا نهاية .. إلى العالم كله .. وكم طاف خياله وهو يتصور نفسه يحمل كتاباً ويقرأ به وحوله الصغار من هم في سنه وحتى الكبار الذين ما تعلموا القراءة والكتابة .. تخيل نفسه وهو يرسم الأحرف رسماً ليبعث مع الغد كلمات سيكتبها للموت الذي يراه يفترس الناس بدون استئذان ويبعث الكلمات لذلك النجم المتباهي بنفسه .. كنفسه .. وكم تلذذ صاحب هذا الخيال بتلك الصور الوليدة ثم نطق وقال بفرح .. سأتعلم .. سأتعلم ..

وبعدها قرأ لقطيع أبيه ليساعده على خدمته ورعايته .. وما فارقت فرحة ومرارة الانتظار حتى جاء صباح اليوم التالي فلذهب برفقة المجاهد إلى حيث يقيم المعلم حلقاته وحوله الصغار من كل مكان وفي مختلف الأعمار .

ولما وصلا بين يديه فوجيء الصغير بأن المعلم لم يرحب به كما يجب بل حدجه بنظراته الساحقة وقال يخاطبه بعصبية :

- ما اسمك ؟

- أجابه الصغير : اسمي معمر بن محمد .

المعلم : تقدم .. تقدم .

فتقدم معمر عدة أشبار .
استطرد المعلم قائلاً : ما بالك خجلاً .. فطالب المعرفة عليه أن لا يخجل .
فتقدم معمر أكثر .. فأكثر وهو ينظر للمعلم نظرات غير عادية .
ثم أردف المعلم يخاطب المجاهد قائلاً :
يمكنك الذهاب يا رجل .. ولا تشغل بالك سيتعلم بإذن الله .
وذهب المجاهد على أن يعود بعد عدة ساعات ليصحب معمر إلى خيمته .
والصغير ما زال واقفاً بلا حراك ينتظر ما سيقوله المعلم .. أو ما سيأمره به ..
وقال المعلم أخيراً .. وبعبسية ..
« ما بالك واقفاً .. هيا انخرط في صفوفهم .. هيا انخرط في صفوفهم » بعد أن أشار بيده
اليسرى إلى الطلبة .
وانخرط معمر على الفور في صفوف الطلبة .
وبداً يتلقى أولى الأوليات في علامه .
حيث أخذ المدرس يقول وبصوت عالٍ .. رددوا معي .. رددوا معي ..
بسم الله الرحمن الرحيم .
الطلبة : بسم الله الرحمن الرحيم .
المعلم : قل هو الله أحد .
الطلبة : قل هو الله أحد .
- الله الصمد .
- الله الصمد .
- لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
- لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
ثم كرة أخرى المعلم يقول والطلبة تردد ما يقوله .. وما أن مر من الوقت ربع الساعة حتى
قال المعلم يخاطب الطلبة .
من منكم يقرأ لي ما رددناه من الآية الكريمة من كتاب الله العزيز .
وبعد أن احتار الطلبة في ذلك وبدأ الواحد ينظر إلى الآخر .. قال معمر أنا ..
فقال المعلم هيا يا أنت .
فقال معمر بطلاقة استغرب لها المعلم :
بسم الله الرحمن الرحيم .
قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .. صدق الله العظيم .
المعلم مدهوشاً قال : من أنت .. من أنت ..
الصغير بطلاقة : قلت لك أني معمر بن محمد .
المعلم مبتسماً : « أحسنت يا ولدي أحسنت » وبعد ذلك ضرب به المثل .
واستمر الدرس .. ومعمر شديد الانتباه لكل ما في الدرس وحتى لنظرات وحركات المعلم .

وقبيل العصر عاد المجاهد ليصحب ابنه إلى خيمته ولما وصل إلى حيث تقام حلقة الدرس انتظر قليلاً .. بعض الوقت .. خلاله كان المعلم قد أنهى درسه وقال بعدما أن عبر عن إعجابه للصغير معمر مخاطباً الطلبة :

- عند هذه الصخرة السوداء نجتمع كل يوم لنعرف ما نتمكن منه من خير وبيان القرآن الكريم ومناهله الخسبة أسمعتم ..

الطلبة : « نعم .. نعم » ثم تفرقوا إلى حيث جاؤوا .. وذهب المعلم لحاله يضم تحت ابطة بعض الكرايس ويحمل بيده كتاب الله العزيز .

ثم انصرف معمر بصحبة المجاهد الذي أخذ بدوره يرسم له ويبين الطريق من خيمته إلى حلقة الدرس على أن يأتي منذ الغد ويذهب لوحده .

ها هما قد وصلا إلى خيمتهما بعد أن انحدرت الشمس باتجاه الغروب .. ولما دلفا داخلين إليها وجداهما تغص بالنسوة .. وكلهن ابتسمن لمعمر فانهالت عليه تحياتهن وخاصة تحيات خالته رجعة بن نيران التي طارت فرحاً بابن أختها ..

ومنذ ذلك اليوم بدأ معمر ينهل من مناهل القرآن الكريم .. فيذهب ويعود وحده وظلت الحال على ذلك حتى قررت القافلة العودة إلى النجع ففوجيء معمر لهذا .. وهذا يعني بالنسبة له أنه سينقطع عن الدرس ما دام الجميع قد قرروا الرحيل والعودة إلى جارف بعد مضي كل هذه الشهور في سوكنة الجنوب .

ولا مناص من العودة إلى « بر الكراعية » ولا محال من أن ينقطع عن الدرس .. فدخل في حيرة محزنة آلمته كثيراً .. حتى بدا عليه الحزن الشديد لما انزوى وحده وجلس على مقربة من الخيمة يتفكر شارد الذهن والبال .

وكعادته ... أسعف المجاهد الموقف قائلاً لصغيره بعدما قرأ في وجهه الحزن :

- ما بالك حزينا يا معمر .

أجابه الصغير بحزن .. لا مناص من العودة .. ولا مناص من أن انقطع عن دروس القرآن الكريم . فأردف المجاهد بقوله :

- وأين تجد المشكلة يا ولدي ؟

معمر : أحقا يا والدي لا تجد في هذا مشكلة .

المجاهد : نعم .. لا أجد بهذا مشكلة فنحن لا بد أن نعود لجارف فجارف عمرنا وذكرياتنا ومسقط رأسنا .. ولها الكثير من الشوق في أعماقنا . أما عن علامك .. فسأتي لك بمعلم إذا شاء الله لك ذلك .. وهذا وعد أيها الفارس المقدام .

فضحك معمر .. ضحكة صافية ثم قرأ لأمه يساعدها في الاعداد للسفر .. وانصرف المجاهد لصحبه من الرجال ليندج بينهم في آخر أمسية من أمسيات الجنوب .

وجاءت تلك الأمسية حافلة .. بكل ما ملكوا .. من ضحك وشوق واحترق .. ونار الحطب مشتعلة كشعلة النصر .. فلقد انتصر الجميع لانتصار الماء والخضرة على الجفاف والعطش .

وزحف الليل .. وما زحفت عن الخير أحلامهم وآمالهم وأمانهم ثم توغلت ظلمة الليل في صدر الكون وفي رحابه . توغلاً لم يدم .. بل فز هارباً إلى حيث جاء إلى أن جاء الفجر ضاحكاً .. فعلا صوت الديك موقظاً .. واستفاق الجميع كباراً وصغاراً ليغسل ندى الصباح وجوههم .. ثم للموا أشياءهم وشكلوا من جديد القافلة التي أعلنت عن رحيلها لما أشرق الصباح وانتشر .. فأخذت تشق طريقها عائدةً إلى وادي جارف .. فدخلت بحر الرمل .. وأبحرت فيه كما تبهر خيوط الشمس وخيوط الدفء والنهار .

ومر النهار فتلاه الليل ثم تعاقبت الليالي وطالت .. والذاكرة الطفلة ما زالت تنتهر الفرصة وتستقبل الصورة بمهارة .

وذات نهار .

بالضبط بعد العصر تماماً وبينما كان يجلس المجاهد وعلى مقربة منه صغيره معمر جلسة استرخاء بعد تعب تسللت إلى مجلسهما أفعى من أفاعي هذه الصحراء .. وقفزت بغدر لتلدغ قدم الصغير فانتفض المجاهد من مكانه وحطم رأسها بقدميه .. عندها قال لصغيره ..

لا تدع الخوف يتمكن منك أبداً .. فلا شيء في هذا العالم يخيف .. والخوف من الله وحده . نحن لها .. أفهمت يا ولدي .

معمر : لم أنتبه إليها .

المجاهد : عليك أن تكون شديد الحذر طالما تبهر في الوطن الفظيع .. فالصحراء برغم رحابة صدرها إلا أن أعماقها مليئة .. ومخاطرها لا تعرف الوسط إما أن تدهسك أو تدهسها أفهمت :
- « نعم .. نعم » كذلك قال الصغير بعد أن هز رأسه إلى الأسفل .

وبعدها غادرا جلستهما .. وانصرفا إلى حيث عاثشة وصغيراتها .

ومن جديد تابعت القافلة رحيلها بعد استراحة يوم واحد في عرض الصحراء وتالت الأيام ووصلت إلى جارف .

وجارف مشتاقة لدفع أهلها وفرح صغارهم ورجائهم .. وها هي كالولحاة .. عاشقة تستقبل عشيقها .. وكذلك في حضنها « بئر الكراعية » والنجع .. هائمين لعودة الأهل لديارهم . والأهل فرحون غائمون بالتمر والشعير .. وها هم قد نزلوا للوادي قادمين من الجنوب بعد غياب .

وقبل غياب الشمس قامت الخيام في النجع وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي ، ووحدها تلك الأمسية ما عرفت عقب العبير .. ولا الأحاديث الساهرات .. لأن البدو في خيامهم المتعثرة قد ناموا بعد أن أضناهم تعب الرحيل .. فما استطاع عبير المساء أن يكون لهم في هذا اليوم رفيقاً .

كان الصيف الحارق قد ولّى وكذلك حرارة آب الالهية التي امتصها امتصاصاً فصرعها ثم ابتلعها فصل الريح الغاضب ليهيئ طريقاً سالكة للأعصار القادم من وراء البحار .. وظلّت الطريق إلى فزان سالكة رغماً عن أنف الريح والأعصار .. إلا أن الصعاب لم تتخل أبداً عن مناخرة ومنازلة المجاهد الذي طالما طارده الموت وصارعه وما أسقطه .. وعن مناخرة رفاقه القاصدين فزان لمقايسة

الإبل بالتمر وبعض الحاجيات .
وها هو المجاهد محمد تقله سفينة الصحراء على ظهرها وتسبح شاردة بعيون المدى .. بأمانيه
وأحلامه وحتى بذكرياته الملتبة .. وبين تارة وأخرى كان يتذكر .. ويتذكر .. وكلما خطفه
الدهول داهمته نشوة غريبة عظيمة كنشوة الراكع بين يدي ربه .
والناقة ساجدة ذاهلة شاردة مثله .. تتلذذ بالصبر ولا تخاف من العطش وكذلك كان يتلذذ بكل
ما تعنيه له القرظابية⁽¹⁾ .

والقرظابية عرفها شاباً فعرفته مجاهداً صلباً .. وصارحته وما استطاعت أن تسقطه . القرظابية
رمز يبقى للكفاح المرير من أجل الوطن والحرية .
القرظابية .. ذاتها ذكريات ما زالت في كهوفها بشوقها .. وباحتراقها .. برفاقها ورفاقه .. يوم
تمرد على التسلط فهزه بفكرته وعزيمة رفاقه .. ويوم أعلن أنه سيصرع الموت وسيقتله ففر منه
الموت هارباً .. خائفاً .
والريح من كل صوب .. وما زال المجاهد أسيراً يخطفه الدهول ليعود به إلى الربع الأول
من هذا القرن .. وصحبه المسافرون إلى فزان كل بحاله على ظهر ناقته .. المبحرة في الرمال ..
وكل يلف جسمه بثوب صوفي ويلفح وجهه كما تفعل الطوارق ..
والكل يزحفون كما يزحف الخريف ليحتل بقاع العالم .
فجأة توقف الرجال لبرهة من الوقت أثر زوبعة بدأت تعترض طريقهم وتراقص كالأفعى
العملاقة لتلدغهم وكادت أن تلتف حول أحدهم وتدفع به إلى أعماق أمنا الأرض .
لكن حذرهم أنقذ الموقف .. وخاصة أنهم يبحرون في فصل الغضب الذي تكثر فيه الزوابع
والكثبان الرملية .. وكانت النتيجة هي النجاة بفضل ذلك الحذر .
وعاودوا زحفهم من جديد ..
ثم عاد الدهول ليخطف المجاهد الذي يتلذذ بكل ما كان قد حدث في ماضيه من فرح
وحزن .. ومن لين وصلابة .
وها هو يتذكر يوماً جاء فيه معمر أشعل الزغرودة ثم أطفأها ثم جاء بالفرح الطويل
وكم تلذذ بذكرى معمر وخاصة في المواقف التي وقفت حائلاً أمام علامه .. ليستفيق فجأة
من ذهوله ويقول في سريره قولاً فيه إصرار ..
« سيتعلم معمر .. مهما كان الثمن .. سيتعلم .. سيتعلم .. »

(1) القرظابية : « بر القرظابية » ويطلق عليه اسم آخر هو قرارة القرظابية وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة سرت على بعد حوالي
20 كيلومتر . وقعت بها معركة شهيرة بين القوات الإيطالية والمجاهدين يومي 29، 28 أبريل 1915 م حقق فيها المجاهدون نصراً
أدى إلى اشتعال الثورة ضد الوجود الإيطالي في كامل القطر الليبي مما جعل الحكومة الإيطالية تقرر انسحاب قواتها من جميع مناطق
الدواخل لينحصر الوجود الإيطالي في نقاط متقطعة على الساحل لا تزيد عن خمس نقاط وهي زوارة - طرابلس - الخمس - بنغازي -
طبرق . وهي بحق معركة الوحدة الوطنية في ليبيا حيث اجتمع فيها المجاهدون من جميع أرجاء القطر شرقه وغربه وجنوبه .
« مركز الجهاد الليبي - طرابلس الغرب » .

عندئذ كانت الشمس قد غابت .. ثم تبعها المساء والليل .. وجاء النهار فتلاه نهار .. ومن جديد .. تواردت الليلة تلو الليلة .. حتى وصلوا بعد مرارة السفر إلى فزان العظيمة وفيها مكثوا لعدة أيام قايضوا الإبل بالتمر وبيعوا الحاجيات ثم قرروا العودة للديار .. إلا أن المجاهد لم يتمكن من العودة برفقتهم لأنه عزم على الذهاب إلى منطقة سمنو لإحضار المعلم منها ليفي بوعده لصغيره معمر .. وكم تعثر في عزمته هذه وفي البحث عن المعلم جبريل الطاهر الذي كان قد غادر منطقته لعدة أيام .

ومكث المجاهد في سمنو ينتظر عودة جبريل .. وما أقسى وأصعب انتظاره !! ومر على انتظاره عدة أيام .. بعدها حضر السيد جبريل وفوجيء بأن المجاهد قد انتظره طيلة هذه الأيام .. فاهتم به اهتماماً بالغاً حيث استضافه في بيته لثلاثة أيام بعدها لبى رغبة المجاهد في أن يذهب إلى جارف ليعلم ولده معمر .. وحصل ذلك .. فرحلاً معاً باتجاه وادي جارف .. ومعمر في الوادي يرقب الطريق كل يوم .. ومنتظر بفارغ الصبر عودة أبيه برفقة المعلم .. وكم مر على انتظاره .. ولا جدوى فلقد تأخر المجاهد هذه المرة وليس من عادته أن يتأخر كل هذا التأخير ..

وانتظر الصغير .. طويلاً .. طويلاً .. وما أصعب انتظار الطفولة لو أرادت لشأنها شيئاً ما . وبعد الظهر من نفس اليوم حيث كانت الريح تناطح كل شيء .. دلف الرجال العائدون من فزان إلى النجع الواقف في حصنه بئر الكراعية .

ومعمر الصغير .. ملكته الفرحة لما سمع بقدمهم فركض باتجاههم ولن يجد في قافلتهم لا أباه ولا ناقته ولا حتى الرجل الغريب الذي سيعلمه وبدأ يتلفت يميناً وشمالاً والمجاهد ما عاد بعد .. فغمره الحزن الشديد ثم لجأ لأحدهم يسأله عن أبيه فأجابه قائلاً :
— سيتأخر أبوك بسبب احضار المعلم .. فهو ما زال في فزان . عندها استأنف الصغير انتظاره لأبيه راجياً عودته بسرعة .

و ذات يوم وبينما كان يجلس على صخرة غرق نصفها في سطح التلة الصغيرة المزاحمة غيرها من الظهert في الوادي .. لفت نظره .. من هناك .. من بعيد ناقتان قادمتان .. فابتسم ابتسامة عريضة .. عريضة .. وجعل يركض باتجاههما بعد أن نهض من جلسته . وطلت بل أشرق وجهها .. ها هي السفينة التي تقل المجاهد قد حضرت محملة بالتمر والخيرات وتتبعها ناقة هرمة وغريبة لم يألف معمر شكلها من قبل حيث أخذ يقول في سريره وهو ما زال راكضاً باتجاههما :

— أنها ناقة المعلم .. أنها ناقة المعلم .

ولما حاذها .. اقترب أكثر .. فأكثر من حاملة أبيه على ظهرها وابتسم لأبيه ابتسامة الفرح ... فابتسم المجاهد ومد يده لمعمر .. ولما مد معمر يده رفعه المجاهد إلى حصنه وقبله ثم قال له مبتسماً :
لقد حضر المعلم أيها الفارس المقدام .
فأجابه الفارس المقدام الجالس في حصنه على ظهر الناقة .

- « لقد تأخرت يا أبت » .

فأردف المجاهد قائلاً :

- « أنت السبب .. أنت السبب فأنا لم أتمكن من لقاء المعلم جبريل إلا بعد الانتظار

الطويل .. الطويل .. » ثم سكت وعاد فاستطرد قائلاً :

- كيف حال أمك وأخواتك وأهل النجع .

أجابه معمر : كلهم بخير أنهم بانتظار عودتك وقدم التمر والحاجيات .

فضحك المجاهد .. ضحكاً طويلاً .. وكذلك معمر .

وهنية من الوقت مرت .. وها هما قد وصلا إلى المخيم .. وبركت الناقتان من التعب لتستريحا بعد أن أزعج الحمل من على ظهرهما .. وبعد أن قدم لهما الماء الذي جاءت به عائشة .. ورحب معمر بضيفه كل الترحاب وكذلك فعل أهل النجع بمن فيهم الشيخ مسعود .

ومرّ على ذلك اليوم عام ونيف كان معمر خلاله قد استزاد من المعرفة على يد الطاهر الورع الذي علمه القراءة والكتابة ومبادئ علم الحساب والقرآن واستمتع كثيراً برفقة تلميذه الذي تميز بالثابرة والاجتهاد البالغ وبذكائه وخياله الخصب .. وقرأ في عينيه حب التمرد والشوق لما هو جديد .. وكان يتابعه خارج حلقة الدرس ويهتم بشخصيته التي كانت تتشكل أمام ناظره وينظر فيما تفعله هذه النفس الطفلة في ظل هذه الأجواء الهرمة الأكثر قهراً وقساوة وحرماناً . وكم أعجبه منظر تلميذه عندما كان يراه مصادفة جالساً وحده منزوياً على مقربة من بئر الكراعية يتأمل .. ويفكر .. ويراقب كل ما حوله بحرص متناهي الحدود .. والذي أدهشه حتى الغرابة . أسئلته الكثيرة تلك التي لم يتمكن هو نفسه من الإجابة عليها .. بالوقت الذي لم يتنبأ الطاهر . لتلميذه إلا بالتفوق في طلب العلم لا أكثر .. لأن الظروف (ظروف الصحراء وأهلها المنسيين والجو العام ذلك الجو الفقير المعلوم) لم يسمح للطاهر أن يتخيل أبداً أن وراء هذه الشخصية التي عاش معها عاما ونيف بكل ما تملك من نقاء وصفاء ودفاء ووجدان وبراعة في المنطق وحنكة طفولية ما عرفتها الطفولة .. وصلابة في الوصول إلى الهدف والنيل منه .. تلك الشخصية التي صنعتها حرقه الشمس وصقيع الشتاء ودامها الجوع والعطش .. وكل حرمان قد يبعثه الوجود للبشر .. لم يتوقع الطاهر نفسه لها غير التفوق في طلب العلم لا أكثر .

وجاء اليوم الفاصل لينقطع الدرس .. اثر اضطراب المعلم جبريل لمغادرة النجع وعودته لدياره في فران .

وقبل رحيله خاطب معمر قائلاً :

- مع خالص حبي أقدم لك اعتذاري وأتمنى لك مستقبلاً باهراً في الاستزادة في طلب المعرفة وكل ما بقي أن أقوله أحسنت يا رفيقي الصغير .. أحسنت يا معمر .

فأجابه معمر قائلاً :

« بكل العرفان أشكرك .. فأنت الذي علمتني كتابة الحرف .. وعلمتني كيف أصنع الكلمات ودللتنني على حقيقة معنى العرفان .. فها أنا أشكرك على ما علمتني إياه » .
ثم سكت .

وعاد فاستطرد قائلاً قولاً أبهر المجاهد وأدهش المعلم جبريل :
- ذات يوم سأنتصر .. وعندها سأذكرك .. وأذكرك .
ثم رحل المعلم برفقة ناقته إلى فزان غائماً بما منحه إياه المجاهد .. وغائماً بذكريات عام كامل قد قضاه مع تلميذه معمر .

وبينا كان قد قطع مسافة لا تبعد عن النجع كثيراً قال في سريره مندهشاً يردد ما قاله له الصغير في وداعه « ذات يوم سأنتصر .. وعندها سأذكرك .. وأذكرك » .
ثم دامه الصمت فصمت طويلاً وبعدها عاد ليقول بصوت عال :
« سنتنصر .. يا معمر .. وستذكرني .. فلقد قرأت في عينيك الوفاء .. نعم .. نعم .. سنتنصر ما دمت أنا قد قرأت في عينيك الوفاء » .

وبعد ذلك جاءه الشرود الطويل .. ليساعده ويكون له رفيقاً في رحلته .. والناقة ساجحة بغيا في الرمال قاصدة قفار فزان والنخل ذات الأكم .

وهنا دخل معمر في معمة جديدة في طلب العلم .. فالمعلم جبريل قد رحل وبرحيله انقطع الدرس .. فما كان منه إلا وأن لجأ للانزواء طويلاً في الوقت الذي كان يستفيد فيه من هذا الانزواء ويتأمل عمق الأشياء بعينه الثاقبتين .

ومرة أخرى .. عزم المجاهد على ان يسعف الموقف وأصرّ على أن يتعلم معمر لما لحظه فيه من اجتهاد بالغ وجد مطلق في حب المعرفة .. فذهب إلى سرت قاصداً مدرستها ولما وصلها ودخل إليها اجتمع بالقائمين عليها وقدم لولده معمر طلباً وبعد جهد جاهد تمكن من تسجيله في المدرسة التي سيصلها معمر متأخراً .

وبعد أن تم انتحار قرص الشمس الذي ما انفك عن مناطحة الرمال ، حتى صرع فسقط في حضنها .. وابتلعت له ليلة واحدة من ليالي خريف ما عرف الغضب .. ووصلت في ذلك المساء النسمة الباردة بعد سفر قادمة من بلاد الورد الثلجية لتدخل مع العشيّة.جلسة داخل أجواء خيمة الفاضلة ، ولما دلفت لتحتل لها مكاناً في أجوائها الداخلية فوجئت بالصغير معمر راكعاً خاشعاً بين يدي ربه يؤدي فريضة صلاة العشاء فما كان منها إلا أن مرت من حوله ثم اقتربت منه وقبلت خده الأيسر جلسة قبله طويلة أحس انها قد أثلجت خده فأثارت غيرة نار الحطب المتوهجة الواقفة على يمين معمر فتأججت وأهبت ذاتها بذاتها لتجبر النسمة الوافدة على مغادرة الخيمة ، وأفلحت في ذلك عندما وقفت النسمة المطرودة خارج الخيمة حيرانة مشتاقة تود الرجوع إلى مناخرة روح اللهب واغتنمت الفرصة عندما أطل متأخراً المجاهد القادم من سرت .. وعندما دخل إلى خيمته دلفت بصحبته أثناء فرح الجميع بعودته وتوجهت مباشرة إلى حيث وقفت نار الحطب الملتهاة الأنانية وصارعتها وصارعتها حتى الثمالة فانهزمت أمامها وفرت هاربة إلى خارج الخيمة ووحدها بنت الحريق روح اللهب تلذذت بطعم انتصارها على الوافدة الدخيلة وانتعشت بانانياتها المطلقة كثيراً .. كثيراً فمن قال أن الأنانية لا يعرفها غير البشر !!

ثم جاءت الفرحة لتسقط عرش النار وتعتليه وقتاً لن يدوم طويلاً ، وبعد أن فردت جناحها وغمرت أهل الخيمة بدفئها بمن فيهم الزائدة وعتيقة توغلت في أعماق الطفل توغلاً لا مثيل له عندما علم من أبيه أنه سيلتحق بعد أيام بمدرسة سرت .
ورحلت تلك الأيام العدة في طريق النسيان وجاءت اللحظات الحاسمة ذات القيمة التي حطت أوصالها في دائرة انتظار الطفولة مع أول ساعة من ساعات هذا الفجر حيث جلس الصغير ينتظر بفارغ الصبر بدء لحظة الرحيل إلى سرت المدرسة والمعلم والرفاق .
وطال الانتظار .. وها قد مرّ على صلاة الصبح ساعة ونيف والمجاهد ما أعلن لولده عن لحظة البدء .

وقبل أن تشرق الشمس .. ناداه المجاهد قائلاً :
هيا .. يا ولدي فقد آن موعد الرحيل إلى سرت .
عندئذٍ غرد صوت روحه تغريداً .. فابتسم .. وابتسم ثم قال
أنا مستعد للرحيل يا أبت .

وخرجاً من الخيمة قبل أن يخرج الدفء للكون .. ونهضت الناقة من رقادها ثم ركبا على ظهرها .. بعد أن غسل ندى الصبح وجهيهما وأخذاً يشقان طريقيهما إلى سرت ..
كانت رمال الصحراء تواكب الصبح بأغرودة النسمات الرقيقة وبأشعة الشمس التي انبثقت متأخرة .. والطريق خالية من أزيز أصوات الخلائق .. قفاراً تبعث الحياة للبائسين وكأنها في هذا اليوم بالتحديد ترفق بالمجاهد وبولده أيضاً .
ونخيلة طفلة ترسم بريشتها التي لا تشبه ريشة الزمن صورة تتوقعها لسرت المدرسة والدرس والمعلم .. والنفس دافقة .. معذبة تتطلع لكل جديد .. وتنتظر كل جديد وما خطر ببالها الحلوى .. والأرجوحة .. ولا حتى التسلق إلى أعالي الأشجار الباسقة .. وكل همها الجديد والمعرفة وما أصعب هذه النفس التي ما عرفت شجون وفرح وضحك طفولتها .. وكان ذلك من صنع القدر .
والناقة في الجرداء ساجدة شاردة ومثلها الماهر ونجله الواهن .. وفجأة من على مد البصر ها هي قد أطلت سرت الساكنة للمرة الأولى لناظر معمر فبدت له جديداً لم يعرفه أو يره من قبل .
سرت النائبة النائمة في سبات طويل منذ وقف التاريخ لذاته بإجلال .. واقفة في مكانها بلا حراك .. لا تتزعزع .. ولا تضطرب كثيراً . فقد عرفها الأزل وعرف أنها قد خبأت في أعماقها امبراطورية قديمة وظلت من يومها خرساء لا تنطق ولا تعرف الضجة والصخب وكأنها خاشعة دوماً كخشوع الزاهدين صامئة كصمت المذبح المعلق بجبل المشنقة .. زارها المستعمر بمحافلها القذرة الملوثة وما استطاع أن يدنسها أو يلوثها .. وما مكث فيها طويلاً .. وما زارها الثلج ناصع البياض منذ طوال السنين مازار أزقتها الضيقة ولا حتى مساكنها المكعبة المتناثرة هنا وهناك على التلال وحولها .

في سرت النائمة بين البحر رفيق المدى والفاتلة البيداء سيدة الفلا .. قد لا تجد للعهر موطناً فما حفلت ذات يوم بأسواق النخاسين والنحاسين والسمر .. ولا تجد فيها مواضع للذل وأذياله

المكارين الدجالين ، فلقد مكنتها التقاليد والأعراف الموروثة عن سالف الأسلاف كما تمكّن الأم رضيعها باللبن من صدرها والحنان .

والناس فيها مثل ألوانها الصافية الغافية امتصتهم حرقه الزمن وويلاته فامتصوا من البحر غضبه وسكاته .. ومنحهم حبه وحكايات الوفا من عمر الأساطير .. وكذلك الصحراء وهبهم الكثير .. الكثير من رحابة صدرها وخوفها .. وحيرتها . وناس سرت أناس لا يعرفون غير الله مسعفاً ومنقذاً .. ضعفاء أقوياء أمام الأعصار والعطش وأمام الغيث والمطر .. وذاتهم في طباعهم كالبركان الذي لو انتفض من قاعه لجرف ما يجرف وما لا يجرف ، وذاتهم كاللينة واللين والزغرودة من عمر الفرح .. أعزاء .. أعزاء من عزتهم عزة الجبل ذلك الذي ما اهتدى إليهم منذ مهدهم .

وها هي قد وصلت أخيراً الناقة ذات الكبرياء مناحرة العطش بعد أن قطعت على قدميها حوالي ثلاثين كيلومتراً .. ها هي قد وصلت إلى قلب سرت الساكنة لتقف .. ثم تجنو وتستريح على مقربة من بوابة مدرسة سرت الابتدائية .. عندئذٍ غادرها المجاهد وولده وهرعا ليدخلا إلى المدرسة ولما اقتربا من البوابة أكثر .. فأكثر فوجعا بأنها مغلقة بإحكام .
- « لقد تأخرنا عن موعدنا » كذلك قال المجاهد يخاطب ولده .

فنطق الصغير قائلاً : وماذا سنفعل الآن ؟
أجابه المجاهد قائلاً : يمكننا الذهاب إلى بيت أختك سالمة .. ألم تشتق إليها .
- نعم أشتاق إليها وتسعدني رؤيتها ولكن .. ولكن .. ثم سكت .
المجاهد : - ولكن ماذا يا صغيري .
- المدرسة .

المجاهد : - ستأتي إليها مع الغد برفقة زوج أختك .. هيا .. هيا .. لكي لا يفوتني الوقت ...
ورحلا .. إلى حيث يقف بيت سالمة .. وعلى مقربة منه توقفت الناقة ثم جثت كرة أخرى لتستريح .. ودلف معمر وأبوه لبيت سالمة .
وفرحت سالمة بضيئها كل الفرح .. وأسرعت لتعد لهما الطعام والشراب وقبيل العصر غادر المجاهد سرت قاصداً الوادي .

وفي صبيحة اليوم التالي ذهب معمر الصغير برفقة زوج أخته إلى المدرسة ولما دخلها للوهلة الأولى شعر بلذة الانتصار .. فلقد تحقق ما أراد .. لكنه فجع عندما دخل الفصل وقابله المعلم بإحتقار .. ولكن علام هذا الإحتقار ؟ ربما يكون هذا أسلوباً سخيماً يعتمد عليه المعلم لرهبة الطالب المستجد .. ثم ثار غضب الصغير الذي ظلّ كامناً في نفسه عندما بدأ الطلبة يضحكون .. ويضحكون .. ويضحكون سائرين من منظر الصغير الذي يرتدي ثيابه البدوية .. ولم يبال الصغير بهم بل حادجهم جميعاً بنظراته الساحقة .. وتقدم نحو المقعد المخصص له وجلس عليه لأول مرة ثم بدأ الدرس بعد عدة لحظات .. والطلاب ما كفوا عن السخيرية أبداً .. فصرخ أخيراً في وجههم المعلم الذي أخذ يقول :

يكفي .. يكفي .. لنبدأ الدرس .

وما أن بدأ الدرس حتى قال المعلم ..
« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » بدون أن يبدأ بالبسملة .

فرفع معمر يده ليقاطعه قائلاً :

أحق لك يا أستاذ أن تقرأ آية بينة من كتاب الله دون أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم .
فدهش المعلم من البدوي الصغير وقال له بعصبية :
لا تقطع الدرس أيها البدوي .

وضحك الجميع ضحكاً طويلاً .. طويلاً .. والصغير كالواهن يكتب غضبه في أعماقه .
ومر ذلك اليوم بما حمل لمعمر .. فضاق فيه صدره .. وما انتابه الاحباط !! وأيام الدرس في سرت المدرسة قد أسرع لتلتهم عاماً كاملاً من عمر طفولته الخرساء التي شارفت على الرحيل بدون رجعة وللأبد ، في الوقت الذي بدأ الزمان العاهر يتلذذ بالسطو على طفولة ليبيا الاستقلال فنهش منها ما نهش وأمات الفرحة المصنوعة « فرحة الاستقلال » فرحة الأخذ بعد عطاء مختار البطل ورفاقه فسقطت عذرية طفولة الاستقلال وهي في فجر يفاعتها إثر قيام وتأسيس مملكة اتحادية في كانون الأول من عام 1951م ضمت طرابلس وبنغازي وفزان وترأس الملك إدريس الأول بن محمد المهدي السنوسي الذي خضع للاستعمار الغربي بكل ما يعني الخضوع وأكثر .

وأما معمر الذي بدأت أيام الصبا تتودد إليه بعذاباتها وحرمانها وأحلامها وأمانها فقد اشتد عوده وطلت يفاعته فازداد القهر من حوله وتفاقت المهموم في نفسه .. وظل دؤوباً مجتهداً لا يعرف الراحة أبداً ولا يكف عن طلب العلم والمعرفة .. وحاول بذكائه اختصار الوقت ففاز باختصاره .. ونال اعجاب كل الذين سخروا منه ذات يوم .. يوم رآهم للوهلة الأولى ، فسيطر عليهم بنبله وتفوقه وأخلاقه وجعلهم يلجئون إليه ويتوددونه بعدما عرفوه بارعاً بطموحه وفكره ومسلكه ، وماهرأ أدهشهم بمهارته في طلب العلم وفي اجتهاده ، ومتمعاً برونقه وأناقته وأحاديثه التي ما خلعت من الفائدة والتشويق وحب الأرض .. ووصل به الحد لأن يجلس وحوله الطلبة بكراريسهم ينتظرون منه أن يدهم على حل مسألة رياضية أو يشرح لهم إعراب جملة أو يكشف لهم عن مصدر فقهي أو تاريخي يستشهدون فيه بمقرراتهم .

ووحده الألم رفيق الحرمان والأسى ظل الحميم الذي لا يفارقه خلال تلك السنوات في سرت والدروس التي أخذت تتوارد .. وكما تواردت كان يكرر بحكم الطبيعة البشرية .

الألم لم يكن يفارقه وحتى يوم كان يلجأ لزيارة عائشة الفاضلة وأهله في جارف كل يوم خميس كان عليه أن يقطع مسافة ثلاثين كيلومتراً مشياً على قدميه ليصل لديار أهله فيطمئن عليهم ويساعدهم في الحرث أيام الحراثة .. وفي القطاف أيام القطاف .. وفي الحصاد وفي رعي شياه أبيه كل يوم جمعة .

تلك الرحلة الأسبوعية كانت تدمي قدميه وتشبعه من الصلابة ما أشبعته لكنها كانت قاسية مرة مرارة العلقم وأكثر .

تلك الرحلة الأسبوعية من جارف للمعرفة ومن المعرفة إليها دامت دوام الفصول فتوغلت أشياءها في عمقه ووجدانه .. وكانت بمجد ذاتها مدرسة تعلم منها ما لم يتعلمه في الجفرة والخيمة وسرت .

طعم الصقيع في الشتاء القارص .. وويل أعاصير الخريف الرملية المتعبة ، وحدة الشمس الحارقة والجوع والعطش والحرمان بألوانه .. الفراغ والتأمل في الوجود في رحابه لساعات وساعات ورفقة الطريق الموحشة الوعرة التي ما خلّت من الأفاعي والعقارب الصفراء كالموت .. كل هذا أبجدية من أبجديات كثيرة تعلمها في أولى سني حياته .. ومرّ العام ثم عام وجاء عام .

الفصل الخامس عشر

المرحلة الثالثة :

الرحلة من سنين الغصة لفزان ميلاد الصرخة

مثلما تتأهب في أعماقنا الصرخة وترجي لاهثة بشغف أن تنبثق من مواضعها فينا ، لتزعزع ما لا يتزعزع وتوجع ما لا يتوجع فتدوي دويًا وتدوي لثأر لنا لحسنا ولوجداننا بعد أن تفاقم بنا الألم ومثله قد فعلت الأسية ، وكذلك القهر بأشكاله الفولاذية لتعيد إلينا بدون رجاء طريق الحرية وتنتشلنا من المسمكة الهوائية الآدمية .. تلك المسمكة التي لا تعرف صفاء لون الماء ولا نقاء لون الندى ولا حتى الاحلام الماوردية ، مسمكة اسمها البلاد العربية الممزقة عاشت فينا فعشنا لها وفيها غصبا بدون كلاً أو حرية ، نطارد الرغبة في الملأ وقبل أن نتمكن منه يكون قد ذاب من جسمنا ولحمنا وذاب في دفننا وحسنا .

في المسمكة الآدمية نخضع للأذيال ونطيع الأذنان ونفرط بالطاعة للتيجان .. للقرصان ذات الأنياب الصفراوية ، فتنذوق طعم العلقم وتلذذ بالحرمان ثم نصمت بعد اللذة فهب علينا ويملكنا فيضيع فينا وبعد أن يضيع يتوهنا فتضج من التوهان عقولنا فيسعفنا العطش ، فتذكر أننا ظمأى في آخر رمق .

وبعد العناء نعثر في قلب المسمكة على مستنقع ملوث ومنه نرتوي .. ونرتوي حتى الثالة عندها تنتصر الجرثومة فتصل بيسر إلى أعماقنا ويسر تتوغل لتنخر جسم الصرخة وهي تحتضر لتنفجر وتتمكن الجرثومة بالقوة والعنف من أن تحمدها فتكسحها كسحاً وتفر الصرخة مريضة لاهثة لتخرج من أعماقنا بدون أن ندري كيف خرجت ، فنعاهد أنفسنا على أن نعيدها إلينا ذات يوم عندما نضمن لها طريق العودة المعبد .

ونظل في المسمكة كسالى تملكنا التنهيدة ونحيا علينا .. فلا نعرف للهيجان والغضب طريقاً فنذبح ذاتنا بآمال الظلم والطغيان .. وننتظر بالفراغ على أن يبعث لنا الوجود بزغودة الغد ..

وزغردة الفرخ فتضيق منا الصرخة ، ولا محال فلقد خرجت من قلب المسمكة .

ووحده المتباهي بنفسه الذي طالما أدمت الطريق قدميه ومرت به الطفولة بدون أن يعرفها أو أن يتذوق طعم أيامها الخاليات ، ذلك الفتى المتمرد أراد أن تحيا في أعماقه الصرخة بعد أن أدرك جيداً أنها خارج المسمكة فجاهد ليستدرجها إليه فأفلح باستدراجها إليه وتمكن منها بإحكام فدخلت إلى أعماقه الملتبها خائفة مطيعة ومكنت ذاتها من ذاته وتذوقت من خلاله رحيق اللهب الكامن في عروقه ضد الفاقة والتسلط والظلم .. فعاشت طفولة حقيقية في كيانه وما هي أول يراعتها في يراعتة وتنبهاً لتأهب من جديد وتنبثق بقوة وإرادة لا تعرف اللين والرجاء لتوجع وتزعزع .. وما أدراك !!

وبينما كانت الشمس الغاربة تسترجع من الكون ضيائها .. للمم معمر أشياء وغادر مع هذا المغيب سرت الغصة والحرمان سرت المدرسة .. غادرها مودعاً فيها سنوات المراهقة التي قضائها مجبراً بمرها وقهرها في سبيل الحصول على المعرفة وطلب العلم .
ولل حيث جارف البدء والولادة أخذ يمشي ويحجر جسمه المتعب وهو يتذكر تارةً الأمس بما حفل وتارة أخرى تدهامه نشوة الطموح بالصبر المزخرفة الملونة التي ربما ستكون مع الغد الآت . وبين الأمس والغد ظلت الصرخة كامنة في أعماقه راكدة تود أن تتأهب لها الظروف لتنفجر .. وما انفجرت بعد .

والطريق للبدء والولادة ما زالت تطول .. وتطول وما رحمته أبداً من عذاباتها فلقد أدمت قدميه وأهلكت أنفاسه وما استسلم لها أبداً .
عنيذ هذا الفتى المتمرد .. عنيذ ابن المجاهد .. وعليه أن يصل للنجع حيث أهله وحكاياتهم السالفة المحزنة .

ومر آخر النهار كئيباً ودلف للكون الليل بظلامه الموحش ، والطريق تطول وغير الله ما كان له رفيق .. فالليل مؤنس وموحش ، والخوف في جيئة إليه .. وذهوب ، والساعات قد أفلتت من عمر الوقت ، والغيم قد فرّ فمرّ والنجم قد بدا في الأفق براقاً ساهياً وعينا معمر المتعبتان تتأملان كل ما يلعب في الظلمة ، والنفس مسكينة باتت توافقه للوصول .. للدفع والراحة بعد التعب ، والفائلة البيداء قد احتضنت في عباها النسمات المثلجة .
والخدر سيد الموقف فيه النجاة والسلامة من أنياب الثعالب الصفراء التي لا تجبر تائها ، أما القدمان فما زالتا تلتهمان المسافة للولادة فقد قطعها تقريباً .. وما هي إلا خطوات معدودات وتستقبله جارف بخيائها ودفعها .

والخطوة تلتهم الخطوة .

وفجأة أصاب النفس ارتياح شديد فرمى الخدر من أوصاله وغاب الخوف عنه من جيئة وذهوب وبدا الليل مؤنساً لا موحشاً ، وظلّ الباري وحده الرفيق فانتشى الفتى برؤية تلك الخيام المتعارة الواقفة في الوادي ..

والخطوة تتقدم باتجاه خيمة الفاضلة .

وما هو المتباهي بنفسه قد وصل أخيراً وبعد العناء إلى خيمته فرفع صوته قائلاً :
- لقد عاد معمر يا أم سالة .

فسمعت أمه .. فانتابها الفرح وتراكضت إليه هائمة .. ولما رآته ضمته إلى صدرها .. طويلاً ..
طويلاً .. وما كلمته .

عندئذ كان المجاهد ممتدداً مسترخياً على فراشه شارد الذهن مستغرقاً بذهول قد ملكه
وما عتقه بالرغم من أنه قد سمع صوت ولده الوحيد ينادي أم سالة ، وبلا شعور ابتسم ابتسامة
مشرقة وهو لا زال ذاهلاً بيوم المويلح⁽¹⁾ .

وما هي إلا لحظات دلف خلالها النجل وأمه إلى داخل الخيمة وإلى حيث تمدد المجاهد حيث تراكض
الصغير نحوه ليضرع إليه ويلثم يديه فكان لقاء حافلاً بالحرارة والدفء والابتسام .
وبعد أن استفاق المجاهد من ذهوله بيوم المويلح خاطب ولده بصوت خشن فيه ما
فيه من اللوم والعتاب قائلاً :

- ألم أقل لك أيها الفارس المقدم أن في الصباح رباحاً فلماذا أراك تسري إلينا ليلاً .
فأجابه معمر قائلاً بدفء :

- لقد غلبني الشوق إليكم يا أبتي فلم أرد الانتظار حتى الصباح ..
« ولكن .. ولكن الطريق موحشة ليلاً وقد تعرضك للهلاك والمتاعب » كذلك قالت
الفاضلة بصوت خائف .

فاستطرد النجل قائلاً :

- الحمد لله .. الحمد لله فما أنا قد وصلت سالماً .

فأردفت الفاضلة تقول :

- ساعد لك الطعام .

- افعل ما شئت يا أماه .

ولما نهضت الفاضلة لتعد الطعام لولدها .. بدأ الحديث بين معمر وأبيه في استفسار وجواب حول
حال سرت والمدرسة وسالة وزوجها وأولادها وحال جارف ونجعتها وأهلها .

وكانت المفاجأة عندما أخذ المجاهد يقول :

- سنرحل من أجلك لفزان لكي تتمكن من الالتحاق بالمدرسة الاعدادية في سبها .. سنرحل
من أجلك أيها الفارس المقدم .

ففرح الفتى وكذلك أمه التي جلبت له الطعام .. وبدأ الأخير بالتهام الطعام ، كان يتناول اللقمة

(1) يوم المويلح : هو صدام وقع بين المجاهدين الذين كانوا يتجهون بنجوعهم جنوباً مع القوات الإيطالية المنسحبة بتأقرفت بقيادة الجنرال
جراتسياني حيث استطاع قلة من أولئك المجاهدين أن يتصدوا لتلك القوات الإيطالية من موقع المويلح في الشمال الشرقي من قرارة
تأقرفت على مدى اثنتي عشرة ساعة كبدوا فيها القوات الإيطالية خسائر فادحة واستشهد منهم حوالي ستة .
« على البصري - مركز الجهاد الليبي » .

ليبتلعها .. فيبتلعها الدهول بفزان وسبها لكن احساساً مشوشاً كان يتتابه كلما حاول أن يرسم بمخيلته صورة لفزان الجنوب ..

وانقضت تلك الليلة بدفئها وما عادت في عمر الزمان .

وذات يوم .. وقبل أن يقترب الصبح بدت جارف الحزينة تحجلى بعد أن تناثرت على جسمها ظفائر الفجر ولما بدا أول الضوء هاتفاً للنشور .. استيقظ المجاهد من نومه وبدأ اليوم بذلك الاحساس بأماكن الألم في جسمه ، فطالعه على الفور سقف الخيمة فجلس ، وحاول الوقوف وما استطاع .. فلقد ملكته غيبوبة قصيرة تتابته من حين إلى آخر فعاد ورمى بجسمه للفراش ثم فرت لحظات وبعدها نهض من فراشه كرة أخرى فطالعه سقف الخيمة ، وحاول النهوض فنهض وهو يدرك أن هيكله مريض تعب ، وعندما خلع جلبابه ليبدل ثيابه مر بيده اليمنى على جسمه فتوقفت أصابع اليد على جرح قديم ما التأم بعد في كتفه الأيسر ذلك الجرح ظل من بقايا أيام الجهاد المشرف علامة محفورة لازمت طوال حياته ثم هالته البرودة فهمس لنفسه بتمرد « عليّ أن لا أستسلم للألم من أجل نجلي من أجل معمر » .

وبينما كان يرتدي ملابس الخروج نظر لولده النائم نظرات عميقة ثم ابتسم غصباً وركب مداسه « حذاءه » في طريق خروجه . فخرج ومر على الحظيرة ، كانت الفاضلة قد حلبت الحليب وها هي ذي في طريقها للتنور لتضع خبز الشعير .. وبعد أن توضع المجاهد عاد لخيمته وجلس بين يدي الله ليؤدي فريضة صلاة الصبح .. فصلى وبعد أن ختم صلاته رفع يديه نحو سقف الخيمة راجياً من الله أن يوفقه في علام ابنه الوحيد .

وفي لحظة دخول عائشة للخيمة بما حفلت يداها من الخبز .. أيقظ المجاهد ولده فاستيقظ الأخير .. وهرع للماء ليغسل وجهه ويتوضأ استعداداً لصلاة الصبح .

وعلى مائدة الافطار جلسوا ليتناولوا الطعام ، كان الطعام لقيمات مكسورة مغموسة بجفاف الأيام وقساوتها .. فشربوا الشاي وبعدها تأهبوا للرحيل لمدينة النخل ذو الأحكام .

أريحي النفس بدأ يللم أشياء خيمته المبعثرة ثم لفها بإحكام ورفعها على ظهر الناقة ثم مكّنها .. وراح ينهمك هنا وهناك استعداداً للرحيل ومثله الفتى قد فعل .

أما الفاضلة فانهمكت في بيت أختها رجعة في وداع أهلها وجاراتها .

وقبل أن تبعث الشمس بحدة دفئها سار موكبهم مودعاً جارف وأهلها نحو الصحراء وإلى عمقها .. توغلوا .

معمر يبدو اليوم حزيناً فرحاً شارد الدهن بالأيام الماضية والأيام الآتية وأريحي النفس على ظهر ناقته ما زال يشكو من شدة الألم في كتفه ذلك الألم كان يبعث في نفسه نشوة غريبة ويذكره بذلك الماضي الحافل وبشبابه الذي ما عاد .

أما أم سائلة فهي أكثر سعادة من زوجها وولدها .. فسعادتها اليوم ليس لها مثيل لأنها تعلم أن نجلها سيدخل المدرسة الاعدادية بسبها .. « نعم .. نعم لقد كبر نجلي » كذلك قالت في سريرتها قولاً انتشت منه مرات ومرات .

والرحلة إلى فزان يلزمها الوقت الطويل والتعب والابحار بمهارة في البيداء الغالطة المترامية .. ووحدته

المجاهد يتقدمهم وكذلك الشمس قد سبقتهم فغابت بعد أن أغربت في العمق .. والنوق حمر النعم
سائحة شاردة والظلمة قد شقت أدراجها وتكالبت على الكون فسادت في الملاء .
والنوق تواكب سيرها في بحر الرمل .

فجأة .. صاح المجاهد يخاطب زوجه وولده قائلاً :
« لنسترح قليلاً .. لنسترح قليلاً » وعلى الفور توقف الموكب عن المسير في مكان ما بعرض
الصحراء .
وها هم أولاء جميعاً وسط العراء الخالي تلفهم العتمة وتلفحهم الريح الباردة ويرافقهم السكون
المريب .

ست عيون راحلة للمعرفة .. لميلاد الصرخة .
ست عيون راحلة . بعذاباتها .. لترى النور .. وما أعظم هذه الرحلة .. ما أتعبا .. ما
أخطرها .

وخوفاً من المخاطر . ومن أجل الدفء أشعل المجاهد الحطب بعد أن جلبه الفتى من بين الامتعة
ومع نار الحطب ودفئه جلسوا جميعاً ليتناولوا الطعام ويشربوا الشاي وبعدها مرت بضعة ساعات
من الليل فاستسلمت الزوجة وولدها لسلطان النوم فناما متكئين على أمتعتهم .
وعين المجاهد ما ذاقت النوم ، ولما طلع النهار استأنف الموكب رحيله وأخذ يتابع الغوص
والانحار في عمق الصحراء الشاسعة ، فابتلع الأيام بلبالها ويردها ومرها وبعد المشقات والصعاب
ها هو قد وصل إلى مشارف سبها التابعة لولاية فزان تلك المدينة المنفية في عمق الجنوب .
وفزان بدورها تسكن قلب الجنوب فتسكنها الواحات الزاهرة والزاهرة بنخيلها الباسق ، عريقة قد
طلت للتاريخ وعليه برغم أنفها ومنفاها وحصنت بدفئها على مر الأزمان كل من التهب في أعماقهم
الصرخة وعاش فيهم الرفض بكل الوانه من أجل التغيير والحرية وضد الاستبداد والظلم حيث كانت
هذه الولاية هي التربة المناسبة والصالحة للجوء للعناصر الثائرة على الحكم في كل العصور فكان
الميلاد منها وكان الجديد .

في المنفية فزان عاشت أحقاد الظلم حقبات طويلة الأمد .. فأوجعت وصرعت وعاشت أخبار
الحروب كحروب سيف النصر⁽¹⁾ في العهدين العثماني والقرماني وحرب خليفة الزاوي⁽²⁾ واغارات
عمال السنوسية من أمثال محمد علي العابد وأتباعه .

(1) هو الشيخ أحمد سيف النصر من ولد نصر بن زايد بن سليمان بن وهب بن واقع بن ذياب من بني سيام واشتهرت قبيلتهم بأولاد
سليمان ، وهو سليمان بن وهب المتقدم ذكره .. وكانت وما زالت رياستهم في ولد نصر وهم من صميم العرب سلفاً وخلفاً وفي
سنة 1221 هـ أرسل يوسف باشا القرماني الشيخ أحمد ضد جيشا .. فالتقى به في سرت ودافع الشيخ أحمد ومن معه دفاعاً جيداً
واسفرت الحرب عن قتله وتفرق انصاره وأسر أبنة عبد الجليل وكان صبياً لم يبلغ الحلم . « اعلام ليبيا / الطاهر الزاوي » .

(2) هو خليفة الدعليك . تخرج من المدارس التركية العسكرية برتبة ضابط وأول عهده بالحرب الطرابلسية انه جاء مع سرب من الشام
سنة 1915 م أيام القوطانية على طريق برقة وسبب وجوده في فزان أنه لما هزم محمد العابد وداعيته كبل السيد وطرد من الجبل
سنة 1916 م وبقي في فزان (مرزق) ولما التحق نوري بك بمصراته سنة 1916 م كان العابد ما يزال بفزان فأرسل إليه نوري
بمهمة مقاتل لطرده منها برياسة احسان ثاقب أفندي وهو ضابط طرابلسي تخرج من المدرسة العسكرية العثمانية ورافقه معه خليفة
أفندي الدعليك . وهذا هو أول عهده بفزان .

وها هي سبها تستقبل الفتى الذي طالما أدمت الطريق إلى المعرفة قدميه واستطاع بكل جدارة أن يستدرج الصرخة إلى أعماقه بعد أن خرجت من قلب المسمكة .

ها هو ذا ينظر بدهش ومن على مد البصر إلى تلك القلعة التي سيحاذيها الموكب بعد قليل .. وازداد تأمله لما فدلته في أطلالها على أن الماضي هنا كان يعيش ، ولما حاذاها تمن بأبراجها الأربعة التي وقفت شاحخة في أعلى الهضبة .

والموكب يزحف باتجاه قلب سبها وفي القلب توقف فأعلن الوصول ومنذئذ استقرت عائلة المجاهد بين الأقرباء والأحبة ، فبدأت سنوات الصرخة مسيرتها مسيرة تماماً عمر الفتى الذي التحق مباشرة بالمدرسة الاعدادية ، تلك الواقعة لوحدها بعيداً عن المساكن والضجة والشغب . وأيام الدرس في المدرسة الاعدادية كانت تنمي فكره يوماً بعد يوم فتنامى الحس الوطني والشعور القومي لديه .

وكلما امتدت الأيام .. كان يكبر بحكم الطبيعة البشرية ، فتكبر في أعماقه الصرخة تلك التي مكنتها الظروف المحيطة به والتي ساعدته على أن يواكب بتمرد رحلة العصيان ضد سلطان التسلط ولوحده .. ذلك التسلط الظالم الذي كان يلمسه ويتحسس في أدق الأوليات التي كانت تحيا في حياته وحياة أهله فبدأ طموحه المجنون يتخطى أولى مراحل ولادته ، بعد أن استهدى له طريقاً وامتنى أول المنابر ليصرخ ويقول ويرفض .. ويحاول أن يعبر عما يخلج في أعماقه الثائرة من أجل التغيير الشامل .. فوقفت من حوله الوجوه باهتة حائرة مدهوشة فيه ومنه وكم استغرقت تلك الوجوه تصرفاته واهتماماته وتصورات وأفعاله المشاغبة التي ما عرفت المراهقة في سن المراهقة .. فاتفقت تلك الوجوه على أن وراء هذا الفتى هستيريا .. أو هوس وبدورنا نلمس لها العذر لأن من الجنون أن يصدق أحد أن حكم المملكة يمكن الاطاحة به والأكثر غرابة أن يقف مثل معمر الفارغ اليدين الفقير الصغير في وجه سلطان الظلم والطغيان ذلك الواقع من نفسه كثقة النهار بالضوء بل كثقة الليل بالظلام .

ولكن وجوهاً عشقت المستحيل وعرفت معمر عن كتب وعاشت الوجع ذاته وأهلكتها الظروف حتى طفح الكيل .. صدقت ذلك الطموح على أنه أمل صعب المنال ، فشجعت به بقدر استطاعتها ولم تكن هي ذاتها قادرة على العطاء .

وكبرت الصرخة لما حفل ذلك العام الزاخر بالمآسي والويلات في الداخل والخارج في الأزقة والمدن والعواصم ففيه هبّ العدوان الثلاثي على مصر .. وفيه تفاقم الظلم في الساحات الليبية والعربية . وفيه أدرك الفتى حقيقة الفرحة المزيفة التي عاشها شعبه . تلك اكذوبة الاستقلال الذي كثرت مظالمه فما نسي شيئاً لم ينس أن يشوه الحب في الناس وفي المدن وفي الصحراء ذاتها .. لم ينس أبداً أن يطيل عمر القهر الذي وهبه لنفوس الفقراء .. لحياهم .. لأحلامهم لدفعهم .. لقد أدرك الفتى خطورة الهيمنة الأجنبية الاستعمارية على ليبيا .. تلك التي عشقها إلى آخر منحدر في مستويات العشق .

فالحدث الذي هز مصر هزاً جعله يتعرف وعلى الأقل على هوية ذابحه أولاً .. وعلى خارطة الوطن الممزق .

لقد عرف وتعرف .. وتعرف على ما يحدث في قلب المسمكة .. كما أنه وصل إلى هوية الناصر الخالد عبد الناصر فعشق فيه قوميته ... وفرح لانتصاراته .. ومنذ ذلك الوقت انهمك بمتابعة الفكر السياسي والفكر الثوري .. فطالع الكتب السياسية والثورية والاجتماعية التي كانت تدخل إلى الديار خلصةً عن طريق مصر عبد الناصر .

ذلك الفكر .. مع تلك الظروف .. وفي ظل المحيط المظلم والأحداث المتتالية العنيفة في حياة الأمة دفعت به ليفوز في رحلة التمرد ويقطع شوطاً لا بأس به ذلك الشوط الذي جاء مبكراً جداً والذي توج عندما قامت الوحدة بين مصر وسورية .. فقيام تلك الوحدة ألهم مشاعره وأجج عواطفه تجاه أصقاع المسمكة .. فهب ليؤيد الوحدة بل ليؤيد ما يطمح له .. وبعنفوان وحنكة هي أقرب للدهاء .. في مرحلة التهجين قام بتنظيم الصرخة التي تمثلت بالمظاهرات التي اجتاحت شوارع سبها الخائفة .. سبها الخرساء الطرشاء العمياء .

و ذات يوم انتاب المجاهد قلق بالغ عندما أخبره معلم المدرسة بأن تصرفات ولده معمر لا ترضي أبداً وقد تضرر بمسيرته التعليمية .. فملكه الخوف من ذلك .. وتصور بألم أن مسيرة علام معمر قد توقفت بسبب تصرفاته وتدخله بالشئون السياسية .. ثم طرد من خياله ذلك التصور وصاح بأعلى صوته راجفاً .. مرتعشاً .. غاضباً

« لا .. لا .. يستحيل أن يحدث ذلك .. يستحيل أن يحدث ذلك » قال ذلك باصرار عنيد وعيناه المتعبتان تودان البكاء وما بكى ووحدها نفسه المعذبة ظلت على الدوام توافقه لنجاحات معمر . وعندما عاد معمر من مدرسته في ذلك اليوم أبى المجاهد أن ينسب بينت شفة بخصوص ما قاله له معلم المدرسة لأن ثقته بتصرفات ولده كبيرة .. ومطلقة الحدود قد صنعها له فزرعها فيه ولما خاطبه قائلاً : ما أخبار المدرسة أيها الفارس المقدام

فأجابه : « كل شيء إلى هذه اللحظة على ما يرام » ثم انصرف ذلك اليوم . في تلك الفترة كان معمر قد أرسى في فكره أيديولوجية خاصة بنهجه حيث أخذ يتصرف بأكثر دقة وأحسن الاختيار فيما يتعلق بمسألة الوقت ومعطياته .. لخلق ما يود خلقه في ظل الأجواء السائدة .

وبعد أن تقدمت به الحال وتكشفت له القواعد الظالمة التي تحكم وتتحكم في الأصقاع .. امتلأت زوادته بالمعرفة والبيان والتبيان .. وعليه أن ينشر ويبدل .. فلن يرضيه غير ضياء الحق والحقيقة .. وكسبا للرضى بدأ ينتهز الفرص .. والفرص كثيرة .. كثيرة ..

وها هي قد جاءت الفرصة الحزينة المؤلمة .. فلقد وقعت الكارثة لتزق جسد الوحدة بين سورية ومصر فجاء الانفصال كالكابوس الرهيب .. واستاء معمر وتألم .. لذلك الحدث .. ولكنه لن يدع الفرصة تفوته .. فهب غاضباً وقام بمظاهرة ليعبر عن مدى استيائه واستياء وسخط شعب ليبيا على قرار سورية بالانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة في الواحد والعشرين من أيلول عام واحد وستين وتسعمائة وألف .

وهب معه كل من آلمهم الانفصال وخاصة رفاقه الذين بدءوا معه النضال منذ إنشاء حركة

التنظيم السري التي شقت أدرجها للساحات السياسية منذ مطلع العام 1959 م .
 فنددت المظاهرة بقرار حكومة دمشق بالانفصال عن دولة الجمهورية العربية المتحدة في ظل
 أجواء تعسفية ظالمة . ونددت بالمظالم فطالبت بعودة صوت الحق الخائف .
 ووحدها كلمات معمر الصارخة قد ألهمت مشاعر المتظاهرين وبثت الحذر في نفوس الحكام
 المتخاذلين .. فما كانت تلك النفوس المريضة تصدق أن في سبها مثل هذا الاضطراب الذي لو
 امتد عمره لحرك ساكناً .
 كلمات معمر .. اجتازت حدود سبها .. ثم حدود ليبيا ودخلت لمصر مباشرة لمسامع الخالد
 الناصر جمال عبد الناصر .
 وبعد تلك المظاهرة .. استمر معمر .. بالتنديد ضد المظالم .. ولكن من يملكون زمام الأمور
 في المسكة وقفوا للصرخة ليخمدوها .. فما استطاعوا .. وحاولوا .. وحاولوا .. وما استطاعوا ..
 فوصلت بهم الحال للاضطراب ولما وجدوا الحل .. هجروها بل طردوها بعد ملاحقتها وهي
 برعم ما فضجت بعد .
 وحدث ما لم يستطع أن يتصوره المجاهد .. حيث طرد الثائر الذي استدرج الصرخة لأعماقه
 وتمكن منها بإحكام .. لقد طرد من مدرسته هو وبعض رفاقه ففجع المجاهد لهذا .. وفجعت عائشة
 أما الفتى نفسه فازداد إصراراً على المواظبة في طريقه .. وازداد غضبه فأقسم على البداية . أقسم
 للنهاية .

قرار طرد معمر القذافي من المدرسة وعقوبات أخرى للطلاب الآخرين

- السيد / مدير مدرسة سبها المركزية .. بعد الصحة ..
 بالاشارة إلى التقرير المقدم منكم ومن نائب مدرسة سبها المركزية . ومن مراقب القسم الداخلي بخصوص الطلبة الذين قاموا بالمظاهرة
 في 5/ أكتوبر عام 1961 م . فإني انقل إليكم العقوبات التي نراها ضرورية التطبيق ضد الطلبة الآتية اسمائهم لارتكابهم أعمالاً لا تتماشى
 وواجبتهم الدراسية والطلبة هم :
- 1 - الطالب / معمر ابومنيار القذافي
 « الطرد من المدرسة مع حرمانه من الدراسة في مدارس الولاية » .
 - 2 - الطالب / المدلي الصديق
 « الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية » .
 - 3 - الطالب / مصباح الغويل
 « الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية » .
 - 4 - الطالب / علي أبو قلية
 « الطرد من المدرسة والأقسام الداخلية لمدة 15 يوم مع اخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بأن يتكفل بتعنيفه وتأديبه » .
- 6 - 7 - 8 - 9 إلخ .
 لقد تم اتخاذ العقوبات اعلاه تطبيقاً لنص القرار الوزاري رقم (5) الخاص بالعقوبات التأديبية للطلبة وبطلب من مدير المدرسة
 المركزية بسبها ومراقب القسم الداخلي العمل على تنفيذ ما ورد اعلاه في أقرب وقت ممكن ..
- في 29 - 10 - 1961 م

التوقيع

على المجموعة

ناظر التربية والتعليم - ولاية فزان

في تلك الأثناء انتاب العائلة حزن عميق وكأن الآمال قد ضاعت فالفاضلة بدورها ما صدقت الكارثة وكذلك المجاهد الذي ما استسلم أبداً بل أصر على قوله بدون أن يصيبه الضعف ومن جديد أخذ يقول ويردد ويتمم ويهمس « يستحيل أن يحدث ذلك » فعزم فوراً وقرر الرحيل لمصراته بعد أن فقد الأمل في فزان بأكملها فغادر سبها الجنوب ناقماً معانداً كل الصعاب التي وقفت حائلاً أمام مسيرة تعليم نجله .

أما الفاضلة فقد شعرت بالاطمئنان بعد الخوف والفاجعة وعلى الأقل عندما ادركت أن مسيرة علام معمر لن تتوقف أبداً فيمكنه المتابعة في ولاية أخرى .

لكن معمر الصرخة ذاتها أحب سبها حباً غريباً ففيها وضع أولى اللبنات وأسس لقيام ما يريد قيامه وفيها استهدى على أول الطريق لطموحه المجنون العظيم .. وفيها كان ميلاد الصرخة .. لكنه وقبل أن يغادرها وعدها وعد الحر يوم اللقاء والعودة ولو بعد حين .. فلو كان ذلك الحين مستحيلاً سيعود إليها رغم أنف المستحيل ولا بد من لحظة الانتصار الآتية :

الفصل السادس عشر

المرحلة الرابعة :

- الرحلة من سيبريا النفس الباردة إلى دفء مصراته

الجليد .. جليد الدماغ والفكر في الزمن العربي العاهر الذي أصاب النفوس المضطهدة المذلولة للأجساد التي أضحت هياكل طيبة مريضة لا تعرف الدفء وكل ما حولها بارد لاهث بالصقيع .. تلك الأجساد المنهارة ما استطاعت أن تميز بين الصرخة والفرحة لأن الذل والاضطهاد يركبها فتقله على ظهرها غصباً ولا تستنجد .. عليها أن تقوم بدورها الذي ينحصر في العمالة والعتالة والخضوع للندالة .

ووحده الصقيع حليف الجليد يحتلها فيسكن حتى في رغيها وقوتها ويبتكع عقلانيتها وأعرافها وتقاليدها .. ويفتك بحسها ووجدانها ويعفتها وعذريتها لتبقى معزولة حافية عارية .. وذاكرتها تصبح مشلولة تماماً منفصلة عن الرؤية والتطلع وعن الصورة وحتى عن العقل الباطن .
ذاكرتها المسمومة تضطهد الخيلة وتمنعها من أن تتفرز الصور أو أن تتمعن بالتفاصيل أو أن تقف عند الفواصل وعليها أن لا تدرك معنى الاستفهام أو أن تبحث جاهدة بمعطيات الحس الإنساني أو أن يدركها الضمير البشري ذاته .

في سيبريا النفس الباردة التي يسمونها الوطن العربي عليك أن لا تصرخ فتفجع وأي فجع ذاك !! عليك أن لا تتجاوز حدود أوليات العتمة وأن لا تخرج من بوتقة الظلم والقهر الكالحة يجب أن تعيش ميتاً وعليك أن لا تموت .. لتظل الكوابيس لك رفيقاً وسياسة التجويع مسلماً ورغيف الخبز هو عليك الرقيب .

في سيبريا العرب المتجمدة يجب أن تقول شيئاً في الخضوع والطاعة والخنوع ولو قلت غير ذلك فأنت الجريمة وأنت العقاب وأنت البهيمة .

بهائم .. نحن علينا أن نعيش من دون أن نضحك ، فالبهائم التي تنتمي لفصيلة الحيوان نجدها .. ونراها تبتسم ابتسامات هي أصفى اليوم من عمر البشر .

بهائماً علينا أن نعيش من دون كلا وحرية ، فالبهايم ما أعلنت الجوع بعد في مملكتها الحيوانية
فمازلنا نراها تأكل وتشرب وتسرح مطلقة العنان ، وحتى الطيور تغرد وتغني وأطفالنا نيام على
عتبة الجحيم في بؤرة الجوع وفي مستنقع الخوف الرهيب .

الجليد من أقصانا إلى أقصانا .

في المخيخ وفي الشبكية وفي الأطراف ، في كرات الدم وفي عمق الشرايين .

الجليد في حياتنا المهزومة الهاربة من أي انتصار .

الجليد في شوارعنا وبيوتنا ومدننا الغارقة في لجة الانتظار .

الجليد في الكرايس والمدارس والجامعات تلك المستقطبة كل الاستقطاب .

الجليد في « المزابل » وفي عمر النفايات في داخل أنابيب القذارة وحتى في عمق العذارى .

الجليد منه تفر لتهاجر الأدمغة للدفع .. فلو ظلت ستموت ولو خرجت ستموت ولكننا

سنتفق لو قلت أن لكل قاعدة شواذاً .

فلو قلنا أن الحب قد انتهى من الوجود واندثر فالواحد الأحد ما زال باقياً موجوداً ..

قهراً لا يموت .. هو الحب والحب هو .. إذن فالحب يبقى موجوداً .

ولو قلنا أن التاريخ أحرق وغدا بقايا ورماد .. فإن ذكرى المختار والجالط وأبو منيار ما زالت باقية

إذن أهل التاريخ باقون .

وإذا الصور قد انتزعت غصباً من كهوف ذكرياتنا .. فالورد من البنفسج والأرجوان بخدائعه مازال

مطلاً .. والتين في بساطينه شاخ . وكذلك التوت في حاكورة جدتي .. حُي زاه معطاء يعيش في

ظل أصفى وأبقى ممالك الوجود في المملكة النباتية الدافئة .

إذن الورد يبقى صورة والتين صورة والتوت في حاكورة جدتي صورة باقية زاهية وكذلك لو قلنا

بتشدد إن الإسلام بات يحيا في الزمن المقتول .. فإنه لن ينقرض ما دام كتاب العزيز موجوداً .

وكذلك لو قلنا فيما يخص شمس سبها إن الصرخة التي غابت غصباً وقهراً على أيدي الضلال

والظلم برحيل معمر الصرخة منها .. فهذا لا يعني أنها لن تشرق أبداً ما دام معمر مواكباً رحلة

تمرده ورفضه .. وما زال يعيش .. فهذا هي مصريته (1) العريقة المبعثرة في دياجير الظلمة ..

المدينة المرسومة كالوحة أبدع من لوحات لبد (2) التاريخ ، مرسومة كالشواطئ العذرية الواقفة في

وجهها منذ الأزل .

(1) مصراته من المدن الكبيرة المشهورة في ليبيا وتقع شرقي مدينة طرابلس بنحو 215 كيلومتر . وقد اشتهرت منذ القدم بالنشاط التجاري

وتقع على بداية خليج سرت في الشمال وعاصمتها قديماً (قصر حمد) ويقال أن أرضها غنية بمعادن كثيرة كالزئبق والكبريت .

(2) بُدّة : مدينة بين برقة وافرقيّة ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة وهو حصن في بنيان الأول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة ،

يسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس يحاربون كل من حاربهم ، ولا يعطون طاعة لأحد ، يقاومون مائة ألف ما بين

فارس وراجل كانت به وقعة بين أبي العباس أحمد بن طولون وأهل الفرقيّة فقال أبو العباس يذكر ذلك :

ان كنت سائلة عني وعن بحري

فها أنا الليث والصمصامة الذكر

من آل طولون أصلي ، ان سألت لما

في المفتخر بالجود مفتخر

لو كنت شاهدة كرتي ببلدة إذ

بالسيف أطرب والمهامات تبعد

إذاً لعانيت مني ما تباده

عني الأحاديث والأبواء والخير

مصراثة الدفء والطيبة ، الود والمحبة ها هي تستقبل الصرخة المطرودة القادمة من فزان .. من سبها الجنوب التي أرادها الطغيان باردة متجمدة لا صوت للحق فيها ولا حتى للمصدي .

مصراثة بروعة عذراء حورية فيها .. بروعة أهلها وأعراقهم وأعرافهم بخوانيتها وشوارعها وساحاتها الزاهرة .. وقفت لتفتح صدرها لروح المتمرد لتحتفي بدفته رغم دفنها وهي تبكي من المظالم فيها وتضحك لتمنع للصرخة الوافدة من حياتها عامين كاملين ، ولتسلخ بدهاء من حياة تلك الصرخة عامين كاملين ، وتفوز بعامين من حياة التمرد البطل فكان في ذلك بعد حين وساماً لها تفاخرت به .. وكم تفاخرت !!

والمتمرد على حكام سبها دخلها متألاً حزيناً وعلى الفور أخذ يتربع في صدرها لأنه عرفها جيداً وعرف أنه لا يملك اليوم الزوادة .. لقد أدرك أنه جائع لطلب المعرفة وطلب الوصول لصوت الحق الخائف وعليه أن يلتحق مباشرة بإحدى مدارسها ليتمكن من أن يعاند الزمن .. ففعل وتمكن من ذلك بجهوده الشخصية وحصد أول ثمار زرعه الذي كان قد زرعه فيما مضى أثناء وجوده في سبها الجنوب ، فلقد تمكن أحد أصدقائه المقربين الذي كان قد عرفه منذ طفولته الخرساء والذي كان قد كلفه بتحريك وتجنيد واستقطاب عناصر للتنظيم السري في هذه المدينة من أن يسهل عملية التحاقه بالمدرسة بالرغم من أنه لم يكن يحمل بيديه أية أوراق رسمية تخص التحاقه وتسجيله بالحياة الدراسية .

ونجحت الأيام في عطاءاتها فتواردت مسامرة لمسيرة علامه بخط يوازي تماماً زمن المظالم وعمر القسوة ووحدها أخلاقه السامية قد أفلحت في استيعاب الظروف الحالكة الكالحة وجذب محبة الناس لصفوفه ولطريقه ولساحات طموحه الذي تخطى بدوره مرحلة جديدة ومهمة بفضل الظروف واعتباراتها وكل معطياتها في كافة المستويات والميادين .

فلقد كبرت ساحة حركته المدنية التي أسسها ومكّنها في مصراثة بفضل إدراكه ووعيه السباق لجذب كل ما هو جديد والاستفادة منه على النحو الأسلم .

وما إن انتهى العام الدراسي لسنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف حتى تخرج فيه منتصراً واعداً بالانتصار الأكبر .

وخلال العام ذاته عزم على أن يعقد أول جمعية عمومية لإدارة حركته التي اشترك فيها رفاق دربه من كل الأصقاع الليبية .. وتم فعلاً عقد أول جمعية لحركته بعد جهد كبير في البحث والعناء والانتظار بسرية مطلقة .. وقد رسمت تلك الجلسة الخيوط العريضة والتفاصيل للأيام الآتية .

ومن أهم مقرراتها قرار يقضي بأن يدخل بعض عناصرها المجتمعين إلى الكلية الحربية حيث يؤلفون نواة الضباط الودويين الأحرار .. وكان على هؤلاء أن يضمّنوا للحركة مساعدة الجيش بكل قطاعاته البرية والبحرية والجوية .

في الوقت الذي كان فيه قصر الملك ادريس في مصراثة منفصلاً تماماً عن الأجواء الخارجية حيث عزّل نفسه في أجواء السمر الصاخبة تلك التي سلبت سحر الليل ونكهته وسرقت وجه الفجر ذاته .

قصر مصراثة الذي غصّ بما لذ وطاب ، بالخادماات الجاربات الجميلات اللواتي خضعن فيه للنشوة واللذة والخطايا بين أيدي الخطائين الدجالين ليمارسن الجنون بفرائضه الحيوانية ويركعن

كما يركع الماس على منضدة قدرة في سوق النخاسة .
في قصر مصراته المعزول عن دفء البشر تغادر العفة ولا يبقى غير الرذيلة ففيه هي السلطان
كالنفوس المريضة اللاهثة في عمق أجوائه لكل ما هو ملوث .
ووحده الكاتبين (طاور)⁽¹⁾ يدير العهر فيه بأبشع مستوياته ذلك القواد الذي طالما طاف يتفقد
ويلون ويزخرف قاعات النوم والسمر في القصور الملكية التي تناثرت في البلاد الليبية كعلامات
مميزة لسلطان المملكة وبؤر للفساد والدعارة والرذيلة .
تلك القصور .. كقصر الخلد بطرابلس ، وقصر المنار في بنغازي وقصر طيبة بالبيضاء ،
وقصر غريان بغريان وقصر الجغبوب بسبها وقصر اجدايا باجدايا وقصر سرت بالخليج .. وقفت
للعهر مواطن ولطاور ليدررها ويدبرها فكم دبّر لانتهاك عذرية العذارى .. وكم سلب ما سلبه من
الأعراف والتقاليد داخل وخارج القصور .
أجواء القصور تلك كان يدرك الفتى ألوان عهرها .. ولهذا نراه يسرع في تحقيق طموحه
لأن الشارع لا يهم من توهم القمار ولياليه .. من توهتهم العاهرات والخمر وأصناف اللذة الحيوانية
لذلك .. كان معمر وحده المستفيد من تدرج خطواته .. التي جاءت كالبرق تلمع .. ولما لمعت
أعمت هؤلاء الأوغاد .

(1) طاور : هو الكاتبين طاور .. مشرف الإنجليزي للقصور الملكية المعروف في جنوب طرابلس أيام الإدارة البريطانية . وكان يلقب بمسحار القصور .

عين هذا الإنجليزي في منصبه بتوصية من محمود المنتصر الذي كان على معرفة به وقد استضافه عندما ذهب محمود المنتصر قبل الاستقلال إلى بريطانيا للاتصال بالحكومة البريطانية ونشأت بينهما صداقة .

الفصل السابع عشر

المرحلة الخامسة :

— المرحلة من دفعه القرار إلى بنغازي أعتاب الانتصار .

أرجوانة⁽¹⁾ للمدى أمّ الفقير وطالب المني ، مضيافة كريمة كوجه الطفولة ومثل الابتسام والرجا ومواطن للأعمى والبصير .. والبصير فاقد الثنا ، على أكتافها حمائل النخيل وأعباء أثقلت كاهلها على مرّ السنين .

وفي عمقها ترعرع التاريخ فشمخ ومثله ترعرعت أحلام المساكين . حبيبة للود وللوداد فيها ألف حكاية ، تذبذبك بدفتها وفي صوتها ألف أغرودة وزغرودة للهيام والسوسنا ، وتلف في حضنها الساهرين في وجه الفزع للفوز بآخر هزيع .

مناضلة وفي عرفاتها المناهل ، عربية عريقة مجيدة بنضالاتها وانتصاراتها فكم زارها الويل بالمآسي وما فجعت ، وكم بسياط الجلاد ضربت وما صرعت وكم على أبوابها المظالم قد سحقت .

أرجوانة معطاءة والندى في عمرها ظلّ كالناس ما ذبحته صباحات الشمس والمدى ، أرجوانة في الليل هي السحر رغم الدجى ، وفي النهار صوت لن يسقط فيه الحق والمنى .. وذات مرة ..

(1) هي بنغازي: (بني غازي): مدينة عربية انتشت في المائة الأولى بعد الألف هجرية تقريبا ومر بها الرحالة العياشي سنة 1072 هـ فوجد فيها عاملاً لصاحب طرابلس وأهم ما جاء في الدليل السياحي عن مدينة بنغازي أنها عرفت خلال تاريخها الطويل الأسماء التالية بوسريديس في عهد اليونان وبرتيق في عهد البطالمة والرومان ثم بني غازي في العهد الإسلامي .
وتقع مدينة بنغازي على شبه جزيرة محصورة بين البحر وملاحة السلماني أما الآن فقد ازداد عدد سكانها وامتدت المباني فتكونت مدينة بنغازي الحالية بشوارعها الفسيحة وجامعتها ومستشفياتها ومبانيها وفنادقها وحدائقها الجميلة الزاهرة فصار من المدن المشيدة على أحدث طراز معماري إلى جانب اشعاعها الثقافي والحضاري .. بارك الله بأهلها .

ذات مرة جاءها المختار⁽¹⁾ مكبلاً مساقاً للمحاكمة ، وهو يدرك أنه سيدفع الثمن غالباً .. لم يكن يتصور الشيخ الأسد أن شيئاً ما يمكن أن يوقف مسيرة جهاده ، وأن كابوس الظلم والاستعباد سيكون قادراً على أن يخمد في أغوار نفسه الصرخة .
جاءها المختار متمرداً حزيناً في آخر محطاته التي ما أدرك التعب فيها والخذلان يومها اهتز العصب في كيائها وكم اضطربت فانتحبت وحزنت لما غاصت بكل ما فيها من ناس وبيوت وحرارات وشوارع وشواطئ ورمال وطيبة وحسرة ورهبة وخوف في عيون المختار ، وعيونه كانت تستخلص من رحابها حزن الرجال وكبرياؤهم وأمل الأطفال ورجاؤهم وتغرف بقدر ما استطاعت غرفه من جمالها الأخاذ الأرجواني الحزين ومن تلك الذكريات الباقية الواقعة مترتبة هنا .. وهناك تلك التي عاشت ذات مرة وستعيش وعيناه مازالتا تحدقان في مداخلها المضطهدة ، وفي أجوائها الكثيرة المفروعة .

« ولكن .. لا .. لا سيذهب المختار الجسد وستبقى روحه فيك » . كذلك قال الشيخ الأسد في سريره يخاطبها قبل أن يدخل إلى قاعة المحكمة السورية المظلمة ثم وعدها في ذلك اليوم بقرار دافئ مثل دفته ومثل دفاء مسيرته الجهادية الطويلة وكان وعده لها صادقا .
وقد أبت الإرجوانة الحزينة أن يرحل عنها الشيخ مع دفته فجعلت تلاحقه إلى حيث وقفت مقصلة الموت على مرآة الأحبة والرمال في سلوك⁽²⁾ العظيمة . ولما مات الجسد استدعته لأن ينغمس في رحابها الطاهرة المفروعة ليبقى .. ويبقى .. وحدث ذلك فزغردت حينذاك للموت أروع زغرودة وأقامت في حضنها قرايين الغناء لدفاء الجهاد وشيخ الجهاد ، ودف القرار وشيخ القرار .
ودار بعد ذلك الزمان دورة ليعود إليها بالزغرودة .. عندما جاءها نجل جارف المنسية من دفاء القرار لأعتاب الأظفار .

وها هي ذي تزغرد لقدمه زغرودة صامته وتفرح فرح الساكنتين المدعورين .
ها هي بنغازي تضمه إلى رحابة صدرها وتتمن بكل ما فيه وهي تدرك أن وراء خطواته العنيدة زحفاً وانتصاراً .. فانتصاراً .
ولما توغل نجل جارف في عمقها اهتز فيها العصب بعد السنين النائمة فهز كيائها رويداً .. ببطء مثل اللحظات ، ومن يومها ظلت تنتظر زمن الأظفار ذلك الآتي لا محالة .
وفي حضنها التحق بالكلية العسكرية تلك التي ظفرت به لعدة أعوام متتالية فمنحته من قهرها وعذاباتها وقسوتها ما منحته وزودته من زوادتها .. فأثرته ثم أثراها وأثرها .

(1) عمر المختار : 1867 م - 1931 م شيخ المجاهدين من قبيلة المنفة العربية ولد في بلدة البطنان بطبرق أو ولاية برقة وتلقى علومه الدينية في جفوب مركز الدعوة السنوسية ولما حفظ القرآن وأم دروسه عُيِّن شيخاً على زاوية القصور بالجليل الأخضر .. اختاره السيد محمد المهدي شيخاً لزاوية كلك بالسودان . عاد إلى برقة عام 1903 م لإدارة شئون زاوية القصور حتى 1921 م ، وعندما احتل الإيطاليون الفاشست ليبيا هب للدفاع عن أرضه فتولى قيادة الحرس الوطنية ضدّهم وباشر الجهاد سنين طويلة حتى قبض عليه الإيطاليون وأسروه وقدموه لمحاكمة صورية حكمت عليه بالموت شنقاً ونفذ الحكم في ساحة عامة أمام أبناء الشعب الليبي بمدينة سلوك عام 1931 م . الموسوعة العربية .

(2) سلوك : مكان برقة جنوبي بنغازي إلى الشرق بنحو 51 كيلومتر قال عنه العياشي أثناء مروره به سنة 1072 هـ هو آخر برقة الحمراء من الناحية الغربية وهما الآن من المناطق العامرة والأهلة بالسكان وبها منشآت مختلفة ومدارس ومشفيات .

ولم تكن تلك السنوات حافية في حياته بل كانت أكثر سنوات عمره التهاباً وخوفاً وعتاداً . حيث أخذ يعبّد الطريق للانتصار ، فاطلع خلالها عن كتب على واقع الجيش فتوغل في عمقه ليدرك أنه لا يمثل تلك القيادات الجائرة والرتب العالية الملتفة ككلاب الحراسة حول كرسي العرش الملكي وأذنا به ، وتبين له بعد استكشاف أن فراغاً كبيراً في أغواره يمكن الاستفادة منه وتوظيفه لمسيرة طموحه ودربه الهادف للخلاص .

لقد أدرك معمر يقين اللعبة القذرة التي كانت تمثلها القيادات برهبتها وبطشها على الجماهير المغلوبة .. فغاص بمجادة ومهارة في الجوهر وتمكن من فهم تلك اللعبة لعبة المظاهر الزيفة الخفيفة التي كانت بدورها كالشبح تقف في وجه الجماهير .

والرفاق حوله ، وحوله الظروف في صالحه ، ووحدتها ايدولوجيته في كسب ما يخدم طموحه وطموح العريقة لليبيا قد أurst وبإحكام واتقان قواعدها فمكنت جذورها بقوة في العمق الجماهيري ذاته ، واستطاع نجل جبارف المنسية وبقدرة قادر أن يكسب إلى صفوفه العاملين في كل الاتجاهات والميادين .

بدءاً من الجيش ووصولاً للجامعات ثم للصدارة في أعماق النفوس الهياجة الثائرة في أغلب الأصقاع الليبية .

وذاث يوم مشهود وبينما كان معمر داخل ثكنته هبت الصرخة في أعماق بنغازي العظيمة التي أخذت بدورها تعلن الرفض والعصيان المدني ضد البطش والظلم . فالتهمت أعماقه لأن الأسوار والجدران والقوانين العسكرية الصارمة وقفت حائلاً بينه وبين جماهيره في قلب المدينة لكنه كان يعلم أن الجدران والقوانين الصارمة والأسوار لن تفصله أبداً عن لهيب الحدث ذاته .. فاضطرب اضطراباً شديداً وبدأت رحلة الغليان في أعماقه تتفاقم .. وتتفاقم بشدة . وبنغازي الراضية للذل والاحتقار ، للفساد والريذيلة ، للحكم المتسلط والعمالة قامت في حضنها المظاهرات لتز و تصرع ولكنها سرعان ما قمعت على يد الطغيان بالرصاص والبطش وهي في أوجها .

تلك المظاهرات ، وتلك الظروف استطاعت وبشكل غير مباشر أن تكشف لمعمر حقيقة الرفض الجماهيري الملتهم فانتشى رغم جسمه المضطرب ورغم الذي قد أصابه من الويلات التي لحقت أثقالها على كل من صرخ وتظاهر لقد انتشى نشوة عظيمة رغم أن الأسوار ما زالت واقفة بينه وبين الساحات المقتولة .. فاشتد عزمه على المضي في طريقه وعلى أن يبدل الحال بعد حين .

فأسرع لتشكيل تنظيمه داخل صفوف الجيش الذي سار بخط مواز مع تنظيمه المدني الواسع النطاق ، ثم شكل بعد ذلك اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار داخل الكلية العسكرية وبدأ العزيمة على إقامة اجتماعاتها من حين إلى آخر في أحلك الظروف وأصعبها التي أخذت تم وتترالى في زمن المخاطر وفي اخطر المواقع .

وكان أول اجتماع لها على شاطئ « طلميثة »⁽¹⁾ في عام اربعة وستين وتسعمائة وألف حيث

(1) « طلميثة » .. بلدة على ساحل البحر شرق بنغازي بنحو 104,5 كيلومترات واسمها تحريف لاسم المدينة قديماً وهو « بطولميس » =

انبثق عن ذلك الاجتماع الأول قرار يقضي بتكوين لجنة شعبية تعمل مستقلة كلياً من الناحية التنظيمية عن اللجنة المركزية للضباط الوجدوين .. والأخيرة بدورها فشلت في دورها للاضطهاد الذي كان سائداً وقتذاك وأفلحت بعض الشيء في تحقيق وتنفيذ عدة مهمات كلفت فيها للخدمة مخططاتها المرسوم .

وبجبة ذكية تمكن نجل جارف من أن يترك له قاعدة في كل دفعة في الكلية العسكرية ، حتى لا يخرج الضباط من الكلية إلا وتكون معظم الدفعة قد انضمت للحركة ، وعندما يتخرجون يجدون أمامهم ضباطاً أحراراً فيبدأ التلاؤم والتلاحم بين الضباط المستجد والضباط القديم ، وبهذا يكون قد ضمن الجيش بشكل مبدئي .

ولن تغفل عن عينة المواقع الأكثر أهمية وتأثيراً كالجوامع والمدارس والدوائر الرسمية والحكومية ذات الأهمية حيث أخذ يهدد وبجبة ودهاء للتوغل في أعماقها وتمكن من ذلك بحسن اختياره للعناصر العاملة في صفوفه على تحقيق طموحه وطموح ليبيا العملاقة .

حيث كان يبدأ اجتماعاته التي كانت تعقد في العراء النظيف وتحت الأشجار وفي ذرى الصخور أو في خيام البادية بكلمة « العفة » ثم العفة ثم العفة ثم الالتزام .

ومن اجتماعات طلمية إلى سيدي خليفة إلى فندق النهضة⁽¹⁾ وعلى الرصيف مقابل معهد لاسالي والحركة ما زالت نشطة في خطواتها مواكبة للأحداث .. ومهمة بالصغيرة والكبيرة على المستويين المحلي والعربي وحتى على المستوى العالمي .

تلك الاجتماعات التي كانت تتوالى في الظروف العصيبة ازدادت حرارتها واشتد حرصها على المراقبة لتحقيق النصر وعبر المخاوف والمخاطر .. حتى وصل بها الأمر لأن ترمي على عاتق عاقدتها أعباءً أثقلت كاهلهم فوصل الحد لأن يبيع أحدهم ما في بيته من أثاث أو أن يبيع حلي زوجته أو أخته لدعم الحركة مادياً .. ووصل الأمر لأن يتبرع غالبية أعضاء الحركة برواتبهم في سبيل دعمها وتلبية حاجياتها والمشكلة كانت تكمن بفقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية .. وخصص في هذا الصدد أعضاء اللجنة المركزية بالذات وتدرجت من بعد ذلك الحوادث الجسام في عمر الأحرار المتوجهين إلى الانتصار بقيادة الفكر المدبر المثابر على مواظبة النضال من أجل الخلاص .. والطريق ما زالت أمامه سالكة رغم أنها قد طالت وتشعبت وتعقدت وكثرت فيها

= التي أسست في القرن السادس . قام كمرسى عدين (بارش) المرج حالياً .

وطلمية مدينة هادئة ومركز جميل بين البحر والجبل والغابات وبها متحف للآثار من آثارها المدافن الطلمية والصهرج العظيم والمسرح الروماني وبربطها بمدينة المرج طريق معبد .. وتأتي طلمية في الدرجة الثانية من حيث الأهمية التاريخية بعد قورنيا أما عمليات الكشف عن أطلالها فما زالت مستمرة لأن من قبل مصلحة الآثار .

(1) « فندق النهضة » فندق في العاصمة الثقافية بنغازي شهد ذات يوم اجتماعاً من أبرز تلك الاجتماعات وأقسامها حيث اضطرب أعضاء الحركة لعقد لقاء لهم فيه فضاظروا عليه في أوقات متأخرة ومتفاوتة من الليل حيث جاءهم في الصباح معمر ووجدتهم نائمين في أوضاع مختلفة وفوق الكراسي لعدم وجود أماكن ولأن الوقت كان متأخراً وفي ذلك الصباح تم الاجتماع وتقرر فيه أن يقدم كل عضو من أعضاء اللجنة المركزية للضباط الوجدوين الأحرار تقريراً في كل شهر عن الضباط الغير منضمين للحركة وخاصة من ذوي الرتب الكبيرة لكي لا يظلم أحد عند الحكم عليه .. وأثر ذلك الاجتماع الهام توالى التقارير السرية عن قادة الوحدات والألوية ومعاونهم وأخذت الصورة تتضح أمام ناظر المجتمعين في الاجتماع آنف الذكر .

العراقيل والحواجز والمطبات الصعبة ، لكن مهارته وحسن تدبيره وحرصه الشديد على انجاح مخططة الرامي لاسقاط ودحر كيان الظلم .. دفع بعجلة الرفض على أن تتقدم وتتقدم لتلتهم الخطوات بسرعة وتبتلع العراقيل والظروف الصعبة ، واستطاع فعلاً أن يلتهم المسافة الواقعة بينه وبين كيان البطش وقاعه المعتم .. بمجدارة لما اشتد الألم وتعاضم فتفاقم في صفوف الجماهير المغلوبة البائسة .

ولما جاء الزمان بذلك اليوم الذي طالما انتظرته عائشة طويلاً .. طويلاً وذقت ما ذاقت من أجله المرارة والألم والعلمق واعتبرته أول انتصار لنجلها البطل .
فها هو نجلها قد أطل كشمس هذا الصباح لجارف ، لقد جاء المدير لمسقط رأسه ضابطاً ففرح الأهل به وكذلك النجع الذي طالما أسكره الحنين إليه .
« نعم .. نعم لقد أصبح ولدي ضابطاً في الجيش » . كذلك قال المجاهد يتفاخر بولده أمام ذويه كما يتفاخر المحارب بانتصارات المعركة بعد النصر المبين .
ومعمر الصرخة ، معمر المدير ، معمر المخطط لدحر القهر ما زال ملتصقاً بصحرائه كالتصاق الصحراء برمالها ودفنها وأهلها .

ها هو ذا ينكب على مساعدة أهله وخاصة مساعدة المجاهد واهتماماته بالمواشي ولم يمض وقت طويل حتى غادر الضابط أهله ومرايع طفولته عائداً للعظيمة بنغازي قاصداً ثكنات قار يونس حيث التحق هناك بالقيادة العامة بقسم الاتصالات « الإشارة » .
ومرّ من عمر الزمان عام كامل حافل بالنضالات ومخاطرها والخطوة للانتصار ..
تتقدم .. تزحف زحفاً لتكسح وتدحر كل ما كان يقف في وجهها حائلاً .
وذات يوم وقبل أن ينغمس العصر في صدر النهار هرع أحد الرفاق يبحث عن المدير المعلم في الأجواء الداخلية للثكنات ليخبره عما بعث في أعماقه الفرحة .. ولما صادفه على مشارف أحد المهاجع مبتسماً قال له بصوت مرتفع فيه ما فيه من الفرحه .
ستذهب إلى مدينة الأضواء .. ستذهب إلى لندن .
فما كان من المدير إلا أن صمت قليلاً ثم أخذ يخاطبه قائلاً بصوت خافت :
أعلم ذلك .. أعلم ذلك وأشكرك على مشاعرك النبيلة تجاهي .
فأردف الأول قائلاً :

ولكن .. ولكن ما بالي أراك غير سعيد بذلك .
المدير .. « لا .. لا .. فأننا لست حزيناً ولا فرحاً » .
استطرد الأول :
ولكن لماذا فأننا أعتقد أن في إيفادك أنت وبعض الرفاق إلى لندن فائدة كبيرة لمسيرتنا .
المدير : سنقرر ذلك فيما بعد .
ثم افترقا كلٌّ في اتجاهه .
وبعد عدة أيام قرر الرفاق الاستعداد للرحيل إلى لندن ، وبعد قرارهم هذا ذهب كل على حده لزيارة أهله في أجازة ليومين .

فغادر نجل جارف أهله بعد أن قضى معهم ليلتين ثم أقلته الطائرة مع رفاقه إلى بريطانيا .
ولما دلف إلى حضن الطائرة وجلس على مقربة من إحدى نوافذها بدأ يتباه بل داهمه شعور
غريب محزن لم يداهمه من قبل وكان ذلك الشعور كان ينطق ويقول :
الطغيان يحاول أن يسلمني عن العملاقة .. « ولكن .. لا .. لا .. لن تطول غيبتني »
هكذا قال في سريره قبل أن تقلع الطائرة .

ولما أقلعت وبدأت تغادر غاص بناظره عبر النافذة في عيون السمراء ليبيا .. ليبيا الأرض
والناس .. والمظالم ، ليبيا أدريس والفسق والرديلة ، ليبيا الحب ، ليبيا عائشة والمجاهد والرفاق .
وعندما تلاطمت الطائرة بالغيم خطفه الدهول طويلاً .. طويلاً حيث أخذ يسترجع شريط
الذكريات ويتذكر .

فتذكر أولى أيامه الحافيات على مقربة من بئر الكراعية ، فتذكر جارف وأهلها .. كم توقف
عند عائشة وعند أبو منيار .. وتذكر أخواته الزادمة وسالمة وعتيقة .
ومضى شريط الذكريات يستعرض بشوق ونشوة واجتهاد أحداث وحكايات تلك السنين
الزاخرة الحافلة بالويلات والحب معاً ..

فها هو ذا يتذكر أيام الدرس في الجفرة ، ولما خطرت بباله سرت تذكر ويلات تلك
الطريق التي طالما أدمت قدميه .. ثم داهمته ذكريات سبها الصرخة فتذكر الرفاق فيها .. وأيام
المظاهرات .. ويوم كان الطرد والحقد والقهر .
والطائرة ما زالت تبهر في الأجواء الرحبة .

ووحدها ذاكرته كانت تبهر في عمق تلك السنين .. فما زال أسيراً لها يخطفه الدهول وبشده بما
ملك إلى ذلك الماضي الذي ما رحمه أبداً من الصرخة للدفع وللقرار ثم لأعتاب الانتصار .

الفصل الأخير

نشوة في أوج دربها يرافقها بعض شجن ودفع .. وفجأة تتحول كما يتحول الوطن
غضباً لعاصفة الصبراء .. يحولها عمر الوقت الخائف لسؤال لا جواب له يرافقه بعضاً من توتر
وهذيان لنفس معذبة تود أن تجرف وتغرف من البيان ما استطاعت إلى ذلك جرفاً بعد أن غابت
عنها الحقيقة وكذلك تبيانها وبيانها منذ أول السنين .

تلك النفس ما زالت غاضبة مضطربة تود بلهفة لا حدود لها أن تختصر الزمن
والمسافات المستحيلة كما اختصرتها ذات يوم جارف المنسية .. لتقف في وجه الطغيان بما
ملكته ..

وها هي ذي تقف الليلة مشتاقة .. مشتاقة مثل شوق اليقاعة للطفولة والصبا ..
تقف لتبتلع بفاهها الصغير كلمة تشدها .. تأخذها عنوة من فم المستحيل الذي بات عندها شوقاً
وكشفاً وتبياناً .. وسيدلها على تلك الأيادي القذرة الظالمة التي سحقت ذات مرة بيته المتعثر
المسكين وقتلت أمه وتوهت الشيخ وأخته زهرة .

وها هي ذي النفس تنتهد .. تنهيدة معذبة لتقول بصوت خافت لم تسمعه
الجدران بعد أن وقفت العين عن القراءة في آخر المراحل على أعتاب الانتصار .. من قصة طويلة
هي ذلك الماضي الذي سيبدأ غداً ..

« ياه .. ياه .. ياه ولكن ماذا عن بقية القصة قصة ذاك العصر الذي جاء ..
وماذا عن بقية المراحل في حياة نجل جارف الذي وقف حياته ليسقط الظلم ويدحر كيانه دحراً ..
وماذا عن رحلته إلى لندن ماذا عن تلك الرحلة في مدينة الأضواء الصاخبة مدينة الوحش
الإنسان !! » ..

ثم سكث وعاد فأردف يمتتم قائلاً :

« ولكن .. ولكن كيف استطاع أن يبدل العذابات ويصنع ما في الخواطر
أحلاماً !! » .

ثم ران عليه صمت طويل وبعد الصمت نهض من قعدته على الفراش وأخذ يخطو .. باتجاه النافذة

خطوات متعبة .. ولما اقترب منها ونظر عبرها داهمته ابتسامة الفجر ذلك المزدان بالألوان القزحية الشفافة التي بدت تطل على الأرجاء وبيروت في سباتها ما زالت غافلة عن وجوه الأشباح .. تلك الوجوه القذرة العميلة التي ما زالت تخيفها بأقنعتها ووقاحتها وقبحها .. وقبح مسلكها المتسلط البغيض الشنيع .

ثم استرجع الخطوة بخطوة .. وعاد لفراشه منهمكاً متشوقاً لشيء ما .. بعد القراءة والابحار طويلاً في بحر الفكر الأخضر ثم لجأ للنوم فنام نوماً عميقاً .

ولما جاء الصباح ندياً .. استيقظت أوديت من نومها كما يستيقظ الندى قبل الشروق .. وما أن أشرقت الشمس حتى كانت قد أعدت مائدة الافطار .. وانتظرت صعب .. لأن يستيقظ لكن صعباً كان مستغرقاً في نوم عميق بعد ليلة طويلة ساهرة كان قد قضها في رحلة سنوات ما قبل الولادة .

وانتظرت .. ولما طال انتظارها هرعت إلى غرفته فأيقظته فاستيقظ تعباً وبدا ما حول عينيه منتفخاً .. وعلى المائدة خاطبته قائلة :

- يبدو أنك قد أطلت السهرة ليلة أمس .
- كانت رحلة حافلة زاخرة .
- أي رحلة ؟
- رحلة سنوات ما قبل الولادة في حياة الرجل العصر والعصر الرجل ابن جارف المنسية .
- اتقصد أنك قد قرأت في رحاب الفكر الأخضر .
- لا .. لا .. بل قرأت في رحاب القذافي .. أعني حياته ونشأته وصرخته من ولادته وإلى أعتاب الانتصار .
- أعجبتك القصة ؟
- انها مذهلة حياة هذا الرجل .. فتصوري أن ينتفض الحرمان في وجه الطغيان وهو لا يملك عابرة القارات .
- ولكن كيف استطاع أن يفجر عصر الجماهير .
- إلى هذا الوقت لا أدري ؟ ولكن الحرمان والبؤس والقهر بألوانه مع الاجتهاد والعمل على تحقيق الطموح .. قادرين على أن يفجرا الزمن لو اجتمعا في وقت واحد .

- « ياه .. ياه .. ألهذه الدرجة أنت متأثر بما قرأت » .
- لم أكن أدري يا أمي أن الانتصار قد دخل في جعبة الفقراء ..
- « ألا .. تود أن تأكل .. هيا » تفضل وتناول طعامك فتناول طعامه بصحبة أمه .
- وبعد الافطار .. لملمت أوديت المائدة ثم تأهبت استعداداً للخروج .. فخرجت إلى مقر عملها .

في تلك الأثناء كان صعب قد احتل مكانه وراء نافذة تطل على وجه البحر .. وبدأ يتمعن بالبحر .. وبالموج .. وبوجه النهار إلى أن استدعاه الشاطئ إلى فيه فهرع باتجاهه راكضاً وما أن وطئت أقدامه الرمال حتى اختار مكاناً فيه وجلس طويلاً .. جلسة كانت تتصل بذلك الماضي البعيد .. وتشتاق بلهفة إلى ذلك الآتي .. إلى المستقبل المجهول .. ولما غلبته نشوة الاطلاع على الحقيقة فرّ للمكتبات الواقعة هنا وهناك ليبحث عن الجزء التالي من بقية القصة .
وها هو ذا .. قد دخل إلى مكتبة وخرج منها لأخرى .. ولا جدوى فالجزء التالي من القصة غير موجود .

وبالصدفة وبعد أن سئم من السؤال عما يريده لفت نظره مجلد أخضر تصدر إحدى الواجهات لمكتبة الأيام الواقعة مقابل « الروشة » فهرع ودلف إليها وتمكن من شراء المجلد لما عرف أنه ميثاق اتحاد الدول العربية المطبوع في جماهيرية العرب الأولى .
ثم لفه تحت إبطه وأسرع إلى أوديت ليخبرها عن فائق سروره بالعثور على الميثاق .
ولما دخل إلى البيت لم يجدها ..

كان الليل قد بدأ يعلن رحلته ليجتاح الأجواء والأرجاء .. فهرع بعد أن وضع المجلد على المنضدة في غرفة الصالون ليقف وراء النافذة التي تطل على الشارع الخلفي ليرقب عودة أمه وهو في بالغ التوتر والقلق .

ومرت نصف ساعة وها هي قد أشرقت ابتسامته أخيراً لما حضرت السيارة الصغيرة التي تقل في حضنها أوديت .. فترك النافذة وخطا باتجاه أريكة صغيرة ليجلس عليها .
ولحظات مرت بدون قلق وها هي أوديت قد دلفت أخيراً للبيت ..
« لماذا تأخرتِ » كذلك قال يخاطبها بعصبية .
أوديت مبتسمة قالت :

- عذراً يا حبيبي إنها ظروف المشفى القاهرة التي تضطرنني في هذه الأيام العصبية للبقاء على رأس عملي وخاصة اليوم فقد كان عاصفاً بانفجار سيارة مفخخة في منطقة « البربر » أدى ذلك الانفجار إلى قتل العشرات من الاطفال أثناء انصرافهم من مدرستهم القريبة من مكان الحادث .

صعب : إلى متى ستبقى الحال هكذا في بيروت ؟

أوديت : .. لا تهتم .. لا تهتم فאלله وحده وليّ التدبير .

ثم استطردت فقالت :

- وأنت ماذا فعلت هل ذهبت للمكتبات ؟

- نعم .. ولكنني لم أعثر على ما أريد .. وللأسف .

- وماذا ستفعل الآن ؟

- لقد وفقت في شراء هذا المجلد .. وبعد أن مد يده اليمنى إلى المنضدة وتناول

من عليها الميثاق قال : انه ميثاق اتحاد الدول العربية المطبوع في جماهيرية العرب الأولى .

أوديت : ولكنه مجلد .

صعب : أدري أنه مجلد .

أوديت : ستحتاج إلى وقت طويل لتتمكن من قراءته .
صعب : ربما عدة أيام لا أكثر .
أوديت : افعل ما تشاء .. وكل همي أن تفوز بما تريد .
صعب : سأفوز .. سأفوز بإذن الله .
وبعد أن ران عليهما صمت .. استأذنت أوديت وانصرفت لتبديل ثيابها وتعد مائدة
العشاء .

وبعد العشاء ..
دخل صعب إلى غرفته وعلى الفور تمدد على فراشه ثم جلس بعد عدة لحظات وتناول الميثاق ..
وبدأ القراءة بصوت عالٍ لم يزعج أوديت المستلقية المرتخية على فراشها حيث قال :
» .. انطلاقاً من الايمان

ميثاق الاتحاد العربي⁽¹⁾

بسم الله الرحمن الرحيم

انطلاقاً من الايمان بالانتماء القومي للأمة العربية وتراثنا الحضاري المشترك .
وإدراكاً للواقع الاقليمي المتردي في الوطن العربي وللعنوان الصهيوني الامبريالي الذي
يستهدف تدمير الوجود العربي .
ووعياً بالمصير العربي الواحد ووصولاً إلى عمل مشترك يضمن الحفاظ على مستقبل هذه
الأمة لمواجهة كافة الأخطار والتحديات .
وإيماناً بأن الوحدة العربية هي السبيل الوحيد ليس فقط من أجل البقاء بل للخروج من التخلف
الاقتصادي وتحقيق التقدم والتنمية وتأمين مستقبل لائق لهذه الأمة .
ووعياً لما أجابت عنه تجارب متعددة خاضتها الأمة العربية في تاريخها الحديث وما تقتضيه
الظروف من سعي دؤوب لبلوغ الهدف المتوخى عن طريق التدرج والبدء بالحد الأدنى .
وإدراكاً بأن أقوم سبيل إلى ذلك يتمثل في إقامة اتحاد بين الأقطار العربية يؤمن الحفاظ على
خصوصياتها الذاتية ويحقق جمع الامكانيات العربية الاستراتيجية لمعالجة قضاياها المصيرية .
واعتباراً لكون هذا الاتحاد يشكل منطلقاً تاريخياً في سبيل تحقيق وحدة الأمة العربية .
فقد اتفق الأطراف الموقعون على هذا على إقامة اتحاد يسمى « الاتحاد العربي » وفقاً للميثاق
المرفق وملحقاته .

(1) « ميثاق الاتحاد العربي » .

ميثاق الاتحاد العربي

البند الأول

ينشأ بمقتضى هذا الميثاق اتحاد عربي بين الأقطار العربية الموقعة عليه والقابلة لاحكامه ويسمى « الاتحاد العربي » .
ويكون للاتحاد الشخصية القانونية ، كما يتمتع بالاهلية اللازمة لاداء مهامه في الاقطار الأعضاء وفي المجال الدولي ، وتقوم أجهزة الاتحاد بتمثيله في حدود اختصاص كل منها .

أهداف الاتحاد

- نهج سياسة عربية مشتركة في كافة الميادين .
- حماية الوطن العربي والدفاع عن سلامة أراضيه .
- تحقيق تنمية اقتصادية عربية واجتماعية وإرساء الوحدة الاقتصادية العربية على أسس سلمية .
- إحياء الثقافة العربية الإسلامية .
- تطوير البحث العلمي .
- رفع مستوى معيشة المواطن العربي وتحسين ظروف عمله وإنتاجه وتوفير السبل له لمواكبة التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

البند الثاني

- يهدف الاتحاد إلى ما يلي :
- العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة .
 - توثيق عرى الأخوة بين اطرافه .
 - العمل لرفق الأمة العربية والدفاع عن حقوقها وحماية مصالحها .

البند الثالث

تهدف السياسة المشتركة المشار إليها في البند السابق إلى تحقيق الأغراض التالية :

- في المجال الدولي :

تعزيز علاقات الأطراف دولياً وتطوير وإبراز دورها على كافة المستويات وفي المنظمات والهيئات الدولية والاقليمية قصد الحفاظ على السلم والأمن الدوليين وإتماء العلاقات الودية بين الأمم وتحقيق التعاون الدولي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثنائية والإنسانية .

- في المجال العربي :

تعزيز أواصر الأخوة والمودة بين الأطراف وإقامة تعاون وثيق بينها وعلى الأخص فيما يلي :

في مجال الدفاع : صيانة استقلال الأطراف ورد أي اعتداء عليها أو على أي منها .
في المجال الاقتصادي : تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية - صناعية وزراعية وتجارية
وإنسانية بأحدث منشآت مشتركة واعداد برامج عامة ونوعية لتحقيق التلاحم بين
أطرافه .

في مجال التعليم والثقافة والعلوم والبحث العلمي :
تنمية التعليم وتوحيد المناهج وأساليب التدريس وصيانة الهوية القومية العربية واحداث
مؤسسات ثقافية مشتركة للحفاظ على تطويره واثمائه وتشجيع البحث العلمي .

أجهزة الاتحاد

البند الرابع

يكون للاتحاد العربي الأجهزة التالية :

أولاً : رئاسة عليا للاتحاد ، ويلحق بها :

1 - مجلس تنفيذي يلحق به :

(أ) لجنة تنفيذية .

(ب) مجالس اتحادية .

2 - أمانة دائمة .

ثانياً : مؤتمر قومي .

ثالثاً : محكمة اتحادية .

رابعاً : مصرف مركزي للاحرار .

خامساً : شرطة اتحادية .

الرئاسة العليا للاتحاد

الرئاسة

البند الخامس

تتكون الرئاسة العليا للاتحاد من ملوك ورؤساء الاقطار الاعضاء

ويكون لها دون غيرها سلطة اصدار القرارات المتعلقة بالسياسة العليا للاتحاد وتصدر قراراتها
بالأغلبية .

وللرئاسة أن تصدر توصيات في الشؤون التي تراها .

وتتعدد الرئاسة مرة كل ستة أشهر تختار من بين أعضائها رئيساً للدورة يتولى إدارة شئونها

كما يتولى إدارة شئون الاتحاد لذات الفترة .

قرارات الرئاسة وتوصياتها

البند السادس

تكون قرارات الرئاسة ملزمة للأقطار الاعضاء وتمتع بأسبقية في التنفيذ على غيرها من القرارات الصادرة من هيئات الاقطار الأعضاء .
ويلتزم الأعضاء بعدم اصدار أو تنفيذ ما يناقض قرارات الرئاسة أو يتعارض مع أحكامها أو ينقص من آثارها .

المجلس التنفيذي

البند السابع

يتكون المجلس التنفيذي من أمناء اللجان الشعبية العامة ورؤساء وزارات أو حكومات الأقطار الأعضاء وتكون رئاسته بالتناوب بين أعضائه ويعقد المجلس التنفيذي اجتماعاً دورياً كل ستة أشهر .

البند الثامن

يختص المجلس التنفيذي بما يلي :

- اقتراح السياسة العامة للاتحاد والخطط اللازمة لمجوه وتقديمه .
- اعداد مشروع جدول أعمال رئاسة الاتحاد .
- متابعة تنفيذ القوانين الاتحادية وقرارات الرئاسة والسياسة العامة والخطط .
- متابعة أعمال اللجنة التنفيذية .

اللجنة التنفيذية

البند التاسع

تتكون اللجنة التنفيذية من رؤساء المجالس الاتحادية ويرأس اجتماعاتها أحد أعضاء المجلس التنفيذية بالتناوب .

وتعقد اجتماعاتها مرة كل ثلاثة أشهر على الأقل .

البند العاشر

تختص اللجنة التنفيذية بما يلي :

- اعداد مشاريع القوانين .
- اعداد مشاريع الميزانيات .
- مراجعة خطط وأعمال المجالس التنفيذية ومتابعة تنفيذها .
- الإشراف على تنفيذ الميزانية الاتحادية وميزانية التنمية .
- اصدار اللوائح والقرارات اللازمة لتنفيذ القوانين .

البند الحادي عشر

لا يجوز الجمع بين رئاسة المجلس التنفيذي واللجنة التنفيذية ، كما لا يجوز أن يكون رئيس المجلس التنفيذي أو اللجنة التنفيذية تابعاً لجنسية الدولة التي منها رئيس دورة الرئاسة .

المجالس الاتحادية

البند الثاني عشر

يكون للاتحاد العربي المجالس التالية :

- مجلس الشؤون السياسية .
- مجلس شؤون الدفاع .
- مجلس الشؤون الاقتصادية والغذائية .
- مجلس التعليم والشؤون الثقافية .
- مجلس شؤون البحث العلمي .
- مجلس التشريعات والشؤون القضائية .
- مجلس الشؤون الداخلية .
- مجلس الصحة والشؤون الاجتماعية .
- مجلس شؤون العمل .
- مجلس شؤون الطاقة والمياه .
- مجلس شؤون المواصلات والاتصالات .

مجلس الشؤون السياسية

البند الثالث عشر

يتكون مجلس الشؤون السياسية من أمناء وزراء الشؤون الخارجية بالأقطار الأعضاء . ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم . كما يجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع عشر

يختص مجلس الشؤون السياسية بما يلي :

- العمل على تحقيق أهداف الاتحاد في اقامة وحدة عربية شاملة .
- تنفيذ قرارات الرئاسة في شؤون العلاقات الخارجية .
- العمل على توحيد السياسة الخارجية للأقطار الأعضاء .
- دراسة القضايا السياسية للاتحاد وتحديد موقف موحد منها .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة أحوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شؤون الدفاع

البند الخامس عشر

يتكون مجلس شؤون الدفاع من وزراء الدفاع بالأقطار الأعضاء ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم كما يجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند السادس عشر

- يختص مجلس شئون الدفاع بما يلي :
- حماية الأمن القومي ووضع خطط لتأمين سلامة الاتحاد وأعضائه .
 - دراسة قضايا الاتحاد في شئون الدفاع .
 - العمل على توحيد شئون التجييش والتدريب والتسليح بين أقطار الاتحاد .
 - إقامة صناعات حربية مشتركة ومتكاملة .
 - انشاء قيادة أركان عربية واحدة .
 - أية مسائل أخرى ترى الرئاسة أحوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية

البند السابع عشر

- يتكون مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء التخطيط والاقتصاد والصناعة والزراعة للأقطار الأعضاء .
- ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثامن عشر

- يختص مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية بما يلي :
- العمل على توحيد البنية الاقتصادية الأساسية للأقطار الأعضاء .
 - تسهيل انتقال رؤوس الأموال وممارسة النشاط الاقتصادي .
 - توحيد وسائل استغلال مصادر الثروة الطبيعية في الأقطار الأعضاء وبما في ذلك :
 - (أ) توحيد شروط استغلال مصادر الثروة الطبيعية وتوحيد سياسة انتاجها وتسعيها .
 - (ب) انشاء مؤسسات قومية لاستغلال مصادر الثروة الطبيعية .
 - (ج) توحيد سياسة تسويق المنتجات القائمة على مصادر الثروة الطبيعية ومنع المنافسة بين الأقطار الأعضاء .
 - وضع سياسة قومية مشتركة للتعريف الجمركية وإلغاء تلك التعريف بين الأقطار الأعضاء .
 - توزيع الصناعات بين الأقطار الأعضاء بما يحقق التكامل الاقتصادي بينها .

مجلس التعليم والشئون الثقافية

البند التاسع عشر

- يتكون مجلس التعليم والشئون الثقافية من أمناء اللجان الشعبية العامة ووزراء التعليم والثقافة والاعلام للأقطار الاعضاء .
- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند العشرون

- يختص مجلس التعليم والشئون الثقافية بما يلي :
- تنمية التعليم وتوحيد المناهج وأساليب التدريس وتعريب التعليم العالي .
 - احداث مؤسسات ثقافية مشتركة للحفاظ على التراث الثقافي العربي الإسلامي والعمل على تطويره وانماؤه .
 - تبادل الخبرات والمعلومات والبحوث العلمية والتقنية وتبادل الأساتذة والمدرسين والخبراء .
 - توحيد المصطلحات وتصنيف المعلومات .
 - وضع سياسة اعلامية موحدة .
 - أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون البحث العلمي

البند الحادي والعشرون

- يتكون مجلس شئون البحث العلمي من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء البحث العلمي للأقطار الأعضاء .
- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثاني والعشرون :

- يختص مجلس شئون البحث العلمي بما يلي :
- تنسيق سياسة البحث العلمي في الأقطار الأعضاء ووضع خطة موحدة لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للوطن العربي .
 - اعداد البحوث والدراسات التي تستلزمها التنمية العربية بالتعاون والتنسيق مع مؤسسات ومراكز البحث العلمي الاتحادية والقطرية ووضع الخطط التنفيذية لتلك البحوث والدراسات والقيام بها .
 - تنمية ودعم وتشجيع مؤسسات ومراكز البحث العلمي ووضع الخطط لتنظيم وتوثيق التعاون فيما بينها وبين غيرها من المؤسسات العلمية .
 - تشجيع وتوثيق وتنظيم البحث العلمي في الوطن العربي وتبادل البيانات والمعلومات وتوثيقها .
 - تعبئة جهود العلماء والباحثين العرب في سبيل تحقيق النهضة العلمية والتقنية المنشودة ، وتهيئة كافة السبل الضرورية لتأدية رسالتهم .
 - انشاء هيئة قومية للبحث العلمي .
 - الاهتمام بوسائل التقنية وتشجيع الاختراعات والعمل على حمايتها وتسجيلها في الأقطار الأعضاء .
 - أية مسائل ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس التشريعات والشئون القضائية

البند الثالث والعشرون

يتكون مجلس التشريعات والشئون القضائية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء العدل للأقطار الأعضاء .

- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع والعشرون

يختص مجلس التشريعات والشئون القضائية بما يلي :

- مراجعة واعداد مشاريع القوانين الاتحادية وصياغة اللوائح والقرارات الاتحادية .
- وضع سياسة موحدة تهدف إلى توحيد التشريعات والنظم القضائية في الأقطار الأعضاء .
- احداث مؤسسات قضائية مشتركة بين الأقطار الأعضاء .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الشئون الداخلية

البند الخامس والعشرون

يتكون مجلس الشئون الداخلية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء الداخلية للأقطار الأعضاء .

- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند السادس والعشرون

يختص مجلس الشئون الداخلية بما يلي :

- وضع سياسة أمنية عربية موحدة .
- توحيد الاجراءات والنظم الخاصة بالجنسية ووضع خطة لالغاء الجنسيات القطرية واستبدالها بالجنسية العربية الواحدة .
- وضع النظم والاجراءات الخاصة بتسهيل اجراءات الدخول والخروج بين الأقطار الأعضاء .
- وضع النظم الخاصة بتوحيد البطاقات وجوازات السفر ووثائق التنقل .
- توحيد نظم الشرطة في الأقطار الأعضاء والاشراف على الشرطة الاتحادية .
- الاشراف على تسليم المجرمين بين الأقطار الأعضاء .
- دراسة التدابير والصعوبات ووضع الانظمة الملزمة للمؤسسات الاصلاحية والعقابية ومعاملة المذنبين والرعاية اللاحقة لهم .
- اعداد الدراسات والبحوث العلمية المتعلقة باسباب وعوامل الانحراف والجريمة وبواعثها

وخاصة ما يتعلق منها بالاحداث ومعاملتهم واصلاحهم .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الصحة والشئون الاجتماعية

البند السابع والعشرون

يتكون مجلس الصحة والشئون الاجتماعية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء الصحة والشئون الاجتماعية للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثامن والعشرون

يختص مجلس الصحة والشئون الاجتماعية بما يلي :

- وضع سياسة موحدة في مجال الصحة والشئون الاجتماعية تهدف إلى رفع المستوى الصحي (البدني والنفسي) للفرد العربي .
- تنسيق وتوحيد الخطط والبرامج المتعلقة بصحة المجتمع والوقاية من الأمراض ومكافحتها ومنع تسرب الأمراض الوبائية .
- وضع خطة لتنفيذ سياسة دوائية عربية موحدة وتأسيس شركات ومؤسسات للشئون الدوائية والمستلزمات الطبية .
- النهوض بالخدمات الصحية والمهنية ودور الرعاية الاجتماعية وإنشاء ودعم المؤسسات والمراكز الهادفة إلى ذلك .
- وضع سياسة موحدة لنظام التأمينات والضمان الاجتماعي .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون العمل

البند التاسع والعشرون

يتكون مجلس شئون العمل من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء العمل للأقطار الأعضاء .
ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثلاثون

يختص مجلس شئون العمل بالاتحاد بما يلي :

- توحيد التشريعات العمالية وظروف وشروط العمل ووضع خطة مشتركة تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع مستوى القوى العاملة .
- اعداد الدراسات والبحوث في مجال تخطيط القوى العاملة وتشغيلها وكذلك في مجال علاقات العمل والإدارة بغية اقامة هذه العلاقات على أسس مستقرة عادلة .

- اقتراح السبل والوسائل لتوزيع استخدام العمالة العربية بما يكفل الاستغناء عن العمالة الأجنبية واقتراح السبل والوسائل الخاصة بانتقال العمالة بين الاقطار الأعضاء بسهولة ويسر .

- خلق وسائل تشجيع توطين العمالة العربية بين الاقطار الأعضاء .
- اقتراح توزيع الخبرات العربية في مجال العمل بما يحقق أغراض التنمية العربية .
- إنشاء مراكز للتدريب والتأهيل المهني وتوزيعها بين الاقطار الأعضاء .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون الطاقة والمياه

البند الحادي والثلاثون

يتكون مجلس شئون الطاقة والمياه من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء النفط والكهرباء والطاقة والزراعة في الاقطار الأعضاء .

- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثاني والثلاثون

يختص مجلس شئون الطاقة والمياه بما يلي :

- وضع خطة قومية لاستكشاف واستغلال مصادر الطاقة المختلفة .
- تنظم استعمال مصادر الطاقة العربية وربط الأقصار الأعضاء بشبكات قومية في مجال النفط الخام والغاز الطبيعي والكهرباء والطاقة الذرية .
- وضع خطط لاستكشاف واستغلال الطاقة البديلة والمتجددة .
- انشاء وكالة عربية للطاقة النووية .
- دراسة مصادر المياه المتاحة في الاقطار الأعضاء من سطحية وجوفية .
- العمل على رفع كفاءة استغلال المياه بتنفيذ شبكات قومية للرّي وربط الشبكات القائمة .
- توزيع المياه بين الاقطار الأعضاء بما يحقق الاستفادة المثلى من الأراضي الزراعية الخصبة في الوطن العربي .

مجلس شئون المواصلات والاتصالات

البند الثالث والثلاثون

يتكون مجلس شئون المواصلات والاتصالات أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء المواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية في الاقطار الأعضاء .

- ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .
- ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع والثلاثون

يختص مجلس شئون المواصلات والاتصالات بما يلي :

- توحيد وربط وسائل نقل الاشخاص والبضائع على أساس قومي وانشاء مؤسسات قومية للنقل البري والجوي والبحري .
- توحيد وربط الاتصالات السلكية واللاسلكية بجميع أنواعها وانشاء شبكة اتصالات عربية موحدة .
- العمل على تحقيق البرامج من خلال انشاء هيئات قومية تنفيذية متخصصة تتولى شئون الأنشطة التابعة للقطاع .
- توحيد المواصلات الفنية وذلك لكافة الأنشطة التابعة لقطاع النقل والمواصلات والاتصالات على المستوى القومي .
- العمل على وضع السياسات الموحدة لتعريفات النقل والاتصالات على المستوى القومي .
- توحيد المصطلحات العلمية في مجال الارصاد الجوية وانشاء مركز قومي موحد للبحوث العلمية وتطبيقاتها العلمية في هذا المجال .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احوالها إليه لدراستها أو تنفيذها .

البند الخامس والثلاثون

- يعقد كل مجلس دورة واحدة كل ثلاثة أشهر .
- ويرأس اجتماعات المجلس بالتناوب رئيس من بين أعضائه ويحدد رئيس دورة الرئاسة مكان الاجتماع وموعده . ويجوز بقرار من الرئاسة دعوة المجالس مجتمعة أو دعوة بعض منها لبحث المسائل المشتركة .

كما يكون لكل مجلس تشكيل فرق عمل من بين أعضائه لدراسة مسألة أو مسائل معينة .

البند السادس والثلاثون

- يكون رئيس دورة كل مجلس أميناً للاتحاد لشئون ذلك المجلس ويعمل الأمين الاتحادي تحت إشراف ووفقاً لتوجيهات رئيس اللجنة التنفيذية .

الأمانة الدائمة

البند السابع والثلاثون

- يكون للرئاسة أمانة دائمة تناط بأمين عام وأمناء مساعدين وعدد كاف من الموظفين وينى ملحق خاص اختصاص الامانة الدائمة والقواعد المنظمة لسير أعمالها .

المؤتمر القومي

البند الثامن والثلاثون

- المؤتمر القومي هو السلطة التشريعية العليا للاتحاد ويتألف من مندوبين عن المجالس التشريعية

للأقطار الأعضاء بعدد متساو لكل منها .
ويختص المؤتمر باصدار القوانين الاتحادية كما يختص بدراسة السياسة التشريعية للأقطار الأعضاء
قصد توحيدها.

ويعد المؤتمر لائحته الداخلية ويصدر بها قرار الرئاسة .

البند التاسع والثلاثون

للمرئاسة والمجلس التنفيذي واللجنة التنفيذية وأعضاء المؤتمر القومي تقديم مشاريع القوانين
الاتحادية .

ويجوز للرئاسة أن تطلب من المؤتمر القومي بحث أية مسألة تراها وتقديم توصيات بشأنها .

البند الأربعون

ويجوز للمؤتمر أن يطلب احاطة أو معلومات أو تقارير من المجالس الاتحادية أو الأقطار الأعضاء
في كل ما يتعلق بشئون الاتحاد ويكون له حق مناقشتها واصدار توصيات بشأنها .

البند الحادي والأربعون

يعقد المؤتمر دورة كل سنة يختار من بين أعضائه أمانة له من أمين وأمناء مساعدين وتحدد اللائحة
الداخلية للمؤتمر كيفية سير أعماله وإدارة جلساته .

البند الثاني والأربعون

تعرض القوانين الاتحادية المقررة من المؤتمر على الرئاسة في أول اجتماع لاصدارها .

البند الثالث والأربعون

ويكون للرئاسة الحق في إعادة القوانين إلى المؤتمر بملاحظات حولها فإذا أصر المؤتمر على ما قرره
تعين على الرئاسة اصدارها .

البند الرابع والأربعون

مع عدم الاخلال بالمنصوص عليه في البند ٤٢ تعرض نتائج أعمال المؤتمر القومي واللجنة التنفيذية
على الرئاسة لاتخاذ ما تراه بشأنها من قرارات .

الشرطة الاتحادية

البند الخامس والأربعون

يحدد قرار من الرئاسة تكوين الشرطة الاتحادية وتشكيلاتها وعدد وحداتها ومهامها .
وتلتزم الاقطار الأعضاء بتقديم التسهيلات والمهمات والقواعد وغيرها من المتطلبات للشرطة
الاتحادية وفقاً للقرارات التي تصدرها الرئاسة بناء على عرض من مجلس الشئون الداخلية .

المحكمة الاتحادية العربية

البند السادس والأربعون

تشكل المحكمة الاتحادية من رئيس وأعضاء يصدر بتعيينهم قرار من الرئاسة ويصدر قرار من
الرئاسة بالنظام الأساسي للمحكمة الاتحادية وتصدر الجمعية العمومية للمحكمة لائحته الداخلية والاجرائية .

البند السابع والأربعون

تختص المحكمة بالفصل فيما ينشأ بين الاقطار الأعضاء من منازعات ، أو بين الاتحاد وأي قطر أو أكثر من أعضائه .

ولها على وجه الخصوص النظر في المسائل التالية :

(أ) المنازعات المتعلقة بتفسير أو تنفيذ هذا الميثاق والملاحق والاتفاقات والبروتوكولات الملحقه به .
(ب) المنازعات التي تنشأ بين الأقطار الأعضاء أو بين الاتحاد وأي قطر وأكثر من أعضائه تنفيذاً لقرارات الرئاسة .

وفجأة .. توقف عن القراءة .. ثم أغلق المجلد ووضعه على منضدة قريية وقفت تلازم

السريـر .

ونفسه المشتاقة ليوم النصر العظيم .. لذلك المستحيل في زمن اللا استحالة تلذذت بيقظتها وهي تتصور تصورات كان منبعها « الميثاق » ذلك الخلاص. وتهدت تنهيدات قصيرة وطويلة .. كان عمقها الميثاق .. ففرحت للتنهيدة ثم بكّت بدون دموع في حرارة ما عرفها زمن البكاء العربي بعد .

ولما بدأت الأجفان تتراقص .. خضعت فاستسلمت العيون للنوم ورضوانه فتمدّد الجسد في الفراش للدفاء وهو ملتهب .. وأغمضت العينان ولما هدأت آخر الأنفاس جاء الاسترخاء ثم الراحة والنفس غير مرتاحة ما زالت حيرانة بين حزنها وغبظتها .. والدماغ نشط يصارع صور الخيال الخصب وأحداثاً مخزونة في الذاكرة الفتية المسمومة .
والعينان مغمضتان يشدهما حبل النوم بالقوة لدياجيره المنيرة المظلمة .

فجأة .. غادرت الروح وظلت الأنفاس دافئة وظلت دقات القلب التي ما سكنت فطرق الحلم أبواب النفس .. جاء ليستدعيها ويتحفها بأمانها وآمالها بدون جهد أو عناء لتدخل عالمه فيدخل عالمها وتحيا الأسطورة ، تحيا الأسطورة عن قرب ، تلك التي عجز عن تصويرها وتحقيقها واقعا العربي العاهر المتعب الظالم .

وفي الحلم .. تراءى له « انه وبينما كان يجلس على أريكة مريحة وقفت في مقابلة جهاز (التلفاز) الذي ما زال يعرض لليوم الثالث على التوالي وبدون انقطاع ترتيل الآيات البيّنات من كتاب الله العزيز .. » .

« ولكن ما الذي قد حدث في العالم العربي حتى يعرض التلفاز وعلى غير عادته ترتيل القرآن الكريم بهذا التواصل الذي لا مثيل له .. من قبل .. لماذا كل هذه الأيام .. ولماذا لم يستأنف برأجه بعد ؟ » كذلك قال صعب في سريره مدهوشاً كل الدهش .

فجأة توقف الصوت .. صوت الإذاعة المرئية .. وما أن مرت عدة ثوانٍ حتى عاد الصوت يقول : « هنا رأس جدير .. تلفزيون دولة يعرب الكبرى » .

« هنا رأس جدير .. تلفزيون دولة يعرب الكبرى » أعزائي المشاهدون من المحيط إلى الخليج أسعد الله أوقاتكم .

من رأس جدير عاصمة الدولة الكبرى نتابع معكم بثنا في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي سننتقل فيه معكم إلى مدينة « مكة المكرمة » لنقل حفل العقاب .. عقاب الذين كانوا بحق سياتاً ظالمة تحكمتم فينا على مر السنين الطويلة .. تلك السيات الديكتاتورية التي طالما جلدتنا حتى الثمالة .. فطفح الكيل .. طفح الكيل .

ولما جاء يومنا هذا يوم انتصار الجماهير بقيام وحدتهم الكبرى وباطاحة كل الأنظمة العاهرة .. يوم العقاب والحساب الذي سنتابع أحداثه على الهواء مباشرة .. فتعالوا معنا إلى مدينة مكة المكرمة لنحيا اللحظات الحاسمة تلك التي سنطوي فيها الصفحة السوداء في حياة الأمة .

تعالوا معنا ..

تعالوا معنا ..

وعينا صعب مشدودتان باتجاه الشاشة .. وكذلك كل العيون في بلاد العرب في مشرقها وفي مغربها .. كلها تنتظر ما سيحدث بعد قليل في مكة المكرمة .. وعلى الشاشة ها هي قد ظهرت المدينة المقدسة العظيمة مكة المكرمة .. ثم زحف البث باتجاه ساحة العقاب .

وفي ساحة العقاب .. ها هي قد ظهرت البراميل المصطفة الواحد تلو الآخر .. تلك البراميل المملوءة بالأسيد المكثف .. التي وقفت تنتظر ضيوفها على مرأى الرمال وعين الشمس اللاهبة .. وأمامها بالضبط وقف قفص الاتهام الحديدي الفولاذي وفي داخله وضعت الكراسي الفخمة المطعمة بالذهب والماس والمرجان تلك التي جيء بها من قصور الحكام بعد أن أسقطتهم جماهير الوحدة .

والتلفاز ما زال ينقل البث حياً على الهواء مباشرة .

وصعب ما زال مشدوداً إليه .. ولما سيعبئه الحدث الفاصل بين القذارة والطهارة .. وها هم الدكتاتوريين قد جاءوا .. مذعورين مأسورين مسوقين ليوم الحساب لينالوا عقابهم على أكمل وجه ومن خلفهم وأمامهم هبت الجماهير العربية المسلمة لاهثة غاضبة تود أن تبتلعهم بصراخها .. وغضبها ولم تكن قادرة على الانتظار .. إلا أن سلطات دولة يعرب الكبرى قد أوقفت هياجهم بحاجز أوقفته فاصلاً وحائلاً بين غضبهم وبين المتهمين بسرقة الوطن واغتياله . ها هم الدكتاتوريون قد أدخلوا مذلولين إلى قفص الاتهام .. والجماهير العربية في البلاد العربية تتابع ما يجري في ساحة العقاب عبر شاشات التلفزة التابعة لتلفزيون يعرب . الأطفال في بيوتهم والشيوخ في المقاهي وفي الحارات .. والنساء في المدن والأرياف والكل ينظر بشوق وبشغف لا مثيل له إلى الشاشة .

لحظات ويبدأ القصص .

لحظات ويبدأ القصص .. وها هو قد بدأ فعلاً ...

فحضر أحد القضاة المسلمين المكلف بمحاكمتهم .. وجلس على كرسي يقابل القفص وأمامه وقفت مكبرات الصوت .. ليبدأ الكلام ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

(1) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وجعلناهم أئمة (2) يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿﴾ صدق الله العظيم .

في هذا اليوم المبارك العظيم يقف الحق منتصراً ليجيء يوم حساب الطغيان الذي طالما انتظرناه طويلاً .. وقد جاء بقوة الباري العظيم .. فتحية إلى هذا اليوم .. ونحية إلى كل الفاتحين الوجوديين الذين دأبوا واجتهدوا على مر السنين لنعيش معاً هذا اليوم العظيم .
وأنا الآن بدوري وقد كلفت بمحاكمة الطغيان ذاته استسمحكم وابدأ القصص .
وبدأ القصص .. فعزفت الموسيقى القومية النشيد الوجودي القومي ثم أخذ المكلف بالمحاكمة يقول مخاطباً الاندال في قصص الاتهام :

- أيها المتهمون بتعرية جسد هذا الوطن ..
- أيها القادة السلاطين المتسلطين .. الذين وقفتم وعلى مدى السنين لتجويع أطفالنا وسحق آبائنا ؛ وقتل أمهاتنا ، وتدمير منازلنا .. وكم انتهكتم أعرافنا وطاردتم إسلامنا .. كم تلذذتم بقهرنا .. فقتلتم المحبة في ربوعنا الطاهرة . وأقمتم من أجل الشرفاء السجون والقلاع القاهرة .. كم .. وكم .. وكم ..
والآن جاء يوم الحساب .. فمن الذي صهيتكم علينا .. من الذي سلطكم على شعوبنا .. من .. من .. من ..
وقادة الزمن العاهر .. ساكتون مذعورون لا ينطقون أبداً ..
ثم أردف المحاكم قائلاً :
- كيف يكون القصص ؟

الاعداد شققاً ، قليل عليكم وهذا قصاص لا يرضى الله عز وجل .
أنسيتم صبرا وشاتيلا ، ومذبحة بحر البقر ، وبيروت ، ويسان ، والساحات العربية التي صرعت والناس التي حقرت .. واستذلت .. وسحقت .
بسجونكم الرهبة وأساليب تعذيبكم للشرفاء .. إعلامكم الصهيوني المزيف وتواطفكم مع الامبريالية في السر والعلن .
ووقوفكم ضد الإسلام الذي كاد أن يقتل في ظل ممالككم وجمهورياتكم الظالمة وكتاب الحق الذي ياما طاردموه .. وكم سلبتم رجيق المناير تلك التي غدت لخدمتكم وخدمة تسلطكم وحقدكم على الجماهير ..
يا أيها المتسلطون الذين قتلتم بقوة المبادئ .. وانتكتم الأعراف .. فاغتصبتم الحقائق وافترستم الديمقراطية .. وذبحتم البلاد بآلاف الأشكال ..

(1) سورة القصص - من كتاب الله العزيز الآية « 40 - 41 » .

(2) أئمة : قادة في الضلال .

لقد قتلتم الآمال .. وسرقتم الخيرات ، وافترستم الطفولة ، وأكسدتكم النسمات وفجعتم الأرواح
وقلعتم الأعين .. ويعتم الأطراف واغتصبتم العذارى والنساء وشردتكم الأهالي .. ووقفتم بمدافعكم
وصواريخكم ضد المسيرات الوحشية تشجعون الحدود .. وتصنعون السدود في وجه الجماهير
للحرية ..

كم لوئتم الأرض ودنستموها ..
كم جوعتم ، وكم تخاذلتم ، فأني قصاص برأيكم سيرضي الله .
أي قصاص سيرضي كل هؤلاء المتجمهرين من كل الأصقاع العربية .. أي قصاص سيرضي
الإسلام ذاته .. لا قصاص غير البراميل المؤكسدة « ماء النار » ..
لا قصاص غير البراميل المؤكسدة .. فهيا تقدموا .. الواحد تلو الآخر لتناولوا .. ما تذوقناه على
مر السنين ..
هيا تقدموا .. لتعلموا أن الله حق .. ولا إله إلا الله .. أظننتم أنكم خالدون والباريء موجود
لا يقهر .. هيا تقدموا .. وتذوقوا ماء النار .. بعض ما تذوقناه على مر السنين .

والقادة في القفص مذعورون .. مشلولون .. ومنهم من سقط صريعاً ..
المحاكم : هيا تقدموا .. لنسرع بقصاصكم ونطوي السجل الأسود في حياة أمتنا العظيمة ونبدأ
من جديد في ظل حكم الجمهور وزمن الضحية .. لنبدأ ونعيد حضارة محمد ﷺ ومجد
صلاح الدين والوليد .. هيا .. لنطو السجل الأسود برحيلكم ..
ووعداً ..

أن تعود قريباً بيسان والحليل .
وأن تعود قرحتا الجولان واسكندرونة ..
ووعداً .
أن نعيش بعد اليوم أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا .
وأن نعيد الكرة .. فنعيد زمن الرازي وابن سينا وابن خلدون .
هيا أسرعوا .. لنختصر اللحظات ونهي وقت الحساب في يوم العقاب هذا .. لنعيد للأرض
خضرتها وخيراتها المتباعدة في لندن وواشنطن وباريس .
هيا أيها القذارة بعينها .
هيا تقدموا للبراميل المؤكسدة ولتسبح فيها أجسادكم التي ما اغتسلت ذات يوم بالماء بل كانت
تغتسل بالخليب الذي حرم على أفواه أطفالنا .
لن .. نرضى ..

لن .. نرضى في يعرب غير الطهارة .
لن نرضى في يعرب غير الطهارة .
وها هم أخيراً .. القادة .. قادة الزمن العاهر يساقون كالبهايم للبراميل المؤكسدة الواقفة
على مرآة الرمال وعين الشمس اللاهبة .. في الفاضلة مكة المكرمة والبراميل تنتظرهم بفارغ الصبر ..

ها هي ذي سبتلعم بعد قليل لتطوي القذارة وتطوي القذارة .. لتحيا الطهارة . وتحيا الطهارة ..
وفجأة ..
وفجأة يسقط الحلم الصعب .. فيستيقظ صعب من نومه أثر دوي انفجار وقع قبل قليل
في النائمة بيروت ..
لقد توقف الحلم وعاشت الديكتاتورية .

تمت

فضل عفاش

شءاء عام الوحدة ، ١٩٩١ ، بنغازي - ليبيا

المراجع المعاونة للجزء الأول

(أ) الكتب :

- 1 - « كتاب الله العزيز » .
- 2 - « الكتاب الأخضر » - معمر القذافي - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب لأخصر - طرابلس 1986 م .
- 3 - « السجل القومي » بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي - المجلد السنوي التاسع - منشورات مؤتمر الشعب العام 1975 م .
- 4 - رجالات في أمة - فضل عفاش - دار المعرفة بدمشق 1987 م .
- 5 - معجم البلدان - للشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت البغدادي - دار صادر - بيروت 1979 م .
- 6 - ايدولوجية الثورة الليبية - د . محمد مصطفى زيدان - دار مكتبة الأندلس - سلازني - ليبيا 1973 م .
- 7 - رئيسي ابني - فريدريك موسكات - مؤسسة آدم للنشر والتوزيع - مائطا 1982 م .
- 8 - القذافي رسول الصحراء - ميرلا بيانكو - دار الشورى - بيروت 1974 م .
- 9 - برقة قديماً وحديثاً - السنوسي محمد الغزالي - دار الكتاب الليبي 1973 م .
- 10 - ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية - محمد مصطفى بازامه - اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب - طرابلس 1965 م .
- 11 - حقيقة ادريس - صدر عن الادعاء العام - منشورات الفاتح - طرابلس 1976 م .
- 12 - القذافي وعملية القدس - أوراسيو كالديرون - المنشأة العامة للنشر - طرابلس 1982 م .
- 13 - الطريق إلى لوزان - د . محمد عبد الكريم الواقي - دار الفرجاني - طرابلس 1977 م .
- 14 - ميثاق الاتحاد العربي - مطابع الثورة العربية - طرابلس - ليبيا .
- 15 - القرطابية - سلسلة معارك الجهاد - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي - ليبيا 1990 م .
- 16 - صفحات من قصة الثورة - معمر القذافي - دار مكتبة الفكر - طرابلس - ليبيا 1974 م .
- 17 - امامان موسى الكاظم وعلي الرضا - أحمد مغنية - مطبعة الانصاف - بيروت .
- 18 - معجم البلدان الليبية - الطاهر أحمد الزاوي - مكتبة النور - طرابلس 1986 م .
- 19 - « الاعلام » قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب - خير الدين الزركلي - ط 3 - بيروت 1969 م

(ب) الدوريات والصحف :

- الفكر العربي - أعداد مختلفة .
- الخيل - العدد 7 - المجلد 9 تموز - يوليو 1988 م .
- الكفاح العربي - أعداد مختلفة .
- الشورى - أعداد مختلفة .
- المستقبل - أعداد مختلفة .
- الثقافة العربية - العدد 5 - السنة 12 .
- الموقف العربي - أعداد مختلفة .
- المطالب ، الزحف الأخضر - الشرق الأوسط - السفير - الشرق - البيان — وغيرها من الصحف العربية .
- بالإضافة إلى اللقاءات الشخصية .

صدر للمؤلف

- « كهوف الذكريات » - مجموعة قصصية - بيروت - 1985 م .
- « قصر البوم » - رواية إنسانية - دمشق - 1987 م .
- « رجالات في أمة » - الجزء الأول « سورية » - دراسات فكرية - دمشق - 1988 م .
- « رجالات في أمة » - الجزء الثاني « الجزائر » - دراسات فكرية - دمشق - 1988 م .
- « المجالس الشعبية والنيابية في الوطن العربي » الجزء الأول - « مجلس الشعب في سورية » - دراسات سياسية - دمشق - 1989 م .
- « الزمن الذي لا يعود » - رواية سياسية - بيروت - 1990 م .

قريباً :

- « رجالات في أمة » - الجزء الثالث « ليبيا » .
- « الماضي يبدأ غداً » - الجزء الثاني في قصة حياة الزعيم العربي الليبي « معمر القذافي » في حياة عربي .

رقم الايداع بدار الكتب (مصر) 7194 / 1991



General Organization of the Scientific Research and Studies
Al-Markaza Al-Ilmiyya

هذه الرواية

مما لا شك فيه أن الرواية التحريضية السياسية ما زالت غائبة تماماً .. ولا وجود لها في ساحاتنا الثقافية لأسباب عدة تفرضها علينا القيود التعسفية الظالمة التي تصنعها بمهارة السياسات المختلفة في أصقاع البلاد العربية .

وبغياب هذه الرواية .. تغيب الكلمة النظيفة بل تهاجر عن مسامعنا في رحلة سفر بعيدة !!

واليوم وعبر « الماضي يبدأ غداً » للكاتب العربي السوري فضل عفاش .. تحاول الرواية التحريضية السياسية أن تشق أدراجها إلى ساحاتنا الثقافية بعد الغياب .. لتفوز وتفرد بالقصة الكاملة لحياة الزعيم العربي الليبي « معمر القذافي » .. ويتصور أن في هذا الفوز .. لفئة ذكية من المؤلف لاختياره هذه الشخصية الأكثر شعبية في الوطن العربي والعالم .. تلك الشخصية التي انفردت ولوحدها بكل ما يعنيه التحريض ضد الظلم والاستبداد ولخدمة الجيل والإنسانية ..

الناشر

